

مذاہب و شخصیات



زکری مبارک

دراسة تحليلية لمبادئ وأدبه

بقلم

أنور الجندی



مذاهب و شخصیات

زکی مبارک

دراسة تحليلية لحياة وأدبه

١٨٩٢ - ١٩٥٢

بمقدم

أنور الجندی

حياة زكى مبارك وأدبه

هذا كاتب لم ينصفه جيله • ولكنه ينصف الآن ، فى ظل نهضتنا العملاقة ويقظتنا العربية الكبرى ، التى جعلت الوفاء للعاملين ، والتقدير للباحثين ، من بين أكبر أعمالها •

فقد كان زكى مبارك من أصدق الناس إيماناً بمصر ، والقومية العربية ، واللغة العربية ، غير أن هذا الحصاد الضخم من العمل الأدبى الذى أنشأه خلال رحلته الطويلة قد شابه طابع الاعلان عن النفس • نتيجة لعوامل الاضطهاد ، والاحساس بعدم التقدير الذى كان سمة العصور المتخلفة ، والذى كان يبرز فيها من يتصلون بالأحزاب ، أو يجرون فى ركاب الزعماء والوزراء وذوى النفوذ • وقد كان زكى مبارك أبياً عيوفاً ، لذلك لم يجد المجال مفتوحاً أمام كفايته ، سواء فى ميدان التربية والتعليم أو فى ميدان الفكر أو فى ميدان الصحافة • فقد شق طريقه بنفسه ، ونحت حفه من الصخر - على حد قوله •

قدم من ريف ستريس شاباً معماً • فدخل الأزهر • وكان يمكن أن يكون واحداً من عشرات العلماء والفقهاء ، غير أن ذكاه وطموحه وطبيعته المندفعة اللماحة ، قد مدت بصره الى بعيد • وكانت الجامعة المصرية القديمة قد فتحت أبوابها ، واتجه اليها كثيرون ، فتطلع اليها وبدأ يتعلم اللغة الفرنسية ، ثم وقعت ثورة سنة ١٩١٩ واشترك فيها الأزهر بقدر واضح ، فكان زكى مبارك من أعلام الخطابة فى هذه الفترة مع الشيخين : القاياتى ، ودراز • وامتاز بأنه كان الخطيب الذى يستقبل الوفود الأجنبية ، ويتحدث اليها بالفرنسية • وكان نصيبه السجن والاعتقال • ثم عاد بعد الثورة الى الأزهر ، واشترك فى الجامعة • وكتب فى صحف الحزب الوطنى ، وأحرز الذكورة من الجامعة القديمة برسائله عن « الأخلاق

عند الغزالي « وتطلع الى احراز الدكتوراه من جامعة باريس ، ولم يجد
الوسيلة الى ذلك ، فأزعم السفر على حسب مقالات يكتبها في « البلاغ »
وترك أسرته وأولاده . ومضى يذهب في اجزة كل صيف ويعود . ثم
عزم على الانقطاع ، واكتفى بالقليل من المال ، حتى أحرز اجازة الدكتوراه
بأطروحة « النشر الفني في القرن الرابع الهجري » . وعاد عام ١٩٣٢
ليستقبل الحياة الأدبية ويشارك فيها ، بما عرف عنه من عنف ، وحرص
على أحداث الضجيج ، حتى أطلق عليه لقب (الملاك الأدبي) . وفي خلال
عشر سنوات ، حتى عام ١٩٤٢ هلا الدنيا ، وشغل الناس . وكانت جريدة
« البلاغ » ميدانه . يكتب فيها كل اسبوع « الحديث ذو شجون » فيشير
الثائرة بآرائه ونقدهاته ومهاجماته التي خلقت له الخصومات مع رؤسائه في
وزارة المعارف ، و (زملائه) من الكتاب . ولكن « مبارك » كان صسافي
القلب لا يرى في هذه المعارك خصومة شخصية ، وانما يراها وسيلة لتحريك
الحياة الأدبية الراكدة وبعث الحياة فيها باثارة قضايا جديدة ، وأتيح له
أن يطوف بالعالم العربي . ويعمل في العراق وتمتلىء نفسه بحب الأمة
العربية فيدافع عن القومية العربية ، ويدعو الى أن تحل اللغة العربية
في كليات الجامعة بدلا من الاجنبية . ويدخل في معارك مع أكبر شخصيتين
في الصحافة والجامعة اذ ذاك هما : طه حسين ، وأحمد أمين ، وهي معارك
من جانب واحد ، أدارها زكي مبارك وغذاها ، وشغل بها الناس شغلا
عظيما .

وكانت الحياة الأدبية في مصر والعالم العربي في خلال هذه الفترة
يتقاذفها الصراع بين تيارى الثقافة الفرنسية والثقافة الانجليزية ، وبين
دعوات القومية الضيفة ، كلفرعونية والفينيقية ، وبين دعوات القسوميتين
العربية والجامعة الاسلامية . وكان الاكابر من شأن الغرب ، والدعوة الى
تقليده ، والجرى وراءه ، وكان الغرض من شأن العرب وتاريخهم ولغتهم
وحضارتهم وأقطارهم هو طابع العصر . ولكن زكي مبارك قاوم هذا
الاتجاه كله بعنف ، وسبح ضد التيار ، في ايمان صادق عميق ، غير أن
أساليه لم تجد من الرصانة والحكمة واللباقة ما يحقق له ابلاغ رسالته
الى الناس ، واقناع العقول بها . فكانت العاطفة أغلب ، وكانت الجرأة

نحمل الخطأ والكلمة العنيفة • وكان الطابع الذاتي يبرز كثيراً خلال ذلك كله ، فيقلل من شأن الآراء الصادقة المؤمنة بمصر والأمة العربية وتراثها ولغتها ومكانها •

وكان زكي مبارك مدرعا بالعافية ، كما يقول ، والمستقبل يتفتح له في قوة ، لما كان يملك من وسائل ، ومآلف من كثير ، وما أنشأ من فصول • غير أن اغراقاً وقع ، وامتد ، لم يلبث أن قضى على هذا العقل الناهض الذكي والحس القوي ، وأصاره في سنواته العشر الأخيرة مجهداً ، قد انطوى من أسلوبه البليغ الرائع سحره ، ومن مادته قوتها ، ولم يلبث أن ضعف عن الاشتراك في المعارك ، التي أثرت ضده ، ثم انطفأ السراج مبكراً (١٨٩٢ - ١٩٥٢) •

ومنذ مات زكي مبارك ، لم يذكره ذاكر ، الا كتابات قليلة على فترات متباعدة • فكان حقاً على عصرنا الذي جعل من الوفاء أولى علاماته أن يذكر « زكي مبارك » الكاتب الذي لم ينصفه جيله •

انور الجندى

مطالع الحياة

ستريس بالمنوفية

عندما اتجه زكى مبارك من (ستريس) الى القاهرة ليدرس بالأزهر لم يكن أحد يدري على وجه الاطلاق أن هذا الشاب الذى حفظ القرآن الكريم فى • كتاب • القرية سيكون من أبرز كتاب العربية فى العصر الجديد • وأنه سيثير ذائرات فى الأدب والنقد لم يخف آوارها •

وفى الأزهر بدأت شخصية (زكى مبارك) تبرز فى وضوح • انه ذلك الانسان الملىء بالحيوية المتدفق الجرىء الطلعة • • الذى يتأهب للتبرير فى هذا المحيط الصاخب •

وقد استطاع زكى مبارك أن يؤكد شخصيته فى ثلاثة ميسادين : الخطابة والصحافة والشعر • فانه لم يلبث أن انضم الى الجمعية الأدبية التى انشأها الشيخ محمد حسنين العدوى وكيل الأزهر ، لتوجيه الأزهرين الى اجادة الشعر والانشاء • فما لبث أن أصبح أظهر الطلبة • وفى المسابقة التى أقيمت للخطباء فى مسجد محمد بك ابى الذهب كانت قصيدته هى أولى القصائد وأبرزها •

وفى الأزهر التقى زكى مبارك بأستاذين كبيرين ، كان لهما أكبر الأثر فى اتجاهه الأدبى ، وقد ظل يذكرهما حتى أيامه الأخيرة هما : الشيخ سيد بن على المرصفى • وقد صحبه سبع سنين • والشيخ محمد المهدي • وقد صحبه أربع سنين • وكان الشيخان أديبين ، يدفعان الشباب فى طريق الأدب ، فى الوقت الذى كان أساتذة الأزهر يدفعون الشباب فى طريق الفقه والدراسات الدينية المجردة • وكان لهذا أثره الذى اعترف به طه حسين والزيات ، وغيرهما من شباب الأزهر ، أولئك

الذين كانوا يتطلعون الى حياة جديدة ، تتحرر من القيود . ولذلك حرص الشيخ سيد بن علي المرصفي على تجديد شباب « كتاب الكامل » للمبرد وتشذيبه . وقد حدث بين الدكتور زكي مبارك وبين السباعي بيومي صراع طويل ، حول هذا الكتاب ، وحول رأى السباعي في استاذة المرصفي .

وقد كان لصحبة زكي مبارك لهذين الشيخين أثرها في طريقته في التعبير ، وفي اسلوبه في البيان ، من حيث الكيف والكم . فقد كان زكي مبارك ينظم القصيدة في ثلثمائة بيت ، ثم عاد فكان ينظم مقطوعات قصيرة تبلغ أحيانا بيتين أو بيتا واحدا . وقد نشر بعض هذه المقطوعات في « السفور » .

ولا يعرف بالضبط اليوم الذي وصل فيه زكي مبارك الى الأزهر . ولكنه على وجه التحقيق كان طالبا في الأزهر عام ١٩١٠ يعيش بين الحواشي والتقارير ، وله صوت مسموع ، ولا بد أنه كان قد وصل الى الأزهر قبل ذلك بسنوات .

وقد كان زكي مبارك في الوقت نفسه يكتب في جريدة « الأفكار » . ولم تلبث الثورة المصرية ان اندلعت سنة ١٩١٩ ، حتى كان في مقدمة الداعين لها والعاملين . وكان من أبرز خطباء الأزهر في هذه الفترة الى جوار الشيخين محمود أبي العيون وعبد اللطيف دراز .

وكان قبل ذلك قد اتصل بالجامعة المصرية القديمة . كما اتصل بها عدد كبير من شباب الأزهر . وعلى وجه التحديد انتسب زكي مبارك للجامعة بصفة رسمية سنة ١٩١٦ .

وكانت دراسته الفرنسية من أشق الأمور التي منى بها وأقبل عليها ، وقد اتصل ببعض المدارس المسائية ، لهذا الغرض . ولكنه لم يلبث أن شق طريقه بقوة . فقد ذكر في بعض كتاباته ، أن وفدا من الأجانب زار الأزهر أيام الثورة . فقام فيهم خطيبا ، باللغة الفرنسية . وحاز ذلك اعجابهم حين شاهدوا ازهريا معهما يصعد المنبر ويتكلم الفرنسية بطلاقة .

وليس من شك في أن « زكي مبارك » في خطواته هذه كان يتخذه من

طه حسين والزيات ومصطفى عبد الرازق ، وغيرهم من الأزهر بين الذين اتجهوا الى الجامعة القديمة ، مثلاً له . . ولم يكن زكى مبارك فى هذا الوقت يصغر هؤلاء الا بسنوات قليلة . . وقد كان عمره اiban ثورة سنة ١٩١٩ سبعة وعشرين عاماً .

وقد كان زكى مبارك الشيخ الأزهرى الذى يطلب العلم فقيراً بسيط الحال . وكان يعيش حياة بسيطة فقيرة . ويسكن ربح النورية . وقد صور الفرق بين حياته الأولى وحياته بعد ذلك بسنوات ، فقال : « كنت لأول عهدى بحياة القاهرة أعيش عيشة بسيطة . فلم أكن أشعر بفوارق كثيرة حين أتقل لقضاء الصيف فى الريف . ثم تحضرت رويدا رويدا الى أن صرت لا أستطيع قضاء ليلة واحدة بمنزلنا القديم فى سنتريس . »

ولم يكن زكى مبارك يعباً بالأناقة ولا بحسن الملبس ولا ببذل اهتمامه بالمظاهر . وقد ظل كذلك الى آخر أيامه .

فى سنتريس

ولد زكى مبارك فى سنتريس عم ١٨٩٢ (١) على وجه التقريب ، وهى تلك القرية المجاورة للرياح المنوفى فى اقليم المنوفية ، وقريبة من القاهرة . أرضها من أجود الأرض . وكان والده من الزراعين الأذكيا الذين عرفوا بالخلق والكرم . وقد أحب زكى أباه . وكان موضع فخاره واعجابه ، وقد رسم له صورة وصفية عندما توفى عام ١٩٣٥ تمثل فيه صباحة الوجه وصحة الدين وصدق القول وفصاحة اللسان وثبات الجأان والعزيمة والرزانة . وقال ان ثغره كان لا يعرف غير الابتسام ، حتى فى أشد الأزمات والخطوب . وأن الدنيا كانت عنده هيئة لاستحق أن يقطب لها جبينه . وهذه هى الصورة التى رسمها زكى لأبيه « عبد السلام مبارك » .

(١) لم يكتب تاريخ ميلاده بالضبط . ولكنه قال فى مقدمة ديوان « الحان الخلود » الذى كتبه عام ١٩٤٧ « ان ديوان الحان الخلود يرد الى شبابى وقد جاوزت الخامسة والخمسين » . ومعنى هذا انه ولد عام ١٨٩٢ . وبذلك يكون قد توفى فى سن الستين (توفى فى فبراير ١٩٥٢ على أثر سقطة زلقت فيها قدماه . فكان النريف الذى استنزف حياته ، رحمه الله) .

أبي

• لقد عرفت بموتك حقيقة نفسي • وكنت أتشهى أن أكون أمة وحدي
في عالم الوفاء • فطب نفسا إن كان يعوزك ذلك • فمما أثار موتك في
صدرى الا ذكرين غاليتين : ذكرى أمى التى فقدتها فى سنة ١٩١٧ •
وذكرى أخى سيد الذى فقدته فى سنة ١٩١٨ • أما أطفلى الذين دفتهم
من قبل ومن بعد فقد نسيتهم كل النسيان • لأن حزنى عليهم نوع من
الأثرة •

• أقسم ما رأيت أصبح منك وجهها ، ولا أصبح دينها ، ولا أصدق
قولا ، ولا أنصح لسانا ، ولا أثبت جنانا •

لقد أخرجنى موتك عن وقرى • ورماني بطوائف من التحرق
والالتئاع • فاخذت أتأمل كيف يأفل القمر ثم يعود • وكيف تتعاقب
النجوم فلا يعوقها أقول • ثم نظرت فرأيتك تذهب الى غير معاد • وفكرت
فى الغلالة الانسانية التى وعدت بها الأنبياء • وتمنيت أن تكون الحق كل
الحق • وأقسم ماكفرت منذ آمنت • ولكن موتك قلقل يقينى ، ورمى
بقلبي فى أتون من الجزع •

هل تعلم أنى ما تلفت الا رأيتنى مغمورا بأياديك • فهذا دمك يجرى
فى عروقى • وأنت الرجل الشهم الذى اجتاز مفاوز الدنيا بقلب من الصخر
وعزيمة أمضى من السيف • وتلك رزانتك أتمثلها ، فأزداد سخرية
بالحوادث والخطوب • وذلك ثغرك الذى لم يعرف غير الابتسام فى جميع
الأحوال ، أتمثله فأعرف أن الدنيا أهون من أن يقطب لها جبين الرجل
الشجاع • وذلك ايمانك ، أتذكره ، فأعرف أن اليقين كنز ثمين •

لقد كانت شمائلك تفيض بالعطف والحنان • وكان النظر الى وجهك
ربعا للقلب والروح • وكان اتجاه الفكر اليك يغمرنى بالرفق والروحانية •
وقد رسم زكى مبارك صورتين لحياته الأولى فى القرية : فقال فى

الأولى انه نشأ فلاحاً ، وما زانت في يده أثار الفأس والمحراث . وانه لم يعرف السعادة في ظلال العواطف الا بفضل ذلك العهد . وانه في أيام حداته : « كانت ستريس لا تعرف الطلقات ، فكن الماء يحمل الى المنزل من النيل أو من السواقي . فكنت ترى في الصباح اسراباً من الصبايا يحملن جرات الماء ، وحولهن ظلال من الهوى والمرح والشباب النشوان . وانه في تلك الأيام ، أيام الشباب كن يخرج لصلاة الصبح . ثم ينقل مسرعاً الى داره . فيسحب البقرة أو الجاموسة أو الجمل . ويخرج الى الغيط . وهو مسرور جلالاً ، لأنه سيشهد أسراب الصبايا في طريقهن الى السواقي أو النيل . وكانت تلك المشاهد تتكرر في الصباح ، وفي الأصيل من كل يوم ، فكان شبان الريف يمشون بقلوب مشبوبة في الغدوات والأصائل . وكان الشباب لا يغدو ويروح الا بقلب مفتون . »

أما الصورة الأخرى فيرسمها في مقدمة كتاب التصوف الاسلامي :

« كنت في حداتي - كأكثر من ينشئون في الريف - أشهد مجالس الصوفية . وكنت لأبني صلات روحية بأهل الطريق . وكنت أعرف وأنا طفل أني موصول العهد برجل صالح اسمه محمد سعد . وكذلك درجت على احترام ارباب الصوفية » . وهكذا يجمع زكي مبارك بين شخصيتين مختلفتين في أعماقه ، لعلهما استمرتتا تتنازعانه طوال حياته .

صورة الشاعر المفرد ، والانسان العاشق الولهان .

وصورة الصوفي المؤمن ، المحب لله ..

أما ستريس ، تلك القرية التي أخرجت « زكي مبارك » . فهي - كما وصفها - بلد طيب يمتاز عن أشمون وشطنوف باشرافه على النيل .

قال : « ولم نهتد الى تحقيق الاسم . وبعض الناس يظن أن التسمية فيها مسحة رومانية . ولكن الأستاذ « محمد رمزي » يؤكد أنها تسمية مصرية . والمعروف أن هذا البلد قديم للغاية . وكانت مساكن أهله على تلال عالية ، آخرها يسمى « جرف العيسوية » . وهو تل لم يرفع الامند

خمسین عاما • وكانت آخر بقاياہ مسجد سیدی سالم ومقامہ •

وسیدی سالم هذا ، كن یظن علماء ستريس انه سالم بن عبد الله
أحد فقهاء المدينة • ولكنی رأیت أخیرا فی شرح العینی علی البخاری أن
« سالم بن عبد الله » دفن بالمدينة • وقد بنی المسجد المقام علی الأرض بعد
أن رفعت بقایا التل منذ ثلاثین عاما •

وكانت ستريس فی اليهود الخلیة من المعاهد التي یحج إليها
الشعراء (١)

وقد صور زکی مبارك مشاعره عن ستريس فی بعض قصائد فقال :
لیالی النیل واللذات ذاهبة وجدی علیکن أشجانی وأضنانی
لو یرجع الدهر لی مکن واحدة فی ستريس ویدنی بعض خلانی
اذن تبین دهری کیف یرحمنی من ظلم همی ومن عدوان أحزانی
وقوله :

آه لو یسمح الزمان ونلقی من طوی فربهم عناد الزمان
وتری (ستريس) والدهر غاف ما قضینا من اللالی الحسان
وقد رسم صورة « العید » فی ستريس فقال :

« فی ستريس صورتان مختلفتان لطعام العید • الأولى لعید الفطر ،
والثانية لعید الأضحی • ففي عید الفطر یغیب الکعک • وهم فی بلدنا
ینطقونه بالحاء المهملة • ویکثر كذلك (المنین) وهو أقراص صغيرة تحلی
بالسكر أو بالعجوة • وللمکک فی نفس أهل ستريس صورة الفرح
والانشراح • وهم لذلك یحرمونه علی أنفسهم فی العید ، اذا کان فی

(١) ادعی زکی مبارك فی مقال له بالبلاغ (١٧ من یونیه سنة
١٩٣٢) بأن المننبی زار ستريس وله فیها قصائد • ثم عاد فی خاتمة
مقاله فقال « وأهل العلم یرتابون فی نسبة هاتین القصیدتین الی المننبی
ویرجحون أنها من وضع أحد شعراء العصر الحدیث » • وهی القصائد
التي نشرنا بعضها من أبیاتها فی هذا الفصل •

البيت حزن • والأهل والنجيران يراعون حواضر من مت بهم ميت ، لم يمض عليه العيد فيمتعون عن خييز الكعك • ومع أن المحزونين يحرمون على أنفسهم الكعك فإنهم يصنعونه أحيانا للصدقة على روح الأموات ولصلاة العيد اسم طنان في سنتريس • وأشهر مساجدها جامع أبي فراج • وجمع سيدى سالم • وهم يزعمون ان « ابا فراج » من العراق •

وان أهل سنتريس يذهبون الى المسجد قبل الفجر بساعة أو ساعتين فيقرأ المتجهدون ورد السحر ، ويرتلون الدعوات والتسبيحات •

وزيارة الأموات فى ليلة العيد من التقاليد المعروفة فى سنتريس • ولكن لايبست أحد منهم ، كما يقع فى القاهرة ، ولا يذهب رجل الى المقبرة الا فى يده فانوس • •

وفى خلال فترة حياته فى القرية ، تعلم فى المكتب وحفظ القرآن • وكان متطلعا فى هذه الفترة الى نظم المواويل ولم يلبث زكى مبارك أن وجد طريقه الى الأزهر ، شأن لداته فى ذلك العصر •

مطالع الحياة فى الأزهر

ترك زكى مبارك قريته سنتريس ، ويمم نحو القاهرة ليلحق بالأزهر سنة ١٩١٠ وهو فى سن العشرين • وفى الأزهر بدأ حياة جديدة • كانت حياته بسيطة ساذجة ، فى احدى الأزقة القرية من ذلك المعهد الذى كان له أثره الكبير فى تحول حياته ، وقد سكن فى ربيع القورية العتيق •

وكان من أبرز أساتذة الأزهر الذين تأثر بهم اثنان هما : سيد المرصفى وقد صحبه سبع سنين • ومحمد المهدي وقد صحبه أربع سنوات • وكان لهما أثرهما فى طريقة فهمه للشعر • فبعد أن كان يكيّله بالكميال ، حتى تصل القصيدة الى ثلثمائة بيت ، عاد الى المقطوعات حتى كان يكتب بيتا واحدا (١) •

(١) نشر زكى مبارك قصيدة من بيت واحد فى مجلة السفور سنة ١٩١٦ تحت عنوان « ظلام الليل »
وجن على الليل حتى حسبته جفاء كريم أو رجاء لثيم

وفد صور صلته باستاذيه الكبيرين : فقل في فصل عقده عن الشيخ المهدي : أن هذا الشيخ « هو أول من تلقيت عليه الأدب في الجسامة المصرية • وقد صحبته فيها أربع سنوات ، وسمعت محاضراته في عهد الجاهلية وعهد بني أمية وعصر بني العباس • وكنت أصل جناحه بعد المحاضرة حتى يصل الى المحطة • وقد كان رحمه الله يؤثر سكنى الضواحي على سكنى العاصمة • ويمكن الحكم أنه كان من نوادر الأساتذة الذين فهموا روح هذا العصر واستمعوا نداء الجيل • »

كما رسم صورة استاذ سيد المرصفي فقل :

« يأبها الرجل الذي عرفت بفضل اسرار اللغة العربية ، واستطعت مضله أن أرفع رأسي بين أساتذة الأدب وحملة الأفلام •

يأبها الرجل : أنا مدين لك بكل شيء في حياتي اللغوية والأدبية • ولا يزاحمك في قلبي الا انسان واحد ، هو نفيذ الادب والبيان : الشيخ محمد المهدي • لست وحدي تلميذك أيها الشيخ الجليل • فهناك مثبات انتفعوا بعملك وأدبك • ولكني الرجل الوحيد الذي بكى لموتك في حرارة دونها بكاء الأطفال • في سنة ١٩١٣ رأيت في الأزهر رجلا تحيل الجسم غائر العينين لا يفصح سيماء عن شيء • وحوله عشرة من الطلاب وهو ينشد بصوت شجي :

حماسة بطن الوادين ترنمي سقاك من الغر الغوادي مطسيرا

أبيني لنا لازال ريشك ناعم لا زلت في خضراء جاد نميرها

فجلست أستمع لأنشاده • وما هي الا لحظة حتى تبينت أن الذي يحرم دروس ذلك الرجل لا يخرج من الأزهر الا بصفقة المغبون • ثم أخذت أحافظ على تلك الدروس في حماسة واعجب • وكانت عادة الرجل أن يلقي الأسئلة على الطلبة في تجاهل العارف ، ثم يتركهم يستنبطون الجواب

وبعد يومين من اتصالي بدرس جاءته كلمة ابن عباس (ما عصى الله شعر أكثر مما عصى شعر عمر بن أبي ربيعة) فقال الشيخ رحمه الله :

أهذه مثليه ام منفيه ؟ نقلت : يريد ابن عباس ن سر ابن أبى ربيعة
يفعل بالقلوب ما يفعل الشراب • فينقلها من الهدى الى الضلال • •

فقل الشيخ رحمه الله فى حماسة شديدة : «ايه ياعروس الأدب»

وكانت أول كلمة حييت الى قلبى دراسة الآداب •

كان الشيخ خفت الصوت ، فكنت أبكر الى درسه لأقرب منه، وكنت
أكتب كل ما ينطق به ، حتى جمعت من درسه ثلاثين كراسة ، هى اليوم
أنفس ما أملك من ذكريات الأهر الشريف • وكان الشيخ قد تعود ان
يرانى أمامه • فجئت يوما من آخرها • ورفض الطلبة أن يفسحوا لى المجال •
فقل الشيخ : أين زكى ؟ • • فأجبت من بعد : «هأنذا يا مولاي » • فقل
الشيخ رحمة الله عليه : « وسموا له لعله ينفع • •

« فان كان من بين آلاف القراء قارئ واحد استطاب ما أكتب ، ولو
مرة واحدة ، فليذكر ان الفضل فى ذلك يرجع الى تشجيع الشيخ سيد
المرصمى ، ضيَّب الله ثراه »

وانى لأذكر انه كان يلقي درسا فى مسجد السلطان برفوق • ثم
حضر الشيخ على الزنكلونى ، حفظه الله • فقل الشيخ : انه ليحزننى
يا شيخ على أن تظل مشيخة الأزهر غثلة عن تشجيع أبنائها • وانى لأخشى
أن يضع منا زكى مبارك كما ضاع منا طه حسين •

ثم ضاعف الشيخ رحمه الله من حرصه على نفعى • فكنت أحضر
جميع دروسه ، وأصحبه فى الطريق • وأمضى الى بيته ، فأطلع على مالهيه
من مكنون الذخائر الأدبية واللغوية • وأنشده شعري • فيقومه • ويصلح
منه فى رفق كثير • •

ولم يلبث أن اشترك فى ثورة سنة ١٩١٩ • فكان واحدا من خطبائها
المبرزين • وقد ظل طول حياته يذكر موقفه هذا ويزدهى به • وقد حق
له أن يزدهى فأن هذا الحظ من المشاركة فى ثورة سنة ١٩١٩ لم يتح
للكثير من كتب مصر • وكان يردد دائما كلمته « أقدمت يوم جسد
الخطب غير وجل ولا هيب » •

وقد كتب عن هذه الفترة من حياته عديدا من الفصول والكلمات :
يقول : « كانت السلطة العسكرية تبحث عني لتقتلني • وكنت من
خطباء الثورة المصرية وشعرائها • وكان الجواسيس قد أخبروا السلطة
العسكرية أنني ألقى قصيدة سياسية في الأزهر • وكان يجب أن أحترس
فأمنع السلطة البريطانية من أن تعرف أين مكنتي • فقضيت ثلاثة أشهر
وأنا لا أعرف أين أبيت • كان مأوى غرفة في سطح بيت يقيم بها أحد
الشبان الأقباط من أبناء ستريس • وهو شاب على جانب من اللطف والذوق
هو الأستاذ أنيس ميخائيل (١) •

وقد أرسل زكي مبارك خطابات الى صديقه أنيس ميخائيل ، نشر
منها هذا الخطاب في كتابه « البدائع » وهذا جانب منه :

من رسائل المعتقل

• سأضرب صفحا عن الدمة التي سكبته على القصاص • لأرسل
لايكى له • ولا يبكى عليه • إنما خلقت لأكون مثلا في الشمم والآباء •
ولو كان بي حب الدعة والطمأنينة لما مكنت في المعتقل هذه الشهور الطوال •
فقد فكر القوم في مساومتى لأول لحظة وطئت فيه ثكنة قصر النيل ولكنى
أقذيت عيونهم حين أريتهم كيف يطيب الشقاء في سبيل البلاد • وأقسم
لو سلم المصريون جميعا وخرج مصطفى كامل من قبره ليصافح الانجليز
لما كان في ذلك ما يزعجنى قيد أنملة عن معاداتهم ، حتى يكون الجلاء
وأعذك أن تحب أن جلاءهم عن مصر ، ان تم ونحن أحياء ، ينسينا
ما فعلوا بنا ، وبأهلينا ، منذ كان الاحتلال •

ليست انجلترا هي العدو الوحيد للأمة المصرية بل هناك عدو آخر

(١) كان زكي مبارك بلجأ الى منزل أنيس ميخائيل بحى القللى
في ضاحية السبية قبل أن تعتقله السلطة العسكرية البريطانية
الدخيلة المحتلة •

مارس ١٩٢٠ - من رسالة الى صديقه أنيس ميخائيل •

ما زال من قبل يبص بآلامه غير وان ولا راحم • لا وهو يجهد • هذا
العدو اللدود • الذى ستعين به انجلترا لأعصب وادى النيل • وسأعرف
ما أصنع حين أعود الى القاهرة ولو بعد حين • —أعرف كيف أحارب
الجهل ، وكيف أصب الصواعق على رؤوس من يستغلون جهل الأمة ،
فيالون به ما لهم من سبى الأغراض ومنكر الشهوات • • كما كب فيما بعد
ذكرياته عن هذه الفترة من حياته تحت عنوان :

ذكريات طالبٍ اشترك في الثورة

• كنت من خطباء الثورة المصرية ، فاكثرت بنارها وشهدت آلام
التشريد ، والاعتقل شهورا طويلا • ومع هذا فما تمتل هذه الأيام ، الا
بدم لي بعيدة غاية البعد ، كأنه ألقى به القدر فى واد من السنين
سحيق • •

ويطيب لى أن أذكر أن عهد الثورة سبقته عهود من الضجر والحسب
لمطالعة عهد جديد ، فقد كنا فى أحرى أيام الحرب تنطلع الى الخلاص من
الآصار التى أرهقنا بها مظالم السلطة العسكرية •

وكانت السلطة العسكرية البريطانية المحتلة قد منعت الناس صوال
أعوام الحرب من زيارة قبر مصطفى كامل • فلما كان يوم ١٠ من فبراير
سنة ١٩١٩ هاج الناس وذهبوا الى قبر مصطفى كامل • وذهبت مع فريق
من الطلبة • ورأيت المرحوم الشيخ أحمد ندا يقرأ القرآن • والناس
يستمعون فى صمت ورهبة • وخطب يومئذ المرحوم على فهمى كامل (بك)
ولما انصرفنا تجمهرنا فى حى المنشية • وهتفنا بحياة الحرية والاستقلال •
وقبضت السلطة العسكرية فى ذلك المساء على عدد كبير من الطلبة • فقصوا
أياما وأسابيع • وذلك فيما أذكر أول عهد الطلبة بعد الحرب بالسجن
والاعتقال •

ولأذكر الآن أننا ذهبنا الى الأزهر لإقامة مظاهرة ، وذهبت كل مدرسة
معهما علمها الخاص • ووقفنا صفوفنا أمام الأزهر نخطب ونهتف • وظلت

الطيارات الانجليزيه تحوم فوق رموسل تجويما . وقحا . وبقينا كذلك حتى
انتصف النهار .

ومن مظاهر ايام الثورة ان الخطب كانت تتجري منظمة في الأزهر
كل مساء . وكان الشيخ عبد ربه مفتح يفتل أخبارها الى جريدة الأهرام .
كما كانت الخطب والمظاهرات واقامه امتاريس والاستحكامات في كل مكان
في مصر ، بين جميع الطبقات ، وبين الجنسين ، وكان الأزهر يموج كل
مساء بالآلاف المؤلفة لسماع الخطب الوطنية . وكان رئيس الخطابة يومئذ
الشيخ محمود أبو العيون . وكان الانسان لا يصل الى موقف الخطيب الا
بجهد جهيد . وكنت أبحث عن فرصة للخطابة فلا أستطيع . وظللت أياما
لأخطب . وطال الانتظار . وفي مساء يوم حضر وفد الصحافة الأجنبية .
وخطب خطيبهم باللغة الفرنسية ، فسألني الشيخ أبو العيون أن أرد تحيتهم
فتقدمت بجرأة وحماسة . وخطبت خطبة فرنسية رنانة ، شهد الشيخ
الزركلوني بأن لساني فيها كان أفصح من لساني بالعربية . ومنذ تلك
اللحظة كنت أصل الى موقف الخطيب بترغبة الجمهور الذي كان يتظر
خطبي كل مساء . وأشهر خطباء الثورة يومئذ أبو شادي (بك) والشيخ
مصطفى القاياتي . والدكتور محجوب ثابت . وغيرهم من الأساتذة والطلبة
والثقيين والشبان والفتيات .

ومما سجله في بعض كتاباته قوله عن هذه الفترة :

« كان الانجليز قد سمحوا للمعتقلين أن يستحموا في البحر
مرتين في الأسبوع . فكنت اوغل في البحر ابعثا شديدا . فيرفع الجنود
بنادقهم ويهددونني بالرصاص اذا لم أرجع الى الشاطئ . ولكن الوهم
عندهم أنني قد أسبح الى أن أصل الى الشاطئ الفرنسي » (١) .

كما ذكر أنه كان يشتري في المعتقل بجزء من طعامه (كبا) .

ولا شك أن هذه الفترة من حياة زكي مبارك تعطي خطأ عريضا من
خطوط تلك الشخصية . ولقد كان مجهول هذا الأثر ما صور في قوله :

(١) : من مقدمة ديوانه « الحان المخلود » - ١٩٤٧

• لقد تمردت على الظلم كما تمرد أجدادى • فكنت بين خطباء الثورة المصرية سنة ١٩١٩ • فاعتقلنى الانجليز وصيرونى أسير حرب •

ان أيام الاعتقال أورثتنى أحزاناً كثيرة ، وهى أحزان ما زالت تعطر قلبى • ولكنى أفدت من أيام الاعتقال • فقد عرفت معنى الاعتراب فى الحياة ، وهو معنى جميل • •

وفى خلال حياة زكى مبارك فى الأزهر ، تلك التى امتدت من (١٩١٠ - ١٩٢٢) كانت هناك عوامل متجددة تظلى كالمراجل ، تريد أن ترسم صورة حياته المستقبلية :

- هذه العوامل هى : (بعد ثورة ١٩١٩) : (١) اتصاله بالصحافة •
- (٢) واتصاله بالجامعة المصرية القديمة •

كان الشيخ زكى طالب الأزهر يعيش بين احوالى وامون والتقارير وقد افتتحت الجامعة المصرية أبوابها • فأتجه اليها اسبب اسطلع الى الصهور وكان هو فى مقدمة من اتجه اليها • ولم يلبث أن تطلع الى أن يعبر البحر • فراح يتعلم اللغة الفرنسية ثم يدرسها • وفى خلال ذلك كان هو الشاعر الذى يقول الشعر ، ويكلف لونا من ألوانه • هو شعر الغزل • فيلقى أولى محاضراته فى الجامعة عن حب عمر بن ابي ربيعة وشعره • وكان فى خلال ذلك قد حفظ عددا ضخما من قصائد الشعراء ، بلغ على حد قوله ثلاثين ألف بيت من الشعر العربى (١) •

• ولم يكن كلامى ضربا من التحدى المؤقت ، وانما كان حقا من الحق • وما اكتفيت بالثلاثين الفا الا اشفاقا على طلبة الجامعة • فقد كانت مختارات البارودى من بعض محفوظاتى • وكنت أحفظ دواوين برمتها

(١) يقول زكى مبارك فى عام ١٩٢٧ « خطر للدكتور طه أن يفهم اساتذة اللغة العربية فى احد دروسه بالجامعة المصرية • فقال : كيف يجوز لهؤلاء أن يتولوا تدريس الادب فى المدارس الثانوية أو العاليه وليس فيهم من تصفح ديواين اثنين من دواوين الادب العربى • فنهضت وقلت « أرجو استثنائى من هؤلاء فأنا أحفظ ثلاثين ألف بيت من الشعر العربى • وأستطيع انشادها جميعا فى أى وقت » •

من الشعر الفرنسي • وقد حفظت معظم كتاب (تليماك) عن ظهر قلب .
سنة ١٩١٩ •

ولم أكن أعرف نظام الجداول عند الشروع في تأليف كتاب
« الأخلاق عند الغزالي » فكنت أرجع الى الشواهد في مؤلفات الغزالي ،
بغير أن احتاج الى دليل • •

ثم يعلق على ذلك بقوله : « ما استطعت ذلك كله ، لأن ذاكرتي أقوى
من سائر الذاكرات • أو لأنى أذكى من سائر الناس • وإنما استطعت ذلك
لأنى لا أعرف المسامحة فى صيف ولا شتاء • ولا أذكر أنى انقطعت عن
الدرس فى يوم من أيام الدراسة والأعياد ، حتى أيام البواخر ، قرأت
فيها أشياء ، وكتب أشياء • •

اتصل زكى مبارك بالجامعة المصرية القديمة رسمياً عام ١٩١٦ •
فبدأ فيها حياة جديدة ، تطورت حين تقدم برسالته للحصول على الدكتوراه
عام ١٩٢٤ •

وفى الوقت نفسه ، أو قبل ذلك بسنوات كان قد اتصل بالصحافة وقد
كان يكتب سنة ١٩١٤ بامضاء « الفتى الأزهرى » • وألف لجنة لاصلاح
الأزهر والمعاهد الدينية ، وكتب رسائل مختلفة فى نقد العهد الدينى •

وقد تولى رئاسة تحرير جريدة الأفكار عام ١٩٢١ • وكانت صحيفة
الحزب الوطنى يقول : « وكنتم أكتبها من الألف الى الياء • وعلى
صفحاتها نقدت أعمال لجنة الدستور بصورة لاتخطر على البال ، •

عمل زكى مبارك فى الصحافة منذ وقت مبكر ، منذ كان طالباً فى
الأزهر • فقد كان حريصاً على أن يؤكد ذاته بالحديث عن الحياة ، وإعلان
رأيه فيها • وكان فى أدبه الصحفى ناقداً جريئاً يتمثل فيه كل عدو
وجرائته واندفاعه •

وقد صور استهلال عمله فى الصحافة فقال :

• فى أوائل سنة ١٩٢١ دعانى الصوفانى (بك) لرئاسة تحرير

جريدة الأفكار • وكنت من محرريها قبل الاعتقال • فبدلت ما بدلت من الجهود في تأييد الحرب الوطنى • ولكن الأقدار لم تمهلنى فى رئاسة تحرير الأفكار غير عام وبعض عام • فقد اتفق الصوفانى (بك) مع الأستاذ عبد القادر حمزة اتفاقا يقضى بأن تصبح الجريدة وطنية وفديه • واشترط الأستاذ عبد القادر شروطا كان أهمها أن يكون حر التصرف فى اختيار المحررين • واشترط الصوفانى (بك) ان يكون للحزب الوطنى محرر يعتمد عليه فى رعاية ما يهم الحزب من دقائق الشؤون • وكان ذلك المحرر هو زكى مبارك • وقبل عبد القادر هذا الشرط وفى نفسه أشياء • ومن أجل هذا لم يسمح بأن أشير من الأفكار غير مباحث أدبية لاتقدم ولا تؤخر فى السياسة الحزبية •

ثم فوجئ عبد القادر حمزة بأن وجد أن لى نشاطا صحفيا يغيب عن عيه الواعية • وهو مقالات كتبت أرسلها الى جريدة الأمة بامضاءات مختلفة • فأدرك أنه لا أمل فى أن أسير كما يسير •

عندئذ بدا لعبد القادر حمزة أن يصحب شابا له أهداف • فوثق بى فدعانى الى الاشتراك فى تحرير البلاغ عند ظهوره فى أوائل سنة ١٩٢٣ • ولكنى رفضت بحجة أن هواى سينزل مع الحزب الوطنى ••

وهذه بعض نماذج من كذبه فى هذه الفترة :

♦ « نريد أن نعرف لم يحرم طلبه الأزهر دراسة الآداب العربية • ونريد أن نعرف متى تدول دولة المؤلفات السقيمة ، التى وضعها قوم ، أقل عيوبهم أنهم لا يفقهون لغة القرآن المجيد • ونود لو تفضل القائمون بإدارة المعاهد الدينية فدلونا على الغرض الذى رموا اليه حين ألقوا بالطلاب فى بيداء من الخلط والتقصير • لنطمئن كما اطمأنوا ولنترحم منهم على المؤلفين الأغنياء الذين أقسدوا ما للطلبة من قلوب وعقول • »

♦ لانجد كتابا من الكتب الأزهرية قد خلا من الحكم على الشعر : احرام هو أم حلال ؟ وهذا خلاف قديم • رويت فيه هذه النكتة الطريفة • وهى أن « سعيد بن المسيب » سمع رجلا يذكر أن انشاد الشعر ينقض الوضوء ، فأنشد من فوره :

أثبتت أن فتاة جشت أخطبها .. عرفوا بها مثل شهر الصوم في الطول.
تم أقام الصلاة .

• رأى الكاتب انرص الحديث لأول مرة • وهو شيخ يلف على رأسه العمامة ويرتدى الجبه والقفطان • وكان ذلك في أوائل سنة ١٩٢٢ • فكتب في وصفه هذه الرسالة الساذجة التي تمثله وهو يفتح عينيه على فتن الوجود في دهشة وانجذاب :

• أعرف أنى شيخ • وأعرف في نفسى أنى من حماة الدين الحنيف • والله عليهم دات الصدور • ولكنى تذكرت بجانب ذلك أنى صحفى • وأن المهنة تقضى على بارتياح مواطن الشبهات ومواقف التهم ، لأرى كيف يعيش الناس • ولأقابل بين ما أراه على لوح الوجود ، وما أراه على لوح التاريخ • وعندى أن الصحفى كالطبيب • فكما يجوز للطبيب أن يرى أجمل ماتستر المرأة ، ليقف على موقع الداء ، يجوز للصحفى أن ينظر أغرب ماتكم الأمة ، ليقف على مواطن الداء •

وتذكرت أنى كاتب • والكاتب كالمصور • لاغنى له عن رؤيه كل مكنون • ولن يعذره أحد اذا أخفق في تصوير الغرائب المستورة ، والعجائب المكنونة ، بحجة الدين والأخلاق • لأن (الفنان) لادين له في قرارة نفسه •

• • ان طلاب الأزهر لا يعرفون غير متاعب الحياة • فهم في سنى الدراسة يعانون الآلام بين الكتب المعقدة ، والدروس المتعددة • ثم اذا اجتازوا عقبات الامتحان بعد العمر الطويل ، والهمم الجزيل ، دخلوا في حياة لاحظ لهم فيها غير حظ الأعزل من الصر ، في ميدان كله رماح طوال وسيوف صقال •

ان النبوغ الذى امتاز به بعض الأزهرين في الزمن القديم والحديث ليس أثرا من آثار الادارة التي تولاه زعماءه الأقدمون أو المحدثون ولكنه أثر من آثار الذكاء الذى انفرد به بعض الشبان الذين هبأت لهم ظروف خاصة أن يخرجوا على التقاليد البالية •

فى الأزهر الآن جماعته من عشق النهوض تراهم اذا زرت الجامعة
المصرية أو مدرسة الأزهر المرتبة تراهم فلا تشعر بغير الإعجاب بهم
والاعظام لهم . . .

ماذا تستطيع أن تعطينا هذه النماذج للرسم صورة زكى مبارك ؟ . .
الواقع انها تعطينا صورة الاندفاع والحماسه والايمان والرغبة فى الإصلاح
والاتجاه نحو التبريز والشهرة . . ولكن من هذه النماذج ما يعطى صورة
زكى مبارك التى عاشت معه الى آخر الحياة :

صورة الاعتزاز بشخصيته والبعد عن مزلق النفاق والمصانعه .
يقول فى مقال له ، نشرته جريدة الأفكار (نوفمبر سنة ١٩١٩) :
• تصحى يا هذا بأن أجامل • وأن أصعب • بل تريد أن أناق •
ويحدث • انما يوافق الضعفاء .

ان الله لم يخلقنى لأكون ألعوبة • أدارى هذا وأجامل ذاك • أناخير
مكم جميعا • أنا فى نعمة من الله • لا أبالى بعدها أين يكون سخطكم وأين
يكون رضاكم • وان الله لأكرم من أن يضطرنى الى مصانعة جماعة من
الكسالى لقيمة لهم فى هذا الوجود • ان فضيلة الوفاء هى التى تضطر مثلى
الى أن يجامل بعض الناس • كلا : لن يكون هذا • انكم تنافقون لتعيشوا •
أما أنا فحى بالرغم منكم • لأن الله لا يريد أن اموت • وسوف تعلمون • •
هذا هو زكى مبارك سنة ١٩١٩ • وهو زكى مبارك الى آخر الزمن •
لم يتغير بعد ذلك • ولم يجامل • ولم يتسلق • ولم يصانع السلطان • ولذلك
عاش حياته غريبا لم يقتعد مكانه الحق فى الحياة •

وفى هذه الفترة من حياة زكى مبارك لن ننسى الجانب الروحى •
فقد اتصل زكى مبارك فى الأزهر بالطرق الصوفية • كما اتصل بالجامعة •
يقول :

• فى سنة ١٩١٢ وأنا طالب فى الأزهر اشتدت رغبتى فى صحبه
الصوفية • والى الشوق فأخذت أنتقل من ناد الى ناد • حتى تعرفت الى
رجل فاضل من أساتذة الأزهر الشريف • كان يومئذ من كبار الصوفية •

فأخذت عليه العهد • وبدأت أفوم بالأوراد على طريقة الشاذلية • وكان في صوتي من المرونة ما يساعد على القاء الأناشيد • فكنت من المتقدمين في الأشهاد • وفي سنة ١٩١٥ رآني ذلك الشيخ صالحا للأستاذية في الطريق فأضاف اسمي الى قائمة الخلّة • وكان لي في ستريس وغير ستريس مریدون وأتباع •

وفي عام ١٩١٨ قم بيني وبين الشيخ الطماوى نزاع • فقد كان يرانى قليل الرعاية للتقاليد الصوفية • وانتهى ذلك بالقطيعة ••

ومرت أيام عانيت فيها من النضجر ماعيت • وحولت أن أصلح ما بيني وبين الشيخ • ولكنى لم أفلح في جنب نفسي اليه • فقد اقتنعت ان بعض الصوفية أرباب ظواهر • وان ادعوا انهم أرباب قلوب •

وفي خلال تلك الأزمة ألقت كتاب « الأخلاق عند الغزالي » • ذلك الكتاب الذى نلت به اجازة الدكتوراه من جامعه مصرية سنة ١٩٢٤ • وهو كتاب تجيت فيه على التزم في التصوف • ورميت بعض أشياعه بالغفلة والجهل ؟ وهكذا يبدو حيد ركنى مبارك في مطلع الشباب ، وقد غمرها اضطراب عيف •

حياة الأزهر ، تلك التى أمضى فيها اثنى عشر عاما ، قد نخللها الكثير من عوامل التحول عن الأزهر الى احياء الحديثة والتعليم الحديث ، فولى وجهه شطر الجامعة ، وحاول اتقان اللغة الفرنسية • وكتب فى الصحف • وأحب التصوف ، ثم هجره • وبدأ فى صورة الرجل الذى يريد أن يعارض الآراء المعروفة والتقاليد حتى يكون ذلك مصدرا للشهرة والتبريز •

حياة في الجامعة

أصلت حياة زكي مبارك رسمياً منذ سنة ١٩١٦ ، ثم رادت أصلاً عميقاً . وفي الوقت نفسه بدأت تنقطع من ناحية الأزهر ، بل ربما شابه كثير من المتور والاعضاء . غير أن اثر الأزهر في زكي مبارك ظل قوياً عميقاً طوال حياته . فلأزهر هو الذي أهدي إليه أعظم خصائصه : أسلوبه البليغ ، وتراث العربية والاسلام ، ممثلاً في الشعر والنثر ، وصلته بالشيخين المهدي والمرصفي . كل هذا ظل واضحاً بارزاً في إنتاجه ، وأدبه ، وحياته وان كان قد تطور ففهم بعض أصول الأدب ومراميه وفنونه ، بعد أن اتصل بالجامعة ، ثم اتصل بالثقافة الفرنسية .

ولكنه حين تحول الى الجامعة ، تحول عن بعض معتقداته وآرائه . فهو الذي كان محباً للصوفية . ثم أنكر بعضهم . بل لقد بلغ في ذلك غيه العنف حين هاجم الغزالي ، فأثار الناس ثورة عنيفة ، رجع عنها بعد ذلك ، وأنكرها من نفسه ، وكتب يقول : « اليك اعتذر أيها الغزالي » .

أما في هذه الفترة فقد استطاع أن يدرس العلوم التي تؤهله للاشتراك في الجامعة . فحصل على الليسانس ، وكان من أساتذته في الامتحان ، أستاذه ورائده والرجل الذي ظل ينظر اليه ويتربص خطاه طوال حياته : طه حسين . وقد أسقطه طه حسين في امتحان الليسانس مرتين . فلما أن حضر به بدأ بعد رسالته عن الدكتوراه . وكان موضوعها « الأخلاق عند الغزالي » عام ١٩٢٤ حيث تحقق له ذلك الحلم . فأحرز اجازة الدكتوراه وكان زكي مبارك قد أثار ضجة قبل ذلك بسنوات ، حين حاضر في الجامعة عن « حب ابن أبي ربيعة وشعره » . ولم يكن هذا النوع من الحديث مقبولاً في ذلك الوقت ، وخاصة اذا صدر من أزهري يلبس العمامة . . . اذ لم يكن الحديث عن الغزل وعن وصف النساء والتشبيب بهن أمراً

سهلا أو يسيرا حتى يكون موضع محاضرات تلقى ، أو كتب تؤلف . ولكنه كان حريصا على أن يثير الناس ليطفر بالشهرة . فعل ذلك فى الأزهر حين كان يكتب المقالات الطوال فى نقد نظم الأزهر وأساتذته . ثم فعل ذلك بمحاضراته عمر بن أبى ربيعة . ثم فعل ذلك وبلغ الذروة برسائله فى الدكتوراه التى نوقشت مناقشة علنية على مدرج الجامعة فى ١٥ من مايو سنة ١٩٢٤ .

وقد صدر زكى مبارك رسالته عندما طبعها بهذه العبارة :
« هذا هو الكتاب الذى نلت به اجازة الدكتوراه من الجامعة المصرية . والذى سلقنى العلماء من أجله بالسنة حداد . هذا هو كتاب « الأخلاق عند الغزالى » . أقدمه للجمهور ليكون المرجع لمن يريد أن يتبين مبلغ المعرضين من الصدق . وحق المرجفين من الصواب . هذا هو الكتاب الذى رميت من أجله بالكفر والزندقة ، والذى فجر لحسادى ينبوعا من اللهيو والثرثرة لا ينضب ولا يفيض . وما أنا والله بنادم على رأى رأيته ، أو قول جهرت به . فلست ممن يخافون فى الحق لومه لائم . أو يقيمون وزنا لكيد الحاسدين ولنمو اللاعنين من مرضى القلوب وضعاف العقول . »

وقد كتبت الصحف غداة هذا الامتحان بأن « زكى مبارك » هو ابن الجامعة الخامس . فقد أحرز اجازة الدكتوراه بدرجة « جيد جدا » وقالت صحيفة الأفكار : « ان جو الامتحان كان عنيقا . وان الأسئلة دارت حول القديم والجديد . وكان أنصار القديم كثيرين » وأنصار الجديد قليلين . ولكن زكى مبارك لم يجد حرجا فى أن يظهر ، ولم يجد حرجا فى أن يصدم من أنصار القديم . ولم يجد حرجا فى أن يلين لهم حين بصر بهم ينضبون ورأهم يثورون ، ليهديهم من ثورتهم ، ويخفف من غضبهم . » وقال الأستاذ محمد جاد المولى ، مفتش اللغة العربية ، بالمعارف فى ذلك الحين ، يصف هذه المعركة :

« كنت فى تلك الأيام لا أعرف الدكتور « زكى مبارك » معرفة شخصية وإنما كنت أعرفه عن طريق ما يكتب فى الصحف والمجلات . فكنت

أصوره شاباً بعيد المهمة ، كلفا ينقد الشعراء والكتاب والمؤلفين ، محبب للظهور بمظهر السيطرة والاستعلاء .

ولما أطلعت على رسالته التي قدمها لامتحان الدكتوراه في تلك الأيام وهي الأخلاق عند الغزالي ، رأيت فيها صدق ظني : رأيت يهجم على حجة الاسلام الغزالي ، ويقسو عليه ، فلم أجده بدا من أن أتشدد في حسابه ، لأعجم عوده وأسبر غوره .

فلما أخذت في محاسبة الدكتور زكي مبارك على ما صنع في نقد الغزالي تكشف جواب ، أثارت فضيلة الشيخ اللبن ، فتدخل ، وتدخل معه جماعة من جلة العلماء . وكاد الجمهور يموج من الغيظ . ولولا حكمة رئيس اللجنة : الدكتور منصور فهمي ، لاضطراب النصف ، وانفرط عقد الامتحان .

وحين خلت اللجنة للمداولة أسفر نقاشها عن منح زكي مبارك اجازة الدكتوراه بدرجة « جيد جدا » . واقترحت أن ينص في محضر الجلسات على أن اللجنة غير مسئولة عما في الرسالة من الشطط والجموح .

وكت أظن أن المشكلة انتهت عند هذا الحد . ولكني تبينت مع الأسف أن هجومي على الدكتور زكي مبارك كانت له عواقب . فقد حمل عليه جماعة من العلماء في جريدة المقطم ، وجريدة الأخبار ، يحملواهم الشيخ يوسف الدجوي ، والشيخ أحمد مكى .

وعند ذلك عرفت أن الدكتور « زكي مبارك » قد يقضى حياته في المصاولة والمجادلة لما قد استقر في النفوس من أنه باحث متعسف مشاغب ، وهكذا كان استهلال زكي مبارك لحياته الفكرية : « باحث متعسف مشاغب » على حد تعبير الاستاذ أحمد جاد المولى .

وقد وصف عبد الله حبيب صديقه « زكي مبارك » في هذا الجانب من جوانب حياته : فقال :

« أما ما أثاره من ضجة حول آرائه الجديدة في شعر ابن أبي ربيعة ،

فقد ظهر لى بعد ذلك أن هذا هو دينه فى كل ما يتناوله من موضوعاته • وهو فى هذا كأنه خلق بسبب للعقول (رجة) لا قبل لأحد على احتمالها • وأشار زكى مبارك فى بعض كتاباته الى أن الشيخ « حامد الفقى » وقف يوم الجمعة التى تلت امتحانه • وخطب خطبة الجمعة • فقال : ظهر فى مصر ملحد اسمه زكى مبارك • ذلك الذى فرحت الجامعة المصرية بالحداده • فمنحته الدكتوراه • ومثل هذا الملحد فرصة لمن يريد أن يدخل الجنة • • وقال : « ان خطيب مسجد الهدارة حرض المصلين على قتله » أحب زكى مبارك كل مدينة عاش فيها : أحب باريس ، وبغداد ، والقاهرة ، والاسكندرية • • وكانت جميعها مصدر الوحي له • •

« لماذا أحب الاسكندرية ؟ » • يقول : « السبب يرجع الى انى دخلت لاسكندرية أول مرة ، وأنا حزين ، دخلتها فى ففص • دخلتها فى سيارة مقفلة من سيارات السلطة العسكرية الانجليزية فى أيام الثورة المصرية • دخلتها فى الظلام • فلم أر من جمالها غير أطراف • ثم نقلت من ذلك السجن المتحرك الى مقر الاعتقال فى ضاحية نائية هى اليوم صباية ومدارج فتون • ومن يصدق أن ضاحية سيدى بشر كانت معتقلا يسجن فيه من هتفوا باسم الحرية والاستقلال • • ؟!

• • قضيت فى هذه المدينه شهورا صوالا بدون أن أشهد من جمالها غير ما يطوف بالأوهام والظنون • ولن أنسى أبدا كيف كان هدير البحر بقرع سمعى وقلبى فى غنوات الليل • ولن أنسى كيف فرحت يوم خرجت من المعتقل لأرى الاسكندرية بعيني ولا طوف فى رحابها حيث اشياء بلا حارس ولا رقيب (١) •

وهو يتنزه كل فرصة يكتب فيها عن أى موضوع ليزود القارىء بمزيد من التاريخ والثقافة :

• وسكان الاسكندرية يرجعون فى الأغلب الى عصرين اثنين :

(١) وصف زكى مبارك الاسكندرية أكثر من مرة فى مقالاته • وقد أوردنا صورة أخرى لها فى مكان آخر •

العصر الوافد من اصعيد • وهو عصر معروف بالعناد ، والعصر الوافد عليها من المغرب بعد ستوط الأندلس فى ايدى الأسبانيان ، وهو عصر معروف بقوة المراس ••••• كما أقبلت على الاسكندريه طلائع الجيش الاسلامى ، وجعلت نلاسلام دولة على تناطىء المحيط • وقد كان بحر هذا أول بحر خفقت فيه الراية الاسلاميه • وسيصل الى الأبد همزة الوصل بين حضارة الاسلام فى الشرق وحضارة النصرانية فى الغرب »

أما القاهرة فلها عنده صور متعددة : فهويراها شيئا ضخما مهولا •• ويراهـا ملاذ كل خائف ومأمن كل ملهوف •• وفى مقل له عنوانه • ويسألونك عن القاهرة » يقول (١) •

هل القاهرة بغداد الأمس وباريس اليوم •

أكتب هذه الرسالة ، وقد هربت من ضجيج القاهرة • فى مسـ •
العيد •

نعم هنا القاهرة • ولكن أين مكان الأديب فى المدينه التى أصبح عاصمه الشرق ، هنا فى القاهرة زادالعقول والقلوب والعواطف والأحاسيس فأين مكان الأديب يا قاهرة ليؤدى ما أداء عشاق بغداد فى القديم ، وعشاق باريس فى الحديث •• ؟

وسأذكر بعد فوات الوقت أننى جنيت على شبابى حين أضلعت بين سواد المداد وبياض القرطاس فى زمن لا ينفع فيه غير الاتجار بالتراب •

وهل يستطيع قاهرى ان يمضى يوما واحدا بلا كفاح ، وهو يعيش فى مدينة مقدودة من صخور الصبر على مصاولة الحياة ؟

ان هذه المدينه التى تفتكم لم تخلق فى يوم وليله • وانماهى عصارة العزائم الشداد فى الأجيال الطوال • فمن أقام فى القاهرة وله عقل وذوق فليحاسب نفسه على اللمحات واللمحظات ليؤدى الزكاة عن قلبه وعقله وذوقه ان كان من الموفقين •

(١) الرسالة - ٥ من فبراير سنة ١٩٤٠

فى كل بلد من بلاد الشرق يستطيع الرجل الوسط أن يعيش ، لأن
الدنيا فى بلاد الشرق ما زالت ، وستظل ، تتسع للأوساط من الرجال •

أما فى مصر - ويرحم الله أهل مصر - فليس فيها للرجل الوسط
مكان العالم الوسط • فهو لا يستطيع العيش • والأديب الوسط لا يجد
الرزق • والصحفى الوسط لا يملك الوصول الى خبر صغير •

أليست القاهرة هى التى فرضت الخمول على مئات من الشعراء ،
لأنهم لم يكونوا فى عبقرية شوقى وحافظ وصبرى ومطران ؟
ويسألونك :

أليست القاهرة هى التى فرضت الخمول على مئات من الكتاب ،
لأنهم لم يكونوا فى عظمة محمد عبده ، وعلى يوسف ، وعبد العزيز جاویش
ومصطفى المنفلوطى ، ومحمد المويلحى ؟

عندنا مئات من الكتاب والشعراء ولكنهم سيموتون بفصة الحسرة على
أن نشئوا فى القاهرة لهذا العهد ، عهد الزحام العنيف الذى لا يسلم من
كربه غير الفحول الصوالية •

لو كان الماضى ينفع لجاز لرجل مثلى أن يعتمد على ما ضيه فى خدمة
الحياة الأدبية والفلسفية • ولكن القاهرة تعيش فى وجه الرجل الذى يعتمد
على ما ضيه • لأن ذاكرتها تضيق عن مراجعة الأسماء • أسماء المجاهدين
الذين عطروا باسمها أرجاء الشرق ، هى حسنة لعوب لا تعرف حتى
العاشق المزود بأطياب الثروة والعافية •

فى مثل هذا العيد من سنة ١٩٣٢ كذبت على أبى مرة • ولم أكذب
عليه غير تلك المرة • كتبتا ليه أقول أبى سأقضى أيام العيد فى الاسكندرية
ولم يكن الا حيلة لأحبس نفسى أيام العيد فى البيت ، لأكتب فصلا من
فصول « الشر الفنى » • وهو الفصل الخاص بتطور السجع فى اللغة
العربية •

انما أنا قاهرى يحبس نفسه فى البيت يوم العيد ، ليحفر بسنان القلم

تقبا يتطلع منه على ضوء العظمة فى القاهرة ، عساه يقنع القاهرة بأنه رجل
مجتهد يستحق أن يعيش .

• القاهرة لا تعرف الرجل الوسط • فافهموا هذه الحقيقة ، يا أبناء
هذا الزمان • والا فهناك سلة المهملات تنتظر الألوف ممن يرأسلون الجرائد
والمجلات •

زرت سفح المقطم منذ أعوام لأستوصى روح سيدنا عمر بن الفارض
قبل أن أشرع فى كتابة الفصل الخاص به فى كتاب • التصوف الإسلامى •
فراغنى أن أعرف أن تلك الناحية هى انفع مكان فى القاهرة من الوجهة
الصحية • وكذلك ألفت أن القاهرة تدخر أجمل بقاعها للأموات •

وطنى ! لقد شقيت بعظمتك • ومن أجل هذا أحبك ، وأستعذب
الصناب والعلقم فى هواك •

فى باريس

تعقب زكى مبارك خطوات أستاذه طه حسين ، الذى أحرز الدكتوراه
من الجامعة المصرية القديمة ، واتجه الى فرنسا • كذلك فعل هو مع
اختلاف الوسائل والأساليب • فقد ذهب طه حسين على حساب الدولة • أما
هو فقد عجز عن تحقيق هدفه عن هذا الطريق فسافر على حسابه • كان
فى السنوات الاولى يقضى الشتاء فى مصر ، والصيف فى فرنسا ، يدرس
ويتأهب ، ثم انقطع عامين فى باريس ، عاش خلالهما على مورد ضعيف من
جريدة البلاغ • واستطاع أن يحقق أمله ويظفر بالدكتوراه من السربون
برسالته • النشر الفنى •

وكان ذلك عملا ضخما يرسم صورة لطبيعة زكى مبارك وصلابته فيما
يؤمن به ، وإيمانه بالوصول الى هدفه مهما وقفت الصعاب فى وجهه •
وقد صور زكى مبارك هذه المرحلة من حياته فى مقدمة كتاب « النشر
الفنى » فقال :

« هذا كتاب النثر الفنى فى القرن الرابع ، وهو كتاب تسملت به نفسى سبع سنين . فان رآه النصفون خليقا بأن يضمّر قلب مؤلفه بشماع من نشوة الاعتزاز ، فهو عصارة مجهود عشرين عاما قضّاها المؤلف فى دراسة الأدب العربى والأدب الفرنسى . وان رآوه أصغر من أن يورث المؤلف شيئا من الزهو ، فليذكروا أنى الفقه فى أعوام سود لاقت فيها من عنت الأيام ما يقصم الظهر ويقصف العمر : فقد كنت أشعر العام شطرين . أقضى شطره الأول فى القاهرة ، حيث أودى عملى ، واجنى رزقى . وأقضى شطره الثانى فى باريس ، كالطير الغريب ، أحدث العلماء واستلهم المؤلفين الى أن ينفد ما ادخرته أو يكاد ، ثم صممت على أن أنقطع الى الدرس فى جامعة باريس حتى أتصر أو أموت . وكانت العاقبة أن أنعم على الله عز شأنه بالنصر المبين » .

وفى كثير من كتابات زكى مبارك وصف لحظات العبور وما تبطن نفسه اذ ذاك من مشاعر بالظلم « أسلمنا القطار الى الباخرة فى غير عشاء ونقلت أمتعتى الى مكاني فى السفينة . ثم جاءت ساعة الغداء ، فشفغلنا عن توديع الاسكندرية ، ان كانت تحتاج منا الى توديع . وهبوت ، فقد تمادت بنا مظالم الحياة . وكدنا لا نعرف ما الوطن وما فراقه : اذ كنا فى بلادنا غرباء . والمظلوم فى وطنه غريب » .

وفى مكان آخر يقول تحت عنوان « غريب فى يوم العيد » .
كان أول يوم دخلت فيه باريس سنة ١٩٢٧ من الأعياد الاسلامية :
كان يوم عيد الأضحى . فلم أشعر بضجر ولم يساورنى اكتئاب . فقد كنت أعرف ان أهلى فى مصر يجتمعون للعيد ، ثم يسألهم الناس عنى ، فيجيبون بأننى على سفر ، فتجرى على الأفواه كلمة « رعا الله » . ثم بادرت يومئذ الى الجامع ، لأشهد المسلمين وهم يتصفحون . فازدودت أنسا الى أنس . وزالت عنى وحشة الاغتراب . واليوم يحتفل الفرنسيون بعيد ميلادهم . ويتسابق الأقرباء والاصدقاء والمحبون الى التحف المختلفة . فيتهادونها ، وعلى وجوههم علام البشر ، وعلى شفاههم أشعة الابتسام . أما أنا فوحيد فى غرفتى . لا أنتظر أحدا . ولا ينتظرنى أحد .

وقد صور زكى مبارك فى مقدمه كتابه « ذكريت باريس » كيف
وصل الى باريس بعد يأس وبعد شوق • وانه أمضى بها خمس سنوات •
ويوم دخل باريس كان يعرف من دقائق اللغة الفرنسية ما لا يعرفه الا
الأفلون • وكان قبل ذلك قد ألف هذه اللغة ألفة شديدة (حتى كان
لا يتكلم بها جماعة فى جد أو هزل الا تعقت ما يقولون تعقب الدارس
الفاحص)

وقل أن اقامته قد طالت فى باريس ، لأسباب علمية ، سدد الله عليها
خصاه • وان صورة باريس تبدو فى نفسه فى صورة كرام الناس الذين
عرفهم هناك • وهما مسيو بلانشو وابنة خاله كريمة الجنرال بوزن •

وفى باريس لم يترك زكى مبارك صلابته واندفعه وعنفه ، حتى مع
أسانده • فانه سرعان ما اختلف معهم فى صميم العمل الذى ذهب من
أجله • وهو رسالة الدكتوراه •

وكان فى مقدمه من اخلف معهم مسيو مرسيه ، رأس المستشرقين
الفرنسيين اذ ذاك ، ذلك اندى كان مفروضاً أن يرأس لجنة امتحانه •
فهو يخالفه فى رأى • وثابت فتقدم بمهاجمته عندما وصل باريس ،
لأن له آراء مدونة فى نشأة النثر الفنى عند العرب ، تختلف مع آرائه •
وقد نصحه مسيو ما سنيون بألا يفعل • وأنهم أن مسيو مرسيه رجل صعب
المراس ، وان منزلته عظيمة ، وأن المستشرقين يحبونه • ولكن ، هل
انتصح زكى مبارك ؟ لا بل انه يقول :

• ولكن كتب الله ألا أتصحح برأى مسيو ما سنيون • فابتدأت
رسالتى التى قدمتها للسربون بفصلين فى نقض آرائه من الأساس •
فغضب الرجل ، وثار • وأصر على حذف الفصلين ، بحجة انهما لون من
الاستطراد لا يوائم الروح الفرنسى فى البحث • وأصررت على ابقاء
الفصلين ، بحجة انهما العماد الذى تهض عليه نظرتى فى نشأة النثر
الفنى •

وكانما عز على الرجل أن أهاجمه فى عقر داره • فمضى يعادبنى

عداء خفيا ، كانت له آثار بشعة لا أتذكرها إلا انتفضت رعبا ، من عجز
الرجل عن ضبط النفس وفدرتهم على تقويض دعائم الانصاف . وقد
قابلت خصومته بلدد أقسى وأعنف . ورايت الحرص على آرائى أفضل
من الحرص على رضاه . فأبقيت الفصلين اللذين أعضباه ، و انتهينا الى عاقبة
أفصح عنها مسيو ما سنيون كل الافصاح اذ قل حين لقيته أخيرا فى
باريس :

ان مسيو مرسيه لا يحبك . ولكنه لا يستطيع ان ينسأك . أما
أنا فأحب هذا الرجل واذكره بالجميل . لأنه من خيرة الأساتذة الذين
تلقيت عنهم فى باريس . ولأنه كد رئيس لجنة الامتحان الذى ظفرت
فيه بدبلوم الدراسات العليا . والله سبحانه هو القادر على ان ينسينى ما لايت
على يديه من ظلم واجحاف ،

وقد أحب زكى مبارك باريس حب يقوى لسجد . واعجب بها أشد
اعجاب . وهو يقول ان دراساته فى باريس لم تحن بينه وبين التامل فيما
يقع فى مدينة النور من صراع بين الهوى والعقل والهدى والضلال .
فأشأ كثيرا من القصائد والرسائل فى اغراض مختلفة .

وقال ان باريس تمثل فى صور تلك الوجوه الصباح التى رآتها
عيناي وألفها قلبى ، ثم أقصتني وأقصتني ضرورات الحياة الى حيث لا أمل
فى تراسل أو تلاق . وقال انه قد ألف الفراق وراحت قلبه الايام بعد
الجموح فأصبح يجمد ويتحجر أمام أهوال الفراق .

وفى أول أسفاره (يونية - ١٩٢٨) الى باريس يصف فراق مصر
فيقول :

« خلعت مصر وخلت ورائى فيها هموما مريرة أثقلت كاهلى ،
وأقصت عيشى : وراحتنى بعد الجموح . وكنت أحسبني أقسى وأصاب
من أن أعترف بأن فى الحياة غيوما تحجب شمس النعيم من حين الى حين .
ثم قامت بنا الباخرة فلم تطرف عيناي لفراق الاسكندرية . ولم يخفسق
القلب لفراق الوطن العزيز . ومرت بالنفس طوائف من الذكريات

الحزينة تمثلت فيها كيف شقيت بأهلى وأصدهوى • وكيف ضن وادى
الليل بنفحة من نسيمت البر على من يشقى ليسعد • ومن يغنى ليقدم
له أسباب الخلود •

ثم ماذا؟! هذا جرس يصلصل ! وهذه افواج من المسافرين تمضى
الى الغداء ، وأنا كذلك أمشى الى حيث يمضون بين الفتور والنشاط •

فى السربون

اوم زنى مبارك فى باريس سنواته الخمس ، حتى ظفر باجزة
الدكتوراه ، فى ٢٥ من ابريل سنة ١٩٣١ • ثم عاد الى مصر حيث بدأ
حياته الجديدة •

كانت حياته فى باريس هى حياة طالب العلم الفقير ، الذى لا يملك
أحيانا الا قوت يومه • كانت الجنيهات الخمسة عشر التى يرسلها اليه
عبد القادر حمزة هى كل ما يملك من مورد • ولكن مراسله البلاغ كدت
تقتضيه ان يتعمق فى فهم الحياة فى باريس •

وفد سجل هذه المرحلة فقال : « كنت حين انتسبت الى جامعة
باريس أفضى اربعة اشهر فى كل سنة فى مدينة النور ، ثم اعود الى
وطنى لأجمع بين الصحافة والتدريس ما استطيع به الرجوع الى باريس
من جديد • ودام ذلك بضع سنين • ثم عرفت انى لن اصل الى غرضى
الا اذا قررت بطريقة حسمة الا افارق باريس الا فى أحد حلين : النصر
أو الموت • وكانت الامة الدائمة فى باريس تبدو من المستحيلات • لأن
أبى رحمه الله لم يكن يقدر على امدادى بكل ما أحتاج اليه • وكان
ما ورتته عن أمى طيب الله نراها لا يزيد على بضعة قرايط • وكانت
زوجتى أقفر منى • ولم يكن لى فى الحكومة المصرية عم ولا خال •

فى تلك الظلمات استطعت أن اتفق مع الاستاذ عبد القادر حمزه على
مراسلة البلاغ فى باريس ، بمرتب قدره خمسة عشر جنيها • فتوكلت
على الله • وقررت الاعتكاف بالقبلة القديمة فى السربون •

وكان لا بد من الاتصال الدائم باستاذة السربون ومدرسه اللغات الشرقية لأظفر بما تساميت اليه من الانقب العلمية .

وكان اتصاله غنيا . فن « زكى مبارك » الفلاح لم يفقد (فى باريس) ، طبيعته المندفعة ، زعدراته الجريئة ، ولم تعلمه باريس المجملة ولا المداراة . فل زكى مبارك فى قلب السربون : « جئت لأصحح اغلاط المستشرقين » . ومن هم هؤلاء المستشرقون ؟ هم اساتذته والذين يمتحنونه ، ويبدعهم أمره كله . وقد حدثنا كيف وقف فى وجههم فى ديرهم . وقد صدق فى قوله هذا . وجرى تاريخه بعد عودته من باريس نضيا قويا مؤثما بئلغة العربية ، مدافعا عنها . ولم تفلح باريس أن تحول أمانته للأمة العربية الى فرنسا واللاتينيات ، كما فعلت بعشرات غيره

ولكن هل اكتفى زكى مبارك فى باريس ، بحياة الطالب فى باريس؟ كان لابد له من معرفة الحياة فى باريس ، لينجح فى مراسلة البلاغ . ذلك الذى كن يدنع له مرتبه الشهري الذى يعيش به هناك . وقد صور هذا فقال :

« هدتنى الفطرة الى قضاء أوقات الفراغ فى الملاهى والملاعب والمراقص والقهوات ، فكنت أقضى فى هذه النزعة الطريفة ساعات من النهار وساعات من الليل . كنت شابا ، ورحمة الله على شبابى ، الشباب الذى بددته فى طلب الحب والمجد . كنت أذرع باريس بقدمي لأخلق لماؤلاتى جوا من الحقيقة لا من الخيال . وأعانتى على ما أسموا اليه لسان مرن فى اللغة الفرنسية مرونة محببة ، تقسدر على جذب من أحداث من أسراب الظباء .

والفرنسيين يغفرون للرجل جميع الذنوب اذا أمدته العناية الالهية بلسان فصيح . وكان لى فى باريس ثلاث قهوات : قهوة صغيرة جدا فى يوليش بجوار قهوة الرجل التى كان يجلس فيها الدكتور طه حسين ، يوم كان طالبا فى جامعة باريس . وكانت هذه القهوة الصغيرة مخصصة

للمواعيد الغرامية والتأملات الفلسفية • فكيف صارت اليوم ؟ ليتنى أعرف
أما القهوةتان الأخريان فهما الروتوند والدرم فى حى مونيررنس •

وفى قهوة الدوم وقعت المأساة أو الملهة التى أدونها فى هذا الحديث

دخلت ذات صباح فوجدت سيدة تطعم سفر الوجود بعينين زرقاوين
يندر أن يكون لهما شبيه أو مثل • وجلست بانقرب من تلك السيدة
عسانى أنهب منها نظرة أو نظرتين ، أستعين بهما على اتمام بعض الفصول
فى كذب (سحر العيون) وما هى الا دقائق حتى تلاحظنا برفق وعطف •

تم أشارت بأن اقرب • فاقربت ••••• رباه متى تعود أيامى ؟!

وبعد أن دار كأس الحديث نحو عشرين دقيقة ، عرفت أنها من
البغايا ، أعوذ بالله • أمثل هذا الحسن يكون من نصيب الفجوة (الأوباش) ،

أنكون هذه الحساء الفاتنة شبيهة الشمس ، نعم بضونها من يشاء
ولو كان من الخدفيش ؟ أتكون هذه التحفة الفنية الشبيهة بكرائم الأهار
يشرب منها البهائم والدواب ؟ ألك ي رباه حكمة فى اذلال هذه الروائع
الفنية التى زينت بها الوجود ؟

وهجمت على تلك السيدة بعنف • فقالت :

• أنا امرأة شقية خدعها شاب مثلك باسم الحب • وكان ثمرة الحب
طفلا • هو اليوم بمدرسة (••) وتد هجرنى الحبيب والد الطفل • وتركنى
وحدى أربيه وأرعه فأتسول باسم الحب ، لأنفق على ذلك الطفل
المسكين ، الى أن يظهر أبوه • •

وما كدت أسمع هذا القول حتى دارت الأرض تحت قدمى •

ومن أين أنفق على هذه السيدة وعلى طفلها • وليس لى من جريدة
البلاغ ، ومن الدروس الخاصة (الخصوصية) ، الا مبلغ ضئيل من المال ،
لا يزيد على ثلاثة آلاف من الفرنكات ، والحياة قاسية أشد القسوة على
الغرباء فى باريس •

ثم نظرت فرأيت هذه المرأة تعرض مشروعا نبيلاً قد يرفع روحى

بعد اسفاف • وقالت فى استحياء ان لغرفتى مفتاحين • لك مفتاح ، ولى مفتاح • فخذنى لنفسك • وراقبنى كيف تشاء • فان استطعت ان تشهد على ما يريب بعد اليوم ، فاقتلنى • والمهم أيها السيد أن ينجو طفلى من الجهل والجوع • •

• • وقد أنسى كل شىء • ولكن لن أنسى طلعة مورييس •••••

وسألنى الطفل : أين كنت ؟ فأخبرته انى توجهت الى الشرق لزيارة القاهرة وبغداد وبيروت ، واخترعت له أقاصيص تعجبه وتلهبه •

وفى تلك الليلة شعرت أن روحى ارتفع الى أجواز السماء •

وفرحت مرجريت بما صارت اليه من راحة البال وصفاء النفس ، بعد الهيام الأليم بأحياء باريس • ومضت تقترح ما تشاء من المغامرات ، فعلمتنى الرقص ، وطوفت بى على المكنونات من صناديق الليل •

ويفضل مرجريت عرفت من خبايا باريس مالا يعرف الشياطين •

ولم تكف بذلك • بل نقلتنى الى دران والهافر • وأطلعتنى على المستور من شواطئ المانش ، وأقامت معى فى الضواحي النائية أسابيع •

والله وحده يعلم كيف عاشرت تلك الحساء • فلو أنى قلت انى كنت فى حبها من الأظهار ، لما صدقنى مخلوق • وأجمل ما نلت منها لم يزد على قبلة شهية ، طبعنها على جبينى ، حين أخبرتها أنى متأهل ، ولى أبناء • وقد قهرتنى على قبول هدية من العطر والكريم لأرسلها الى ابنتى أو زوجتى • وقد قبلت الهدية ثم ألقيتها خفية فى نهر السين •

وكانت مرجريت متعبة الى أبعد الحدود • قالت لى ذات يوم :
• أنت يا دكتور معرض للسمنة لكثرة ما تشرب من البيرة • •

كانت مرجريت ضجرة من حياة الفنون • وكنت ضجرت من حياة الفنون • وكنا نشتهى أن نعرف معنى التصوف فى الحب • وكيف لا تصوف فى الحب ، وقلوبنا معمورة بحب الطفل العزيز مورييس ؟

وبعد أن دام هذا السيم البيل خمسة عشر شهرا ، وصلت الى ما أريد من امتحانات مدرسة اللغات الشرقية ، وامتحانات السربون . وأصررت على الرجوع الى أهلى وأبنائى . ولم يكن بد من توديع مرجريت وموريس .

وأى توديع . كان من الواجب أن أرد المصباح الى مرجريت . فرفضت والدعم فى عينيها الزرقاوين . وقالت : « احفظ المفتاح . لقد صل على حين غفلة الى باريس .. »

فى بغداد

عاد زكى مبارك من باريس سنة ١٩٣١ وسافر الى بغداد سنة ١٩٣٨ للتدريس فى دار المعلمين العليا ببغداد . فى خلال هذه الفترة عمل زكى مبارك رئيسا للقسم العربى فى الجامعة الامريكية ، وموظفا فى وزارة المعارف .

وكتب خلال هذه الفترة فى جريدة البلاغ . ويمكن أن يقال ان هذه هى أخصب فترة فى حياته الادبية . كان يكتب كل خميس مقالا تحت عنوان « الحديث ذو شجون » وفى خلال ذلك كان يعد العدة لرسالته فى الدكتوراه من الجامعة المصرية عن رد التصوف الاسلامى . يوم ١٤ من ابريل سنة ١٩٣٧ . حيث أحرزها فى الفلسفة بدرجة الشرف .

وهذه هى الدكتوراه الثالثة التى أطلق بعدها على نفسه لقب « الدكتور زكى مبارك » وفى خلال هذه المرحلة أثار زكى مبارك حشود ضخمة متعددة بع أدباء مصر حتى لمسكن القول انه لم يترك أدبا مازا دون أن يطاوله . وفى مقدمة من طاولهم الدكتور طه حسين .

وقد سجل زكى مبارك أنه بعد أن رجع من باريس ، لم ينحرف ، ولم يكن حريصا على أن يقدم ألوانا من الادب الفرنسى وأعلامه ، كما حدث بالنسبة للأدباء الذين سافروا الى فرنسا ، وعادوا . وهو يصور هذه الفترة فيقول :

« حين رجعت من باريس سنة ١٩٣١ ، اخذت أنشئ في جريدة
البلاغ مقالات عن ذخائر الادب العربي . ولكن الدكتور ابراهيم ناجي
ضاق صدره بذلك المقالات . فقد كان ينتظر أن أكتب عن الادب الفرنسي
ولهذا كتب مقالات بتوقيع مستعار في احدى الجرائد الأسبوعية ، تقصم
على الغمز والتجريح . واستمر غمزه وتجريحه ستين » .

وكان زكي مبارك في خلال هذه الفترة يذكر النشر الفني على أنه
قمة ضخمة من قمم أعماله الادبية : ما تذكرت كتاب النشر الفني الا
شعرت بنيران تتأجج في عروفي » .

وقد أعلن في اكثر من مناسبة أنه أول حائز لدرجة الدكتوراه في
الفلسفة من الجامعة المصرية القديمة ، وأول حائز لدرجة الدكتوراه في
الفلسفة من الجامعة المصرية الجديدة .

وتعد رحلة زكي مبارك الى العراق رأس مرحلة جديدة في حياته .
فقد أتاح له الفرصة لأن يزداد ايمانا بالعروبة . ويوسع دائرة ثقافته
ويعمقها ، ويحرص على أن يكتب عن العراق والشاعر الشريف الرضي .
وقد ظل زكي مبارك يربط بين رحلته الى باريس ورحلته الى
العراق ، ويؤكد أنه باقته في العراق قد أعز العروبة .

وما أظن أن كتابا من الكتاب العرب أشاد بجزء من الوطن العربي
وبلغ في ذلك أروع صور الوفاء ، كما فعل زكي مبارك ، حين أشاد بالعراق
وأحيا فيه جوانب الحياة هناك في حب واعزاز . بل ان « زكي مبارك »
ذهب في حبه للعراق الى أبعد الحدود . فلبس السدادة العراقية . وأعلن
أنه سفير للعراق في مصر . وقد كان عام العراق (١٩٣٨) من أخصب
أعوام حياته . فقد شغل مطبعتين في بغداد ، كان عمالهما يطرقون بابه
مع الشروق ، ليقدموا التجارب ويطلبوا الأصول .

يقول : « كوتني بغداد ثم شفتني بغداد ، كوتني لأنني عشت فيها
محبوسا ، لا أدري أين أذهب . وشفتني بغداد لأنني أنست بسواد الليل
حين فتنني الأسس بسواد العيون ، فشرفت نفسي بمراسلة الصحف في

مصر والعراق ورسول • وخرجت من ذلك سحصول سيملا حمسه
مجلدات • • وفي عجة اخرى يقول : « نفذ احصيت ما لبثت في هذه
امره نوجدنه يزيد على حمسه الاف صحيفة • ونظرت بيد سيب من
الدرؤس وسحصرات في بغداد ، فوجدنه يزيد عما اذاعه الاستد فلان
في عشر سنين » •

ويقول : انه لم يعرف طعم الحية في بغداد • فقد فضي جميع
لحفه والقلم في يده • واشترك في أكثر ادية بغداد ، ونظم محاضرات
ولم ينرك زكي مبارك في العراق طبيعنه ، ندخل في معارك ومساجلات
بل انه أثر الجهات المسؤله ضده ، على أثر حديثه في الاذاعة • وكانت
اذاعة أسبوعية كن يشهدا من يشاء من أفضل البغدانيين ، وجعل مساء
كل خميس سهرة أدبية في نادي المعارف •

وكان يرى أن مهمته في بغداد لم تقف عند حدود التدريس •
وانما هي أعظم من ذلك : « أدركت أن لي مهمة تفوق العمل الذي انتدبت له
– وهو التدريس – أدركت أنه يجب أن أجاهد في السر والعلانية •
ونظرت فرأيت « بغداد » توحى الى قلبي بأشياء لم يلتفت اليها من قبل ،
ورأيتني في حال أو أحوال تضيفني الى أرباب القلوب من أهل الاشراق •
وقد كانت من أبلغ أعمال زكي مبارك في بغداد دعوته الى الجامعة
العراقية التي طالما ردها • وكان مما قاله :

« هل تراني أنلح في دعوة الشعب العراقي الى الصوم يوما واحدا
لتكون أثمان طعامه في يوم واحد كافية لإنشاء جامعة تنافس الجامعة
المصرية ؟ »

ويصور كرم العراق في أكثر من صورة • فيقول :

« ما ذقت طعم الحياة الا في العراق ••

ولا رأيت صدق القلوب الا في العراق ••

ولا عرفت جمال النيل الا بعد أن رأيت لون مائه في دجلة والفرات

أحب أن نسمعوا سجع الحمام في انوصل • وأن نروا غابات النخيل
في البصرة • وأن تعانوا السحر في بابل • وأن تكحل أعينكم ببغبار
الصحراء في النجف • وأن تستصبحوا بظلام الليل في بغداد • ،

وفي موضع آخر يقول :

• هل عرفت معنى الصداقة السليمة قبل أن أعرف العراق ؟
لقد أحببت أولئك الناس وأحبوني • فلي فيهم أصدقاء ، هم الغاية
في الوفاء • وسأبقى ما بقي من حياتي وأنا اليهم مشتاق • مشتاق • ،
ويصور عبوره دجلة من الكرخ الى بغداد :

• فعبرت دجلة من الكرخ الى بغداد • وأنا في دھول • فحدثني
النفس بحلاوة الغرق في النهر الذي وعى ما وعى • وضع ما وضع من
أسرار القلوب • ثم تذكرت ديونى في القاهرة ، ديونى لجريدة الصباح
التي تعطر بأنفاسها نسائم مصر الجديدة والزمالك • • ،

وقد تساءل هو عن سر شغفه بالعراق ، فقال :

• أنا في الواقع تلميذ بغداد ، قبل أن أكون تلميذ القاهرة أوباريس ،
وتساءل كيف سيطر العراق عليه كل تلك السيطرة فقال :

• السبب واضح : وهو أنني نقلت الصديق عن أهل العراق ، والحق
ان سر نجاح زكي مبارك في حياته الأدبية لأنه أحب كل بلد عاش فيه •

ملاحـ شخصيـة

لا أعتقد أن شخصيه أدبيه أوضح في ملامحها وأصرح من شخصيه
زكي مبارك فإنه من اليسر الوصول الى شمائل هذه الشخصيه من آثاره
وكتاباتة • فهو أصرح كدنا المعاصرين في الحديث عن نفسه • وأجروهم
في الكشف عن دخائله • وأقدرهم على مجافاة التقاليد •

وهو صاحب مذهب الصراحة ومجافاة النفاق في الكتابه ، وانواع
بمهاجمة المنافقين والذين يظهرون غير ما يبطنون • فهو يعلن رأيه في
كل انسان ، وفي كل شيء في صراحة تامة ، دون أن يبالي عواقب ذلك
في حياته العامة • ولقد جر عليه مذهبه هذا عداوات كثيرة • وكان
سببا في تخلفه في الحياة وعجزه عن الوصول الى مكانه الحق •

ولعل مرجع هذا عنده أنه قد احتفظ بطبيعة الفلاح ، في عنفه
واندفاعه وصراحته وصوفيته • فاذا أحب أو كره ، بلغ غاية الغايات ،
ووصل نهاية الشوط • لا وسط عنده ولا اعتدال • تتحكم فيه عاطفته
وأعصابه • وتذهب به مذهب الرضا أو الغضب •

وهو الى هذا قادر على مواجهة أخطائه ، والاعتراف بها ، ولعل
أبرز مواقفه في ذلك عندما هاجم الغزالي ، في مستهل حياته الفكرية ،
ثم لم يلبث أن رأى نفسه قد أخطأ في ذلك • فكتب في صراحة ينكر
رأيه الأول ويعترف بخطئه •

يقول انه برأ نفسه من المجاملة والنفاق المنصوع ، وانه ترك لعقله
الحرية ، رغبة في تخليص الادب من برائن الرياء والصنعة وقود
الهوى • ولعل هذا هو الذي صير حياته أتوا متقدا من العداء الصارم
الملاحق الذي سد أمامه أبواب الرزق ، وفصله من عمله مرة بعد مرة

وهو من الواقعيين الذين يواجهون الحياة مواجهة عملية ، حين
يرى (ان الرحمة شيء جميل ، ولكن دنيانا لم يقم فيها بناء واحد
على أساس الرحمة • والطبيعة نفسها لم يتسق فيها وضع واحد على أساس
الاشفاق • وانما قام كل شيء في الوجود على أساس القهر والغلبة
وسيطرة القوى على الضعيف •)

ويمضي في فهم الحياة على هذا النحو فيرى أن الشيطان مخلوق
شريف ، لأنه لا ينافق • فهو يعلن في كل وقت أنه من الضالين
المضلين • ولو كشف كل انسان عن سريره كما كشف الشيطان لأصبحنا
جمعا من الملائكة لا من الشياطين •

وقد يتهم بسرافه فى الاتجاه العاطفى ، ونغليه على الاتجاه العقلى
فيدافع عن نفسه « أنا رجل يؤمن بأن القلب أدق ميزانا من العقل •
وكيف لا يكون كذلك وهو يأخذه دايته من الفطرة • على حين لا يهتدى
العقل الا بالبراهين ، وهى فى الاغلب تقوم على مقومات لا تخلو من
تضليل • •

وهو لا يستطيع أن يعيش فى ظل أحكام العقل • ولعل هذا
هو الذى يجعل خصومه يتهمون به أحيانا بالجنون • يقول :

« أنا متهم بالعقل ومتهم بالجنون • فمن وصفنى بالعقل فهو
متلطف • ومن وصفنى بالجنون فهو مسرف • لأنى فى حقيقة أمرى
إنسان يعيش بثورة العواطف ، فوق ما يعيش بقوة العقل • وهى حالة
تجعل أمرى وسطا بين العقل والجنون • والتوفيق الذى ظفرت به فى
حياتى العلمية مدين لحياتى الوجدانية • نفوة الوجدان هى التى
حملتني على أن أستقل فى الدراسات الأدبية والفلسفية • وقد يأتى
يوم أعترف فيه بالأسباب الوجدانية التى جعلت عقلى يتفوق الى أبعد
حدود التفوق ، فى مثل كتاب « النثر الفنى » أو كتاب « التصوف
الاسلامى » • •

وهو يؤمن بالصدق والصراحة بالرغم مما جرا عليه من متاعب :
« النفاق نعمة عظيمة عرف قيمتها اللثام ، فأوغلوا فيها ، وافتتنوا فى جميع
أسبابها •

والصراحة محنة اقتنع أصحابها بأنها أساس الرجولة والنبل ،
فأسرفوا فى العناد ، حتى لا أمل فى ردهم الى الحد المعقول • •

وهكذا يكشف زكى مبارك عن حقيقة كان لها أثرها الواضح فى
حظ حياته كله • لقد اقتنع بأن الصراحة محنة • ولكنه ظل عيدا فى
الايمان بها •

وفى هذا يقول مخاطبا نفسه : « لقد وصل ناس لأنهم كذبوا ،
وتخلفت أنت لأنك صدقت • ونعم ناس لأنهم خانوا ، وشقيت أنت لأنك

وفيت • وتقدم نس لانهم هزلوا ، وتأخرت أنت لانك جددت • وانتفع
ناس لانهم غدروا ، وخسرت انت لانك وفيت • •

وهو يحول ان يمع الناس بأن (الصدف لا يفضب عقلاء الرجال ،
وانما يفضبون من التحمد البغيض الذي تمليه الضغائن والأهواء) ولكن
أحدا لم يقتنع •

وهو لا يحب الهدوء وينفر منه ، ويبحث عن الضجيج : يقول :
« الجنة لا تستهويني لأن الحياة فيها تخلو من الشعب وأنا اكره الحياة
الخلية من المتاعب • مضيت مرة للبحث عن مكان هدىء فى احدى
ضواحي باريس • فوجدت شيئاً كتب على بابه هاتى الكلمتان : (هـدوء
مطلق) • فانزعجت لأنى أعرف أن الهدوء المطلق لا يكون الا فى
مساكن الأموات •

وفى بغداد اخبرت دارا يجاورها مصنع حديد ، لافر من الهدوء
المطلق • وبنيت دارى بمصر الجديدة فى مكان يجور ضجيج الحياة ،
لأسمع اشجار المعانى فى صدر الوجود • •

وهو دائما يسجل أنه وصل الى ما وصل اليه بجهد بالغ ونضال
جبار : « هل عانى أحد فى دنيا الادب مثل الذى عانيت : لقد انتزعت
حظى من أنياب الحياة السود • فهو حظ مدون بسم الزعاف • ولو
استطاع قوم أن يتجاهلوا وجودى لفعلوا • ولكن كيف يستطيعون ،
وقد ضيقت عليهم الخناق ، وقهرتهم على الاعتراف بأن العاقبة للصابرين
على مكاره الجهاد • وهو يندم على أنه قضى حياته ليعمل فى الأدب : « لو
كنت اتجرت بالتراب لصرت من أكابر الاغنياء • ولكنى شغلت نفسى بما
لا يفيد ، فذرعت فضاء الله فى فرنسا ، الى أن سبحت فى بحر المانش •
وذرت فضاء الله فى العراق ، الى أن سبحت فى شط العرب • وألفت
اثنين واربعين كتابا منها اثنان باللغة الفرنسية • واشتغلت بالتدريس
عشرين سنة • وكانت صراحتى تقطع رزقى • فأخرجنى الاستاذ
محمد حسن العشماوى من عملى • وأخرجنى الأستاذ عبد الرزاق أحمد
السنهورى من وزارة المعارف • •

ويقول : « لم أنتفع بشيء • فمُنذ عم ١٩١٣ الى سنة ١٩٥٠ وأنا أحرر فى الجرائد والمجلات ، وأملأ الدنيا ضجيجا ، وأشئ مدارس أدبية وفلسفية ، وأنظم القصائد الجيدة • ثم أرائى متخلفا فى حياتى الرسمية • وأنا معتز بهذا التخلف • فما لأحد فى حياتى ما يمن به على اذا اشتجر بينى وبينه الجدل • »

وهو يعيش فى حيرة دائمة متصلة ، كأنما هو غريب •• يخشى دائما ان يواجه نفسه • « ما رجعت لى نفسى مرة الا تهيت اقتحام ما فى شعابها من وعور وصخور وأشواك • وقد وقعت مرة على ساحل النفس فى ظلمات الليل • فرأيتنى عندها من الغربة • وكيف لا أكون كذلك ، وأنا منها على بعد سحيق ، سحيق ، يعد بثلاثين من الاميل ؟ •

وفى ليلة عيد الميلاد : يمضى يجوب الظلمات • وقد راعه أن يجد فى قلبه فرعا مخيفا يذكر بالفراغ • وفى كل مناسبة أو فى كل عيد تراه يقاسى الحيرة نفسها • ويضيق بديالیه وأيامه ، كأنما يبحث عن شيء مجهول •

وهو الى ذلك قد يمضى العام دون أن يعرف طعم السهر فى مغائى القاهرة • وترى أن الأزمة الباقية هى أزمة القلب ، فقد بقى قلبه كإغابة فى ضمير الظلماء • « فن قلت انى أشكو خيبة فى الحب أو اخفائا فى المجد أو غدرا فى الأصدقاء • فاعلم أن هذه كلها مجرجات هينة ، تزعج النفس لحظة • ثم تزول •• وأكاد أحسب ان الناس يتخذون من الحب والصداقة والمجد علالات لقلوبهم وأرواحهم •

وأنا لم أنجح فى شيء من ذلك ، لأن استقلال ارادتى حال بينى وبين الاندماج التام فى هيئة من الهيئات • وأنا بين المؤمنين ، ملحد • وبين الملحدين ، مؤمن • وأنا بر عند الفجار • فاجر عند الابرار • فأن فى كل بيئة أجنبى • وفى كل أرض غريب • •

ولا يلبث أن يرى نفسه متحررا من كل تبعية فيقول « كان يجب أن يكون فى مصر كذب مفكر متحرر من العبودية لمن فى أيديهم الرفع والخفض ، وأنا ذلك الكاتب • »

وقد صدق ...

وعندما عاد من العراق ازداد احساسه بالغرلة ، فرسم هذه الصورة
التي تدل على الامعان في الغرابة ...

• هذه داري ، امداد التي امنها على اسراف الصـحراء بمصر
الجديدة لافتح امام قلبي آفاق المجهول في عواصم اسباني • وهذا وطني ،
الوطن الذي عنيت من اجله ما عنيت ، ولم اخنه في سر ولا جهـر ،
ولم يرمي غير اصدق وانوفاء • هذه داري ، و... وصي • ولكن أين
أحبائي وأحبابي ؟ من كان يظن أنني أقضي الأيام والأسابيع فلا أجد من
يسأل عني بعد غياب الشهور الطوال • من كان يظن أنني أحبس نفسي
في داري ليالي وأياما ، فلا يسهر لعزلتي جفن ، ولا يحزن قلب ، ولا يرتاع
وجدان ؟ من كان يظن أنني لم أعبر شرع فؤاد غير مرة واحدة منذ
رجعت من بغداد ؟

أنا أطفئ المصباح بعد نصف الليل ، وأفتح النوافذ ، لأرى كيف
يهيم نور القمر فوق رمال الصحراء • آه • ثم آه من حيرة القلب في غفوات
الليل •

أيها الصحراء : ان حالك مثل حالي • موات في موات • وقد
تمرح فوق تراك الميت هوام وحشرات ، وفوق ثرى قلبي الميت تمرح
هوام وحشرات ، هي السخرية من الناس ، واليأس من صلاح القلوب
وجمال الوجود •

وقد ترق حواشيك بالندى أو الغيث ، فتنبت فوق تراك الأعشاب
أما قلبي فقد أمحل الى الابد • ولن ينبت فيه شيء •

أيها الليل ، خذ السواد من قلبي ، ان أعوزك السواد • خذ الظلام
من حظي ان أعوزك الظلام • خذ من قلبي ومن حظي ذخيرتك للأحباب
المقبلات •

أيها الليل ، لا تجزع من العزلة ، فأنا هنالك أسامرك وأناجيك
لا تفزع من الوحدة ، ففي قلبي ظلمات تسير ما تحمل من ظلمات •

انت باقى على الزمان • وأنا صائر الى الفناء • • •

تزوج زكى مبارك مبكرا ، ومنذ عمل فى الجمعه سحرير المسيو
كازانوف بدأ يتطلع الى المجد • ألم باللغة الفرنسية منذ كان طالباً بالأزهر
وخطب بها على منبره • وكان يدرس فى الصباح • وفى المساء ، كان
يلقى دروساً مساءً فى تدريس اللغة الفرنسية بمدرسة الأليانس فرانسييز
• • • وكان له أولاد وأسرة • • • ولم تمنعه متاعبه هذه من أن يجاهد
ويعبر البحر • • • وقد فرق بين الزوجة الفلاحة والزوجة السفارة • •
فاعترف لزوجته بالفضل • • • يسرني أن أسجل اعترافى بالجميل
لزوجتى الفلاحة التى سارت سيرة أمها وأختها • فحفظت قلبى سليم
من الهموم التى تزلزل عزائم الرجال • • •

وذكر أثر الزوجات الجميلات فى حياة أزواجهم : • علمتنى
التجارب ان الرجل الذين لهم زوجات سوافر تقضى لهم مصالح لا تقضى
لأمثالنا نحن المحافظين المفضلين الذين يجهلون خلق الزمان • • •

وقد صور أحزانه لفقدائه : • كنت ألقى دروساً مساءً فى تدريس
اللغة الفرنسية ، بمدرسة الأليانس فرانسييز • وكنت أخرج مكدودا بعد
ساعتين من الدرس • دخلت البيت فوجدته فى سكون على غير المألوف •
فعرفت أن (أحمد) مات • وأن زوجتى لا تريد أن ترانى ، لثلا أقرأ
فى سطور وجهها أن (أحمد) مات • أويت الى فراشى ، وهو فى الدور
الثانى من البيت • وقضيت الليل كله فى أحلام مزعجات • ان للتكل
طعما مرا للغاية • كفته بيدي • وحملته على كتفى الى مشواه الاخير •

وكان زكى مبارك فى شبابه نحىلا • وقد صور ذلك فى شعر
كتبه تحت صورته فى مقدمة كتابه • حب ابن أبى ربيعة • سنة ١٩١٩ :

لم يبد رسمى ضئيلا	كالبدرد عند المحساق
الا لأن اللبس الى	ومالها من خلاق
ساعت فصارت بلادى	غضنفرا فى وتاق

وقال انه فى هذه السن كان لا يزيد وزنه على ٣٠ كيلو جرام • ثم

زاد وزنه حتى أصبح ٨٥ كيلو جرام • وهو بهذا لم يكن يأكل
الخبر منذ عام ١٩٣٣ بوصيه أحد أطباء باريس •

وفد روى عن نفسه أنه كان يصوم رمضان حتى في باريس :

« كانت صحتي قد اعتلت ، فنهاني الدكتور محمد عبد الحى عن
الصيام في شهر رمضان • ولكنى رأيت أن أصوم في الأعوام التى قضيتها
في مدينتي الحلال في جميع الأشياء • لقد شعرت بروحانية غريبة حين
سمعت عن الطعم واشتراب في مدينة باريس ، وهو صيام غريب وعجيب
ثم اضرب حين قرأت قول الشاعر الصوفى :

إذا المرء سام عن الدنيا فكل تنهوا سهر الصيام

وفد عرف بالوفاء ، حتى كان أهل بيته يربحون عودته من غيابه
في كل مرة •

وكانت لزكى مبارك دقة جرس معروفيه • اذا ما وصل
صداه الى أهل منزله عرفوا أنه قد وصل •• وعند ما عاد من العراق
فاجأهم بها • يقول « كانت دقة واحدة من الجرس كافية لأن يطرب جميع
أهل البيت :

قالت زوجتي وهى تبكي من الفرح : ما كنت أحسب أنى سأعيش
حتى أراك • فقلت : أنتم تغفلون نشاطي بهذا الحنان المزعج •• »

ومن وفائه ما سجله من أنه كان لو عاش أبوه حتى يؤدي له بعض
ديونه : « كان في أمة أن أودى الى أبى في شيخوخته بعض الديون
التي طوق بها عنقي في شبابي • ولكنه مات قبل أن أودى بعض الديون
الثقال •• لم يبق ما أتعزى به في عقود أبى الا أنى لم أوجب عليه أن يسهر
ليلة واحدة من أجلى • فلم يمت الا بعد أن عرف أنى مزود ومؤهل
بالألقاب العلمية • »

وهو بالرغم مما اتهم به من حقد أو كمران ، يتجه الى الله بقلب
مؤمن ايمانا عميقا •• فينادى :

« يا ملاذ كل خائف • ومأمن كل ملهوف » لقد مرت أجيال وأنت
الماوى الامين لكل من تضيق عنه بلاده • • »

ويرسم لدحو جل وعلا هذه الصورة الرائعة :

« النور الفدير على تمزيق الظلمات ، هو نور الله ، النور الغلاب
القهار الذى لا يصده حجاب ، ولو كان فى كثافة أنفاس المحجوبين عن
كرم واجب الوجود • وما تمر بنا لحظه من لحظات الكد والغيظ الا كانت
شاهدا على أن ايماننا بالله ايمان مدخول •

ولا تمر بنا لمحنة تعتمد فيها على هذا المخلوف أو ذاك الا كانت دليلا
على أن ثقتنا بالله مزعزة الأركان •

فما بال قوم نظير نفوسهم شعاع حين يهدرون بغضب بعض الخلائق
ولا يجوز لمن يخاف الناس أن يرجو الله

جرب الثقة بالله ان كنت لم تجربها من قبل ، فسترى أن الأنس
بالله يرفع عنك اعباء الثقة بالناس ، وما اعتمد أحد على خلق الله الا باء
بالخذلان • »

وهو يصور موقفه من الرضا بعهده الله فى أجمل صورده ، حين
يقول :

« فى يوم صائف جاءوا بما لا أريد ، فقدموا الى طعاما لا أشتهيه فى
أيام الصيف ، وكانت النتيجة ان أهم بالاعتراض • وفى أقصر من لمح
البصر تيقظ قلبى وأدركت أن الاعتراض على رزق الله بداية الانحلال •
وأنى لو جحدت الرزق فى آية صورة مذهب الى غير معاد •

ان نعم الله تواجها من كل جانب • ويكذب من يزعم ان الله يتخلى
عمن يتوكلون عليه فى النعماء والبأساء • »

وهو يؤمن بأن الله هو صاحب الضر والنفع : « من تلك النعم :
نعمه الرضاء المطلق بما كتبه وقضاه • فمما أذكر أبدا انى جرعت أو
ضجرت من مكروده بلم بى • وهناك نعمة أعظم ، نفضل بها على الله •

وهي الايمان بأنه بباركت أسمائه ، هو وحده القادر على الضر والنفع ،
فما خشيت غيره ، ولا رجوت سواه ..

وهو في كبير من الأحيان يرى نفسه دون ما يرجو من الايمان
بالله :

« هل صفت نفسي كل الصفاء • ، رب تسكو بعدي عن ربي •
وكنت قبل ذلك في فراديس من الايمان الجميل • كنت كلما رأيت ظلم
الناس ، أقول : قد بقي لي ذلك الكنز الذي لا يمد ولا يفنى • وذلك
المعين الذي لا يضرب ولا يفيض • يبقى لي الله • لمس يدي ونرى عيني
أنار رحمته وعد له ، وتكاد تصافحه يمانى • ونوشت لمضيت في ترديد
هذه الجملة • ولكن أين تقع التعابير من حقائق ما في القلوب ؟ أناشئني
أن نعم الله علي ، بايمان أقوى وأمتع وأشهى ..

ليس في الوحد كلة ما يغني عنك بسر الاسرار ، وياروح
الأرواح »

هل أحب زكي مبارك ؟ هل حسن رأيه في المرأة أم ساء ؟

ما تجاربه في الحب .. ؟ ان مجموع ما كتبه في هذا الباب لا يعطي
صورة واضحة تكشف عن حقيقة موقفه من الحب والمرأة •

يقول « كيف يصف الحب من لا يحب • أشهد صادقاً انني لم
أعرف • أنا لا أحب ، لا أحب أحدا • واني أحب نفسي • أنا لم أحب •
ولم أعرف الحب • لأن قلبي أعظم من أن يحب • ولم يخلق الى اليوم
وجه يكافئ ما في قلبي من صراحة الصدق وصفاء الحنان • ولو أنني
أنفقت في سبيل المجد بعض ما أنفقت في سبيل الحب لكنت اليوم رئيس
الوزراء •

يسألونني عن تجاربي في الحب • انه تجارة خسارة ، وأرض
موات •

لقد جربت الحب وهأنذا أخرج من دنياه صفر اليدين • فمن اغر
الحب بعد ما حذرته وأذدرته فهو مصيب مغبون »

ويقول : الحب عاصمه نبيله لا تعرف غير كرائم النفوس • الحب
بغى روحانيه يفهمها القلب عن القلب ، وتنقلها الروح عن الروح •
ونسرى نشوها فى الأقدسة سريان الصبا فى الفصن • الحب فبس من
الصهبا فى كأس من الماس • الحب لمحة من لمحات السحر الذى يمس
به الوجود فى ليلة قمرء • الحب نعمة حلوة عذبة تناغى السرائر وتناجى
القلوب • الحب نعيم يلبس ثوب البؤس ، أو بؤس يلبس ثوب النعيم •
الحب عاطفة ماحقة ، ما يدري الرجل أهى نعمة أم نعمة • ولا يعلم
أهى هدى أم ضلال • انما يعرف انها كلمة سحرية تزلزل العزائم وتذك
الجيال ، الحب هو ائتلاف روحين وامتزاج فليين واتسجام نفسين • الحب
هو أن تذوب القسوة فى كوثر الخان • وإن تأنس الاسود الى الطباء •
الحب هو أن تصير قلبا شفافا تجرحه النظرة وتفننه الخطرة ويأسره
الدلال • الحب هو أن تكون دنياك كلها ملكا لمن تحب • الحب هو
أن تخاطر بالملك فى سبيل من تحب •

ولا شك أن هذه الصورة الرائعة لا يستطيع أن يرسمها الا رجل
له فى الحب تجارب وقصص ومغامرات بعيدة المدى •

ولعل « زكى مبارك » الذى أحب فى أول شبابه تلك الصاة الفلاحه
(فتية) • فلما مدت ظلت تلاحقه بطيفها حتى بعد ان ذهب الى باريس
والذى بدا حياته يقول شعر الحب ويكتب عن شيخ المحبين عمر بن أبى
ربيعه ، يستطيع زكى مبارك نفسه أن يحدثنا عن فجر حياته :

« لقد ابتدأت حياتى الوجدانية بأخطر بداية • ابتدأتها باللعب
بالجمر • وما أخطر الجمر فى أيدي اللاعبين • فقد نظمت فى حدائى
هذين البيتين :

أشجاك ما خلف الستار وانما خلف الستائر لؤلؤ مكنون
والناس فى غفلاتهم لم يعلموا انى بكل حسائهم مفتون
وكان ذلك كله مزاحفى مزاح ، ثم انقلب اللهو الى جد صراح • فانا اليوم أتمثل
الحسن فى كل مكان • فما مشيت فى الطريق الا افترضت ان ثراه قد

يعطر في صباحه أو مسائه ببعض الافدام اللطاف • وما رأيت نافذة
برفرف عليها سارة ، الا توهمت أن هناك مليحة تداعب جمالها في
المرآة • وما سكن الليل الا نوهمت سكونه بجوى حيين • ولا لاح
نجم أو طلع البدر الا تذكرت أن هناك قلوب تخفق طربا أو حزنا
لمصاييح السماء •• ولا أشرق البدر الا طربت من شبهوا به أسيلات
الخدود ، ولا اهتز الغصن الا انتشيت لما يذكر به من رشقات القدود •
ولا ترنم مزهو ولا عود ، الا تشوقت روحي الى ما توسوس به الاونار
من ذكريات الهوى والجمال •

فأنا أعيش في دنيا من المعاني بعضها بهيج • وبعضها حزين ،
والحزن والابتهاج يتراوحيان في قلبي صباح مساء • فما أدرى أشقى
أنا أم سعيد •

ولى في مشارق الأرض ومغاربها قلوب وأرواح ، أخشى عليها
غدر الزمان ، وذلك أخطر ما أفكر فيه في ليالي الأعياد •

ومن حذر لا أسأل الركب عنكمو واعلام وجدى باقيات كما هي
ومن يسأل الركبان عن كل غائب فلا بد أن يلقي بشيرا وناعيا
ويرسم زكى مبارك صورا متعددة لأشواقه وعواطفه • ولكن جبه
مرجريت يفوق كل ما رسم من صور :

« كنت أقول ان مرجريت أوث روحي وقلبي خمسة عشر شهرا
وأمكننتي أن أصبر أبا كريما لطفل جميل • وكنت أقول ان لمرجريت
فضلا عظيما في مرونة لسانى باللغة الفرنسية • المرونة التى يمكننى من
أن أحذر هيئة الامتحان فى مدرسة اللغات الشرقية خمس ساعات •
وذلك مغنم ليس بالقليل •

كنت أقول ان مرجريت هى التى عرفتنى بدقائق الحياة فى باريس
كنت أقول انى لم أحسن الأكل بالشوكة والسكين الا بفضل مرجريت
وكانت مرجريت تكتب الى كل أسبوع خطابين • وكانت تخاطبني

بالكاف • وكنت أبخل عليها بالمخضبة بالكاف ، لأنى كنت أحتش أن يكون فى المخاطبة بالكاف ما يشهد بأنى كنت مع تلك المرأة على صلات غرامية • وكانت تقول ان بخلك على بالمخاطبة بالكاف يوحى الى بأن أخفى رسائلك عن موريس • وهى كل ما فى حياة هذا الطفل المسكين من عزاء • حرسك الله يا موريس وبارك فى حياتك الغالية •

وكانت مرجريت تتحدث فى رسائلها عن أشياء دقيقة لا نذكر الا فى رسائل العشاق • وكنت أتبادل عن تلك الأشياء حين أكتب الجواب وكان هذا يؤذيها أبلغ اذى • فكانت تتهمنى بالقسوة والعنف • والله وحده يعلم كيف كنت أسى الأدب فى مراسلة مرجريت • نانا أعيش فى القاهرة • وهى تعيش فى باريس •

هل تعلم مرجريت أن محبوبها الغالى يحيا فى القاهرة بلا ناصر ولا معين ؟ هل تعلم مرجريت أنى لا أصلح أبدا لما صلح له فكتور كوزان الذى كان أعظم أستاذ للفلسفة فى باريس • ولم تكن له زوجة • وانما كانت له خلية تحرسه وترعاه • ان مرجريت لا تفهم انى مصرى ، يعيش فى مدينة لها تقاليد غير تقاليد باريس • مرجريت اذكرينى بالشعر يوم أموت • • •

وفى الوقت الذى يروى هذه القصة ، يروى قصة أخرى عن حب آخر فى باريس • « أتحدث عن روح لطيفة عرفتها فى باريس • روح جميلة لها فى حياتى تاريخ وتواريخ • كان اسمها مادلين • فسميتها ليلى • ودعنتى فى محطة ليون ، وأرسلت لى بريقة على الباخرة شامبليون ثم أخذت مادلين توالينى بالرسائل اللطيف ، وبلغ بها الوجد مبلغا قضى بأن تنظم الأشعر فى حى ، حتى شاء هواها أن تزور القاهرة لترانى • فلما لقيتنى قلت : متى نتزوج ؟

فقلت لها اننى متزوج ولى أنة • • •

وغير هذا قصص أخرى عني على المريضة فى العراق ، والزمالك ومصر الجديدة • • • الخ •

بدأت هذه القصص بالأنسة : من ريدده .. حتى كانت زميلته
يوم كان صليبا في الجامعة « وكانت آية في الجمال . وكنت امضي معها
الى بيئتها ومعى مذكرات انقليسه . فأملى . وتكتب . وأنا أسرب جديها
بعيوني » .

ولكن ركنى مبارك الذى يحب ، ويصور حبه فى ملل هذه المعنى
به رأى فى المرأة عجيب . فيه مرارة وحقد وكراهيه .. ونقمة !

امرأة مخلوق جميل ، ولكنه سخي . لأنها جهل ما فطرت
عليه من الضعف . وهى لا تسيطر ولا تستطيل الا على كرام الرجال .
والرجل الكريم يراعى عواطف المرأة ، بفضل ما فطر عليه من الهيام
بالجمال والرفق بالضعفاء . وتظن أنه لا يراعيها الا بفضل ما تملك من
السحر والجاذبيه وفى المرأة سحر وجاذبية وان كانت سيوهة لأنها
باب الى الضلال .

المرأة ، المرأة ... غضبه الله على جميع بنات حواء ..

المرأة الجميلة قد تؤذى زوجها بلا تهيّب . والمرأة الدميمة قد
تسعد زوجها بلا ترفق .

والمرأة تملك أصول الشهوات ، وهى باب الدمار والخذلان .
وما أطاع رجل امرأته الا هان وذل . وأعظم ميزة لدين الاسلام
هى دعوته الى الحذر من النساء .

أعاذنا الله من كيد اسماء فان كيدهن أعظم من كيد الشياطين .
ولكن ما الذى أشكوه من المرأة ، حتى أصب على رأسهم
هذا السوط .

ليس لى ما أشكوه من المرأة غير غلوهم فى بغيرة .

لم تكتف المرأة بالسيطرة على الرجال فى البيوت ، وانما تريد
السيطرة على الحياة الاجتماعية ، وتطالب بحرية الانتخابات والمساواة
فى الميراث . وما وقع ذلك الا لأن الرجال حرموا فضائلهم الاساسية .

فهم اليوم يتظرفون ليقال انهم متمدون • غضبه الله والملائكة على رجل
هذا الزمان •

وبلاني في دنياى أعظم بلاء : لاسى مزوج وعاشق • أنا أرى
المرأة فى انيت وفى خارج البيت • أراهاحيثما توجهت • لأن الله كتب
أن أكون من الأشقياء • وإذا دى التليمون فى المنزل نظن زوجتى أن
جميع المحادثات التليفونية آتية من سعيى الوجد فى الزمالك وحلوان •
وإذا ذهبت الى باريس فهى تظن انى ماض الى محادثة مرجريت •
وإذا مضيت الى بغداد فهى تظن انى ماض الى مغازلة ظمياء • وإذاقلبت
من مدينة الى مدينة لتأدية الواجبات الرسمية ظنتنى على ميعاد مع حسان
الاسكندرية ، أو ملاح أسيوط • فمن يفهم هذه المرأة • اننى لا أريد
غير فهم سرائر النساء لأقدم الى الأدب ألوانا من الدراسات النفسية « (١)
• وهو يصور المرأة فى أكثر من موضع تصوير الخير وان بدا
فى آرائه بعض التحامل الذى ربما كان مصدره فشله فى الحب •

• ان المرأة يؤسسه ويعجبه ويرضيها أن تنكر على الرجل كل
شئ • وهى تجد لذة فى التجحود وتسروح به كما تسروح الافعى
بسواد الليل •

• ان الجمال يورث أهله بعض خصال النزق والطيش •

• المرأة التى تجود عليك بابتساماة يكون من حقها عليك أن
تحفظ معها الادب فى السر والعلانية • والمرأة تعطى كثيرا جدا حين
تجود بابتساماة • والعاشق فى جميع أحواله أقل تضحية من العشوف
لأن العاشق يأخذ • والعشوف يمنح • والفرق بين الحالين بعيد •

وقد أعلن زكى مبارك رأيه خفية فى المرأة فاعترف بأنه يحقد
عليها كما يحقد على الأدب : « أحقد على المرأة لأنها لثيمة • وأى لؤم
أشنع من أن تراها تتلمس أسباب الفتنة لتريك أنها تستطيع دائما أن
تجد انسانا سواك ، وهى مع هذا اللؤم شر لا بد منه • لأن الحياة قضت

(١) ص ١٩٥ جزء ٣ ليلى المريضة فى العراق •

بذلك • وعلى من يعشق الجمال أن يطمئن طائعا أو كرها الى سلطان
ملك الحجة الرفعة • •

• • فكرت في سر امرأة ، ولكنى لم أستطيع التخلص • لأن
امرأة شبهت صدره بشمس ، فهي تلقانا في كل مكان ، وليس عن
سحرها مجيد • •

هدا وصف عبد الله حبيب (زكى مبارك) • انجسم انكسر •
الوجه الأحمر الطلق • الأنف الكبير المقوس • الألواح العريضة
المنبسطة • المنخر المنتفخ • الصوت الناشز المدوى •

وهو بعد هدا في رأى عبد الله حبيب - • خلق بعير فرامل ، أو
هو كاسيره الضخمة التي لا تقوى فراملها على ضبط نوازنها وده
سيرها • فهو ان سر لابد من حادثة تصادم • كان ضابط بصطدم في
دروسه بشيوخه ورفاقه • وكان مدرسا يناوش وصفاه (زملاءه) في
آرائهم • ويصاوغهم في بحوثهم • وألف كتب ، فكدت سببا في أن يصطدم
كل من يتناولها • نقد أو جريح •

• • فاذا أضيف الى شخصية زكى مبارك انوصومة بالاندفاع ، روح
الفكاهة والسخرية الحلوة ، استطعنا أن نفهم قوله : • لو كانت العيون
نقتل حقيقة لكان لى ضريح يزوره العشاق في باريس •

♦ « ولنحمر في تصوير ملامح شخصية زكى مبارك حديث » فقد
كان لزكى مبارك رأى فيها • • ثم تحول هذا الرأى الى شيء خطير ، كر
بعيد الأثر في وضع نهاية حياته • فيقول عام ١٩٣٠ •

« أنا لا أشرب الخمر الا مشبعة مقتولة ، لا ترخى انفصل ، ولا ترخى
البصر ، ولا يسرى روحها الى قرارة الأسرار • وليس لى منها ، يعلم الله
صباح أو غروب ، الا حين أبكى عهدا سلف ، أو اطرب الى عهد مأمول •

وقد صحا القلب والحمد لله فلم يبق داعية الى معايشرة الشراب
وتذكر الأحباب • وأغرب ما يمر بخاطري في هذه اللحظة حديث الشيخ

يوسف الدجوى حين كان يقول فى دروسه ، بالازهر ، انه لا يشرب الا الماء ويعلق على ذلك بقوله : « والماء مع هذا شراب الحمير » .

و كنت اذ ذاك اعجب كيف ينحسر مثل هذا العارف بالله على أنه لم يرزق من الشراب الا ما يشارك فيه الحمير . ثم عرفت بعد ذلك ان الكلام قديم . وأنه يرجع الى الأخطل الشعر النصرانى المعروف ..

ولكن لم تمض على هذا الكلام غير سنوات حتى بدأ زكى مبارك يعاقر الخمر . فيكون له منها صبوح وغبوق .

حتى جاء الوقت الذى أسرف فيه اسرافا . فأصبحت ترخى المفصل وتزيغ البصر .. وتحول اتجاهه كله واتجه كله الى شئ غير قليل من الضعف والتفسخ .

ولقد كتب المرحوم محمد حمدى فى ٢٩/١/١٩٥٢ ، وهو تاريخ يسبق وفاة زكى مبارك بأسبوعين ، فى مجلة « النداء » تحت عنوان « ثمن العلم » حديثا عجيبا جرى بينه وبين زكى مبارك ، يصور أزمته تصويرا مريرا كان علامة النهاية فى حياة خصبة ، ويعلن انطفاء عقل عبقرى قسوى .

وهذا هو نص الحديث :

« قال لى وهو يدفع بالكأس فى فمه دفعا . وكان الوقت ظهرا واليوم من رمضان . والأديب الكبير جالس على قارعة الطريق ، فى أحد بارات ميدان ابراهيم باشا . والناس علينا متجمعون ، يشهدون المنظر العجيب .

— لماذا تقاوم رغبة صديق وزميل لك فى الصحافة والادب . ثق يا أخا الصحافة انى لست مجنونا ولا ملتث العقل . ولم أفقد ذرة واحدة من ايمانى بالله . وكل ما هنالك اننى ضحية لحقيقة علمية كان من سوء حظى أنها بقيت مجهولة حتى كشفها أنا .

وصب الكأس التى كانت فى يده ، فى فمه ، دفعة واحدة . وشيع السائل الأبيض بجذاذات من العلم طم المملحة ، ثم رمقى ببسمامة خلتها

بدل على أن الرجل لم يصدق في حرف واحد مما سمع في . . . بل حلق بصره
البیضاء الساذجة واستطرد يقول :

- هل تعرف : صديقي ان المسخ وزر وملا وكفه . هل تعرف
يا صديقي ان نوع التفكير الذي يباشره الفكر به علاقة بطول عمر المخ
وبقائه في حالة جيدة . او نقصان أهليته أو فساده ؟ وهل تعلم يا صديقي
أن ما يسمونه القدرة الابدائية هي أشد أنواع التفكير استهلاكاً للمخ .
إذا كنت لا تعلم هذا فعه واستوعبه . وبعد كأس أخرى ، الله وحده يعلم
أين تقع في صف الكئوس التي كان يتجرعها يوماً ، وبعد تشيعها بحيات
من الفول الثابت ، الذي يعيشه شاربو (الزبيب) جذبي بيده جذبة قوية .
وهو يكاد يتهاوى في مجلسه . ثم قال :

- انني الآن أدفع ثمن العلم الذي حصلته . لقد استهلكته انشغالي
الكمية الوزنية للعقل الذي ساعدني على أن أجعل من نفسي مجموعة دكترة ،
في مختلف الفنون الأدبية . أجل ، استهلكته دراساتي ومؤلفاتي ما كان
لدي من ذلك قبل الأوان . وأنا الآن برم ضيق الصدر لأنني أريد مواصلة
البحث والدرس ، ولكني لا أجد عندي قدرة على ذلك . وماذا يكون
الكاتب والمفكر إذا كف عن الاتساج ؟ هل يكون شيئاً أكثر من (ذبالة
انسان) ، (عقب أديب) ، (كعب مفكر) . وهل أرضى بخیل هذه
المكثنة ؟ .. اذن ليكن لي في الخمر مخبأ وملاذ أقضي فيه ما بقى من ثمالة
العمر دافعاً ثمن العلم الذي حصلته . »

تحدث زكي مبارك عن مواقف كثيرة ترسم صورة لشخصيته امرحه
الجذابة ، نعل أقوى هذه الصور أثراً في النفس ، قصة نزوه الى خليج
استانلي بتوب البحر ، حيث لم لقي فقيراً هندياً يقرأ الكف . فنافسه في
صناعته . واستطاع ان يجمع الناس حوله ، ويجعلهم ينفضون عن الفقير
الهندي . فقد أعلن لهم أنه حصل على شهادة في علم الكف من باريس .

يقول : « ذهبت في ضحى يوم صائف الى خليج استانلي ، ونزلت
بشوب البحر الى ملعب الغزلان . فرأيت فقيراً هندياً يقرأ الكف لفتته

ناهد ، تشبه أفروديت ، أو تشبهها أفروديت • فجلست بجانبها جلسة الباحث المتعقب ، لاجلسة اللاهى اللاعب • وما هى الا لحظات حتى قلت بصوت الواثق بصحة ما يقول :

على رسلك أيها الساحر • فأنت فيما يظهر قليل العلم بأسرار الكف • وما يجوز لك أن تشغل فتاة بمصيره على غير هدى • أين تعلمت هذا العلم أيها الدرويش الجهول ؟ ••

فانزعج الرجل انزعاجا شديدا • وقرأ الهنود ضعاف العزائم والقلوب فى أكثر الأحيان • ونظرت الفتاة فى استغراب ، وقالت :

- وحضرتك تعرف علم الكف ؟ ••

قلت وأقسم ما قلت غير الصدق : - نعم • أعرف علم الكف • وهو خير ما تعلمت فى باريس •

فانعطفت الفتاة ، فى تخاذل ، وقالت : سمح تقرأ لى كفى •

فأخذت يدها ، ونظرت الى صدرها مرة ، والى عينيها مرتين • ثم شرعت أقص عليها أخبار المستقبل ، وما فيه من ابتسامة وأنين •

وما هى الا دقائق حتى كنت ساحر الشاطىء ••

وتخاذل الساحر الهندى وتضعضع • وأقبل يسر فى أذنى : تتفضل بكلمة ؟ •• فقلت نعم • وانتحيت بعيدا عن أسماع الأطباء •

فقال أعرف أنه لا يقل الحديد الا الحديد • أنت تحدث القيسيات بأحاديث أجهلها كل الجهل • ويغلب على ظنى أنك لاتقرأ الكف ، وانما تقرأ العيون •

ثم قال : أرجو أن تبيننى هذا الميدان • وقدم عشرة دنانير •

- أنا أترك لك الميدان من أجل عشرة دنانير ؟ هيهات ••

- أنا لم أغنم فى هذا الموسم غير أربعين دينارا •

- اذن تدفع عشرين دينارا ، وتحفظ لنفسك بعشرين ••

هذه هي قصة نبي رواها زكي مبارك ، في عديد من كتبه ، ومما لانه
على نحو آخر ، وهي برسم جانبنا من ملامح شخصيته ارحه السخرة .

ومع ذلك فقد عاش زكي مبارك فلاحا زهريا حتى بعد أن عاد من
باريس . وهو يفخر بأن « أحمد زكي باشا » . هل عه : « أن زكي مبارك »
عاش في باريس ، عاش . وظل مع ذلك فلاحا من سريس . . »

وقد تقلب زكي مبارك بين الأزياء . فدار معبد . ثم مصر بشا . ثم
مصب . ثم بسبب استدارة العرافية . . وهو يرى أن من أخير أن يلبس
المرء زي هذا البلد الذي يعيش فيه . .

يقول : « انني تطلبت في ملابس من حال و حال . فكت أولانس
الطاقة والجلابية . وهو لباس أهلي في سريس . . ثم كت معمما يوم
كت طالبا في الأزهر الشريف . ولم يظهر أبى كت عريب بين الأزهرين
فقد كانت عماتى أطرف عمامة . وكان هندامى أجمل هنداء . وكت
وحدى في الأزهر أمثل مذهب معتزلة ، يوم كان الأزهر لا يذكر معتزله
الافال : فبحم الله . .

وكان في النية أن أظل أزهريا . فقد انتقلت من مذهب اشافعى الى
مذهب أبى حنيفة ، لأكون مقنى الديار المصرية .

ثم نقلتني الأقدار الى الجامعة لأصبح من تلاميذ ، منصور فهمى ،
وطه حسين . ومع ذلك فقد ظللت معمما الى أن ظفرت بأجازة الليسانس :
في العلوم الفلسفية والادبية سنة ١٩٢١ . ثم أخذت أستعد لامتحان
الدكتوراه ، فبدأ الى أن أصبح (أفندى) فقدمت ماعندى من الجيب الى أحد
النظرية (الترتية) في شارع محمد على ، فصنع منها بذلنين سخيفتين ،
شهد بأبى كت مهديا في الجبة والقفطان ، ثم أصبحت أضحوكة في
السترة والبطلون .

وفي يوم امتحان الدكتوراه اوصانى الدكتور منصور فهمى أن أحضر
في البذلة السوداء . فلم أفهم المراد . ولولا فصاحتى وبلاغتى في ذلك
اليوم لعندى الحاضرون من السفهاء . .

وجاء في رسالتي أنني قد أخلع العمامة وألبس الطربوش . ولكنني لا ألبس القبعة . ولكنني لبست القبعة بعد ذلك بثلاث سنين ، حين هاجرت لطلب العلم ، في مارس سنة ١٩٢٧ . ومن الغريب أنني لم أصنع كما صنع رملاني . وعهدى بهم يذهبون الى البواخر بالطرايش ، وانما لبست القبعة من منزلي في مصر الجديدة ، فلم يعرفني المودعون ، وفيهم الشيخ ابراهيم القاياتي ، رحمه الله .

وفي العراق لبست السدارة . وعندى أن الأخلاق الكريمة تقوم على أساس الاندماج المطلق في البلد الذي تعيش فيه . والسدارة العراقية لباس جميل . . .

ولقد رسم زكي مبارك صوراً كثيرة لحبائه . فلم يحوجنا الى البحث عن هذه التفاصيل الدقيقة التي جاء منها قوله انه كان يضع كل صباح في حافظة كتبه ، وهو في صريقه الى الأزهر الشريف رغيفاً جافاً يابساً متجهم الملامح ، كان لمبارك زاد يومه . وكان يغمس هذا الرغيف في مرق الفول النبات . وانه في يوم أراد أن بهرس هذا الرغيف ، فلم يلبث أن تصجر الدم الثقاني من يده .

ويقول عن نفسه : « ادين فرءوا » . « مدافع العشاق » . يحسبونني في لايتجاوز الثلاثين . وادين فرءوا . الأخلاق عند الغزالي » . يحسبونني شيخاً يصافح الثمانين .

وانه ورث خضره العينين عن أمه ، سقى فبرها الغيث .

وان ذاكرته فيها شدوذ فطيع . وضعيفة كل الضعف فيما يتصل بالأرقام والأعلام . وهي قوية كل القوة فيما يتصل بالحوادث والمعاني : فأننا قد أتممت حادثة بظروفها وأحوالها في غاية من التدقيق كأنني قد شهدتها ولكنني أنسى اليوم الذي وقعت فيه .

وهو في اندفاعه في الحياة يرى نفسه كالنور ، يسمي ليدرج حزمة

الحشيش التي يراها على شبر واحد منه ، فيهلكه السعى ، ولا يبالها أبدا .
لأنها معلقة بقربه ، تسعى أمامه .
ويقول : « ان اعين الناس لا ترى في كل الأحيان . فهم يعيشون في
أعمق ماضيهم ، كصوف السمك العمياء في أعماق المحيطات !! » .

غربة القلب

أبرر معان حياه زكى مبارك هو احساسه العميق الدائم بغربه القلب .
انه قد امن بالصراحه والوصوح والجرأة على قول كلمه الحق ، ولذلك
عجز عن المجاملة والمداورة . ولو استطاعها لكان أحسن حظا في حياته .
وبالرغم من أنه اختلط بأجواء مختلفة وأوساط متعددة ، وذهب الى أوروبا
والعراق ، وطاف بالبلاد العربية ، والتقى بعشرات المثقفين والأعلام . وقرا
مئات الكتب ، وفيها فنون القول عن اللباقة والصراحة والندارة والتحرز
والتقية فانه عجز عن أن يعمو ضيعته الريفية الفلاحة التي ظلت واضحة
في حياته وأدبه معا ، طوال حياته .

ولعله أحس كم جرت عليه طبيعته هذه من نتائج ، وأوقعته في متاعب
وأخرت تقدمه في الحياة ، وحالت بينه وبين أن يصل الى المكان الذي وصل
إليه أتراه . وقد كان دائم الاحساس بأنه غريب منبوذ : يقول :

« أين وطنك يا قلبي . أحب أن أعرف أين وصلت ، لأمضى معك
إليه ؟ أهو مصر . كذبت ثم كذبت . فلو عرفتك مصر حق معرفتك لكان
لك اليوم مكان مرموق ولكنك في مصر منبوذ مجهول .

قلبي ، قلبي ، رحمة الله عليك فقد سعدت ناس يرفق المزيف ،
وشقيت أنت بالرفق الصحيح وقد وصل ناس لأنهم كذبوا وخلقت ،
لأنك صدقت ، ونعم ناس لأنهم خانوا ، وشقيت أنت وانتفع ناس
لأنهم غدروا وخسرت أنت لأنك وفيت . قلبي . قلبي . أحسن الله
الك .

ان هذه العبارات عميقة الاحساس بالآلم • فقد كان زكى مبادر
يشعر صادقا بأنه تخلف لانه تمسك بصدق والوفاء والجد • وان غير
تقدم لأنه تمسك بالكذب والخيانة والنهز والغدر •

وهو يرى أن الرجل الذى يجهد فى الحياة عن طريق الشرف
يلاقى من عنف معاصريه ألوف الصعب ، وتكاد اسقامه المنطق تصبح
همه لكل من يدوس على ما تواضع عليه أهل العصر من زيف وضلال •

والأصدقاء : ما رأى زكى مبادر فيهم ؟ • •

قال : « الأصدقاء يملكون من ايدائك ما لا يملك الاعداء • فلعندو •
بهم • وتجريحه ايك يتلقاه الناس ساخرين • والصدق مؤتمن •
وتجريحه اياك يتلقاه الناس بالقبول • »

وهو يرى أن كلمة الخير مزدرة وهى موضع كراهية الناس •
يقول : « ما ذكرت انسانا بالخير فى حديث أو مقال أو كتاب ، الا
كان ذلك كافيا لقيام ثورة عنيفة لتصحيح ما أخطأت فيه • ولا ذكرت انسانا
بالشر فى حديث أو مقال أو كتاب الا رأيت من يشئ على أدبى ويصفنى
بالجراة والشجاعة والعبقرية »

ولكن هذا كله لا يجعله ينحرف عن اسنمه فكره وضميره ••

وهو القائل : « ان الدخمة الباقية فى حديثى هى أنتى أعيش بروحى
وفلمى • انه روح لطيف • وفلم نظيف • فما استطاعت حكومة أن تستأجر
بلمى •• » ويسأل نفسه بعد ذلك • فيقول : « هل أفقرنى الشرف ؟! »

وبالرغم مما لاقاه من خصومه من عنف وعنث ، فهو يؤمن بأن الله
عز وجل أقوى من كل قوى •

« قد علمتى التجارب وستعلمكم ان الانسان أضعف من أن يفضع
ررق أخيه الانسان • فهناك قوة بانية تبسج الجهاد فى سبيل الرزق الحلال
وهذه القوة لا تنتظر آراءكم فى التجريح والاعتياب • فانطخوا الصخر ان
شتم فلن يسمع لكم فى مصاير الناس قيل ولا قال •• وانما الأمر كله لله »

وله فى هذا المنجل كلمات عميقة المغزى • فهو يؤمن بصداقة الأرواح
ويراها فى كل شىء نفيس • ويرى مودة العقول من ذخائر الرجال •
ويقول : « مثقال ذرة من الورع السالم ، خير من ألف مثقال من
الصوم والصلاة »

ولكنه بالرغم من إيمانه بالمثل العليا ، يحس بنأس بين آن وآن ،
فينعى على زمانه انه لم يصل الى مكانه الحق : يقول :
« ما الذى غنمت وأنا أمتشق القلم منذ أكر من خمس وعشرين
سنة ، بعزيمة أقسى من الصخر ، وأصلب من الحديد ؟ ••
ما الذى غنمت ، وقد كنت كاتباً وشاعراً ، بل أن بولد فريق من
الذين تؤذيني عندهم نعمة قلمى •

لقد غنيت أهل زمانى أناشيد أيقظت بها صدورهم من أحلام غافيات
وأحييت بها ما كان فى قلوبهم من موات • فأين من يسعدنى بكلمة صدق
أدفع بها عدوان زمانى ، لأمضى على سجيى فى السجع والغناء •• وهل
عانى أيوب فى زمانه مثل ما عانيت ؟ ••

وهذه الصرخة تصور مدى عمق احساسه بغربة القلب ، هذه الغربة
التي فرضتها عليه طبيعته ، بكل ما فيها من عنف وصراحة وجراحة •
••• وانه أحياناً ليحقق على الأدب ، ويحقق على المرأة • ولسكن
لماذا يحقق على الأدب ؟ ••

قول : « أحقق على الأدب لأنه لا يستقيم له حال ، الا اذا حمل صاحبه
على المظطرة فى ظلماء الوجود • ولن تجد فى العالم كله أدبياً ذا مكانه
الا كانت له فى ميادين الحياة ثارات وحزازات لن تموت • والقراء الذين
يحيا على حسابهم الأدب وأهلهم لا يؤمنون بوجود الأديب الا اذا رأوا أحشاءه
تحترق بين السطور • وقد نرى أحياناً ناساً يهاجمون الأديب ويتهمونه
بالخروج على التقاليد • وهؤلاء الناس لا يفعلون ذلك حرصاً على الأخلاق ،
وانما يقومون فى أعراض الأدباء ، حسداً منهم على مارزق النابغون من

مواجهة أسرار الحياة • • ولكن ما قيمة ذلك • وما الذى فيه من العزاء ؟
ان الأديب سيظل - ولو انتصر • كالشمعة تضىء للناس وهى تحترق •

وقد فكرت كثيرا فى شر الأدب على أهله • ولكنى لم أستطع الخلاص ،
لأنه كتب على ، أن أحيا من مهنة الصحافة ، ومهنة التدريس ، فهل أنلج
إذا اقتضرت على أن احادث قرائى وتلاميذى فى فضل الصمت وشرح
دلائل الخيرات • • ؟!

ومع هذا فقد ظل زكى مبارك فى كل مناسبة يسجل على نفسه
حقيقته التى كانت موضع الخلاف •

« لم أخدعك - أيها القارىء - فيما تعرضت لشرحه من الحقائق
الأدبية والفلسفية ، نلم آتھب مسافط غضبك ، ولم أتلمس مـوائع
هواك • وانہ صدقت كل الصدق • فرآنى فريق من الملحدین • ورآنى
فريق من المؤمنين • ونسبني قوم الى المجان • وعدنى قوم من الصوفية •
وما كنت من أولئك ولا هؤلاء • وانما أنا سائر يبحث عن علم الهداية فى
بيداء الوجود • وما بينى وبين الله لا يعرفه عدو ولا صديق • وانما علمه عند
علام الغيوب ، الذى يعلم خئنة الأعين وما يخفى الصدور » •

الشاعر

بدأ « زكى مبارك » حياته الأدبية شعرا وجدانيا ، وهذا مما يتفق مع
طبيعته العاطفية التى تدافعها الأشواق والأهواء • وقد عرف زكى مبارك
بأنه عشق وعجب وعبد لتجسس ، بل انه ليتمكن القول بأن كل ما كتبه زكى
مبارك هو الشعر من غير التوافى ، لغلبة النزعة العاطفية على كل آخره •

وقد بدأ حياته الفكرية بدراسة شعرية لعمر بن أبى ربيعة وكان
ينشر شعره فى « الجريدة » « والسفور » • وفى مطلع حياته كان ينشر
القصيدة فى عشرات الأبيات • ثم لم يلبث أن غير اتجاهه ، فكان ينشر أحيانا
قصيدة من بيت واحد • ثم عنى بالموازنة بين الشعراء • ولكنه لم يلبث أن

أصدر ديوانه الأول عام ١٩٣٤ وانتظر ثلاثة عشر عاما حتى أصدر ديوانه الكبير « الحان الخلود » متضمنا كل شعره بما فيه ديوانه الأول •

ولم يكن زكي مبارك ينوي أن يصدر ديوانا آخر على هذه الصورة، بعد أن شغلته الابحاث الأدبية والفلسفية عن الغذاء ، والشعر غناء •

غير أن هجرته الى العراق عام ١٩٣٧ خلقت روحا جديدة في حياته الشعرية • فقد ساجل شعراء بغداد مساجله فقت بأن ينظم أعظم قصيدة - في نظره - بعد قصائد ستريس وأسيوط وباريس • وهي قصيدة « من جحيم الظلم في القاهرة الى سعي الوجد في بغداد » تلك التي تبلغ ١١١ بيتا •

ثم يجد زكي مبارك أن اشتراكه في مجلة « الرسالة » بضع سنين قد حول طاقته الشعرية الى صور نثرية •

وشعر (زكي مبارك) في الأغلب شعر وجداني • ويمكن القول بأن شعر زكي مبارك يتسم بالحزن • وعلى ذلك فإن « زكي مبارك » • لم يعرف فرحة العيد أبدا • فقد كانت ليلة العيد في بيتهم مشوشة ، اذ ما كان يمر عيد بدون حزن على ميت ، حتى ان كعلك العيد لم يخبز في بيتهم الا مرة أو مرتين • ويقول زكي مبارك ان أعصابه قد تأثرت تأثرا شديدا بهذه المناظر التي واجهته وهو طفل ومضت تلاحقه من عام الى عام •

ويقول زكي مبارك « ان لفحة الحزن التي تتوهج في أشعاري : انما كانت لأنه ليس لي ارادة في صياغة الشعر الحزين • فما أعرف أن الله ابتلى أحدا من خلفه بالحزن كما ابتلاني » •

وقد صور زكي مبارك أبرز الحقائق في شعره : فقال :

• ان أشعاري تكاد تكون مقصورة على فن واحد ، هو فن « الغزل والتشبيب » ولعل هذا يرجع الى طبيعة ذاتية ، قضت بأن أعيش للتغريد فوق أفنان الجمال • ليس في أشعاري مديح • فما أعرف رجلا أعظم مني لأنظم فيه قصائد المديح •

♦ الاهتمام بتشريح المعنى : فقد أنظم فى المعنى الواحد عشرات من الأبيات • وهذا يرجع الى فطرتى الفلسفية • التفكير عندى هو جذع النخلة • والوصف هو جريد النخل • والمعنى هو عقائد الأعناب • والوصف هو أوراق الأعناب •

♦ النزعة الصوفية : هو التشبيب بالجمال الربنى •

أحبك رب الكون هل أنت شافعى الى سرحة فى شط دجلة زهراء
رأيت فنائى فيك حين رأيتهـ تحول اضلالى وتوسد افنائى
ومن أنت ياربى ؟ أجبنى، فائى رأيتك بين الحسن والرهى والماء
♦ تدوين عواطف عزيزة عى • وهى عواطف سجلت بينها وفائى لأصدقائى •

♦ دقة الأسلوب فهو يقوم على موازين •

ويؤكد زكى مبارك أنه يحب من اشعراء القدامى (ابو تمام) ويذكره بالتطويل فى مقدمة ديوانه (النحن اخلاود) • وقد نلد « لأمريين » نى وضع مقدمة لكل قصيدة • وقد نسر شعره نى « الهلال » و « الصباح » و « الشعلة » و « الحوادث » و « الأهرام » و « البلاغ » و « الرسالة » •

وعاش شعر زكى مبارك مع الحياء • ففى كل مكان ، يهز النفس ، كان له فيه نظم • فعندما ذهب الى رأس البر ، وزار جمع « المتح » حيث مكن شهداء الاسلام مع اصليبين ون شعراء • زنى ذكرى ١١ من يوليو سنة ١٨٨٢ فى الاسكندرية له قصيدة « دار الوجد والمجد » عن الاسكندرية بعد ضربها بالقنابل فى الحرب العالمية الثانية • كما أوحى اليه الشيب شعرا فى أعوامه الأخيرة • « وشعرى فى الشيب فيه ومضات لا ووجد فى أسعد القدماء • لأن أكثرهم كان يصنف صوة الشيب قبل أن يشيب » •

وقد وضع قصيدة فى توديع مكة اشكرمه • ونسبها الى الرسول الصادق الامين • وقد ذكر زكى مبارك فى بعض كتاباته انه نظم ثلاثين ألفا من الأبيات فى التغنى بالجمال •

ويرى زكي مبارك أنه يتجه في حياته الشعرية إلى ما يتجه إليه في حياته النثرية . زغور سريع المعاني والعواصف سريع يصل بها إلى أعظم رية من الوضوح وجزء .

ويرى المازني أن « ميزة (١) مبارك ، هي بسدولي وهي حسن النسب ، وجودة انسياعه . ولقد نسييت معيه بعد حي ديوان . ولم يبق في نسي منها أثر ولم يستقر في ذاكرتي منه شيء . ولكن الدكتور « مبارك » اديب خيره في بحثه وله أثره المشهورة . وفي ذلك فضل غير منكور ولا يزيد أن يكون شاعرا أو لا يكون . »

ويدرد عليه زكي مبارك بقوله « ان اشعر لشي يستخف به الأستاذ المازني لدلالته على معان صغيرة هي عوصف . هذا الشعر هيسو الدليل على اننا عشنا في هذه الدنيا بقلوب الاحياء . فذات لنا لحظات عقل وايم جنون والعيش مزاج من الوفور وانطيش . ومجموعه من التأملات والمنهات . »

هنا كان صديقي أصبح عقلا كله ، فيا ويحه في الادمة بدار ، الحفظ فيها للمجنين . »

ولما قال الدكتور محمد صبرى السربوني « ان ديباجه زكي مبارك الشعرية ديباجة بعثرية » قل مبارك : « انها كلمة يريد بها الله . ونكني عند نسي أشعر من البحري ، وأشعر من جميع الشعراء . »

ويقول زكي مبارك : « ان انجو الذي يثير الشاعرية في صدرى هو الجور الحاد بالبرد أو القيف . أما الجو المعتدل فهو موسم خمود . ونعل هذه الطبيعة هي السبب في أن يتسم أدبى برسم العنف والجموح . وقد علقت على هذا مرة بأنه يرجع الى انى ولدت في شهر أغسطس ، وهو موسم طغيان النيل . والواقع أن الهدوء يزعجنى ، والضجيج الخارجى ينبه العواطف . »

وكما ذكرنا من قبل ، انه سكن في بيت في باريس في مكان هادى .

(١) نقد المازني للديوان سنة ١٩٣٣ - جريدة البلاغ .

فضاق به وتركه • أما في بغداد ، فقد سكن بجوار مصنع لطرق الحديد ،
وارتاح اليه •

أما بالنسبة للشعر ، فيقول زكي مبارك انه نظم في عهد الحداثة
طوائف من المواويل • ومنازل الوحي في الشعر عنده هي سنتريس وأسيوط
وباريس وبغداد •

وقد أصدر زكي مبارك ديوانه (الحان الخلود) في فترة أزمة
نفسية • اذ كان قد ترك وزارة المعارف ، ووقع في كثير من المشكلات مع
وزراء المعارف وكبار موظفيها • وأحس بأنه لابد أن يطبع شعره • فراح
يجمعه من كل مكان • ويقدم له بمقدمات طويلة • وقد دفع مائة جنيهه
عربونا لطبعه • ويرى أن عمله هذا هو عين الصواب • فان له أبناء • ولكن
أبناء من روحه أعز عليه من أبنائه من بدنه : « انها اشعارى ومؤلفاتى »
اذن يجب أن أنفق على ابنائى من روحى ما أنفقت على ابنائى
من بدنى ••

وكما ذكرنا من قبل أن ديوان «الحان الخلود» يرد له شبابه ، وقد
جاوز الخامسة والخمسين (سنة ١٩٤٧) فهو عصارة عواطف واحاسيس،
قطفتها وأنا أذرع فضاء الله بين شاطئ المانش وشط العرب •

وما كنت أتوهم أنى سأجتاز تلك الأقطار وأنى سأعبر تلك البحار
والأنهار • وانى سأكون أخطر من السندباد • •

وكما أوضحنا من قبل ، نجد أن « زكى مبارك » شاعر بطبيعته •
والدقائق البسيطة في حياته تعطى صورة الشاعر الذى يتأثر بالمصايف
الجميلة التى كانت تعشش حول نوافذ منزله • فيقدم لها الطعام ويحرص
على أن يستيقظ مبكرا لسمع صوت المؤذن وشقشقة الطيور : « سأعود
الى المصايف التى بنت أعشاشها فى شبيلك البيت • لقد تعودت أن تأكل
من يدى فى الصباح ، وأنا أراقب الأعياب الشمس • أنا أحضر لتلك
المصايف فتايت من بقايا طعامى وأضعها على كفتى فتجتمع على كفتى لتأكل

تلك الفتايت • وهى تغنى بزقزقة ، هى الغاية من حلاوة الغداء • • وقد
استوحى من جمال هذه المناظر ما استوحى •

ولقد تأثر بموت أبنائه الصغار الذين كان يكفئهم بيده ويحملهم الى
متواهم الأخير •

وكما ذكرنا من قبل ، والجسر القائم على نهر السين من ضحيه
سان كلو ، له فى قلبه مكان • والقنطرة القائمة على نهر السين فى روز
لها ايحاء • والجسر القائم على نهر دجلة وقنطرة سدة الهندية لها
آثار كبر فى قلبه •

يا جيرة (السين) فى مرابعكم	فتى الى انيل يشكو غربة الدار
حنت عليه لياليه وأسلمه	الى انحوادث صحب غير أبرار
احاله الدهر فى لأواء غربته	روحا معنى وجما نضو أسفر
يسعى الى المجد ترميه مخاطره	بناقع من شفاياها وضار
عزاؤه أن عقبي كل عسادية	يشقى بها الحر ، اكليل من العار

جنت على الليالى غير ظالمة	انى لأهل لما ألقاه من زمنى
فما رأيت من الأخطار عادية	الا بنيت على أجوازاها سكنى
ولا لمحت من الآمال بارقة	الا تقحمت ما تجتاز من فتن
أحلت دنيائى معنى لا قرار له	فى ذمة المجد ماشردت من وسن

يا جنة الخلد كيف يشقى	فى ظلك النازح الغريب
الناس من لهوهم نشاوى	ودمعته دافق صبيب
يقتات أشجانه وحيدا	فلا صديق ولا قريب
أقصى أمانيه حين يمسى	أن يهجع الخفق والوجيب

مبارك الكاتب

بدأ زكي مبارك حياته الأدبية شعرا • ولكنه لم يلبث ان يرسل وأصبح من كتاب النثر • وفضل يزاوّل النظم بين حين وحين ، كلما دعت دواعيه ، وفرضت الظروف الالتجاء اليه • وزكى مبارك السكّنب قريب جدا من زكى مبارك الشاعر • فهو الوجداني العاصمي ، حتى في مجال البحث الأدبي والعلمي • وقد أخذ عليه ، وهو يقدم أطروحة الدكتوراه « النثر الفني » أمام السربون غلبة الروح العاطفية • ولكن هذا لا يمنع من القول ان « زكى مبارك » الكاتب يكاد يكون نسجا وحده ، بين كتاب عصره ، حيث يمتاز بمعالم أربعة : الوضوح • والصراحة • والجرأة • والعاطفة • وهى صفات لم تجتمع لكاتب سواه فى هذا العصر على النحو الذى عرف عنه •

فقد بلغ فى الصراحة والجرأة الى حد العنف • وقد كان لهـذه الجرأة أثرها البعيد فى حياته • اذ خلقت انجفوة بينه وبين كل من تناولهم بالنقد • وكما ذكرنا من قبل ، فقد ردد زكى مبارك العبارة التاريخية التى يقول : « ان قول الحق لم يدع لى الحرية فى علم الكتابة واجتمع ، ومحاربته للنفاق : « سأطل فى ثورتى الى أن انصر فى حرب ما أمقت من نفاقى النقاليد • • وأستطيع أن أوكد لك أن كثيرا من الأصنام التى تعبد فى مصر والشرق ستتحطم عما قريب • وسينشأ فى مصر والشرق جيل جديد يبنى أحكامه وقوانينه على أساس التجارب والمشاهدات • وسيتهدم صروح العظمة التى تبنى على أساس التوقر والتحفظ : متى أشهد مصرعت ياعصر النفاق ؟ »

وهو يؤمن بأن للأديب مهمة : وهذه المهمة عنده هى حرب الأوهام والأباطيل والأضاليل • وبرى أن الدعوات الوطنية والاجتماعية لم تنجح الا بفضل تحريض الشعراء والكاتب والخطباء •

يقول : « ان الأديب يقضى عمره فى جهاد ونضال وعراك مع الدنيا

والناس ، ومع الأوهام والأباطيل والأضاليل ، وما شرف مشرف أو غرب مغرب في دعوة وصيه أو اجتماعية الا على هدى من وحى الأديب . ولا استبسل جبان أو استقل شجاع الا بتحريض من عبارة فاه به ساعر أو كاتب أو خطيب ، .

وهو يرى أن أعمانه الأدبية تتجه الى الايقاظ من الغفوة والجمود فيقول :

« ما فل أحد بأنه يفضني ويحقد عسلى ، الا اطمأنت الى تبليغ رسالتى الادبية ، فأنا أخلق الغرض خلقاً لاذكاً نر الغضب والحق في القلوب التى طال عهدا بالغفوة والجمود » .

وهو يرى أنه يقضى أعمارنا في التوسع وسراده وريء . ومن أجل ذلك يعمل في أدبنا ذلك الجواهر النفيس : جوهر صراحة والصدق . يقول « من أعجب العجب أن أعجز عن قول اصدق ، حتى فى الاحوال اسمى يكون فيها اصدق خيراً محصنا ، لأن الجمهور الذى تعاصره يناذى من اصدق الذى يسوءه » .

ويؤمن زكى مبارك بالقلم . ويراه فى يد الكاتب مثل اشرط فى يد الطبيب . ويقول « اتخذت من القلم مشرطاً أعالج به أمراض القلوب » .

وهو بعد ذلك حريص كل الحرص على تسجيل الرأى كتابة ، فهو يخشى أحاديث المجالس ، خوفاً من التزيد والتحريف . ويؤمن بأن على الكاتب الا يقول فى السر ما يخشى أن يقوله فى العلانية ، وأن يستطيع أن يكتب كلمة يقولها فى مجلس من مجالسه .

« أرى أن نخطب الناس عن طريق الجرائد والمجلات أو عن طريق المؤلفات ، فلا نعلن رأياً الا وهو نص مكتوب يعجز عن تحريفه المحرفون ، ثم أوصيكم بأن تكونوا رقباء على أنفسكم . فلا تقولوا فى السر ما تعجزون عن نشره فى العلانية . وما أوصيكم الا بما أوصى به نفسى . ان لسانى غاية فى التلطف والرفق ، وأن اشتهر قلمي بالشطط والجموح . وما كان

ذلك كذلك الا لأنني أكره المواربة وأبغض الاستخفاء • وما حقد على حاقده ، الا بما قلت فيه بكلام منشور في الجرائد والمجلات ، يملك الرد عليه ، حين يشاء • أما إيذاء الناس في السر فلا أستطيعه أبدا • لأن الله تباركت أسماؤه عصمني من رذيلة الاغتياب (١) •

ولكن لزكى مبارك آراء أخرى أشد عمقا • فهو يرى أن الكذب لابد « لكي يكون مؤثرا ، ويكون لأدبه طبع الحياة والخلود » أن يرتطم بالغواية •

يقول • أن الأديب لا ينبغي الا اذا ارتطم في الغواية والبؤس • وتلك سنة الطبيعة منذ خلق الأدب الى اليوم • ويكاد يكون من المستحيل أن يكون لرجل الأدب روح الا اذا قهرتهم الهموم والأحزان •

أضف الى ذلك انهم لا يؤثرون في قرائهم الا اذا تأثروا هم بما في الحياة من لين وبأساء ، ولا يقع شيء من هذا ، الا ان عاشروا الناس وشاركوهم في جدهم وهزلهم وحلمهم وجهلهم وعقلهم وجنونهم ، وعرفوا ما الهدى وما الضلال ، وما الشك وما اليقين • وهذا كله ، أتخسبه بلائمن؟ هيهات ! فمن ثمنه العرض والعافية •

ويرى زكى مبارك أن الكاتب انصاف لا يصل الى الشهرة والمكانة الا بعد بذل جهد ضخم ودفع ثمن غل ، يقول : « نحن قوم كونت صروف الليالي والأيام ، فان اكنوت يدك كما اكنوت أيدينا فستملك من السيطرة على القراء أكثر مما تملك • وقد يلقاك الدهر بأفضل وأجمل مما يلقانا ، وهو عندنا غادر جحود » •

ويرد على الذين انتقدوا بعض من كتبوا في شكوى العيش فقال : « قد عيب علينا أن نشكو الدهر ونحن في سعة من العيش ، وسيرتقى الذوق فتدرك أن الخواض لا يشكون جوع البطون وانما يشكون جوع القلوب » •

(١) الرسالة - ٤ من أغسطس سنة ١٩٤١ •

ويعلم زكى مبارك فى كل مناسبة أنه يجب صحة الورق والمداد :
« ان هيمى بصحة الورق والمداد سيضيع على جميع النافع الدنيوية .

وقد أموت بسبب الكدح الموصول قبل أن يموت فلان ، مع أنه ولد قبل أن
يولد أبى » وهو يهاجم الذين يأكلون الخبز باسم اللغة العربية . يقول
« كان من حقى ان أصوب سنان القلم الى صدور من يأكلون السحت .
صدور الذين يأكلون الخبز باسم اللغة العربية . وقد نمضى الايام ولا
يزود أحدهم نفسه بكتاب ثمنه خمسة قروش يرى الدكتور مبارك أنه
من الخطأ أن يعتمد الكاتب على ماضيه الجميل . وأن يتوهم أن القراء قد
يذكرون حين يخطئ . أن الحسنات يذهبن السيئات . وان الذى يحلق
ألف مرة قد يفتقر له الاسفاف مرة أو مرتين . كما يسجل أنه لا يمر يوم
واحد دون أن يخلو الى قلمه ساعة أو ساعتين .

ويؤمن زكى مبارك بأن النجاح فى الأدب قام على سناد من العصيات
المثلة فى الآندية والجمعيات . ويرى أنه يفضل التحزب المستور . لمعت
فى عالم الأدب أسماء كانت أهلا للخمول ، لو واجهت الحياة الاديبة
بلا سناد من الأصدقاء والحلفاء ، ويندم على أنه ، وقد فاته التحزب فى
السياسة فهو يعيش بلا أنصار ولا أصفاء .

ويعلم أنه سيعقد محالفة بينه وبين قلمه ، ويراه أقوى وانفع من
ألف الأصدقاء .

ويقول : « قضيت دهرى بلا نصير ولا معين . وسأظل كذلك طول
حياتى ، لأقيم الدليل على أن من يستنصر بالله لا يخيب ولا يضع ، .

ويعترف زكى مبارك بأنه فى أول أمره بالأدب لم يكن يعرف الفرق
بين التسويد والتبيض ، ولا يستشير معاونة الصنعة على مغالبة الطبع .
وأن قلمه يجرى فى القرطاس جرى الجواد فى الميدان . وهو يرى أن
هذا المذهب فى رياضة القلم هو الذى عرضه لكثير من الجراح ، لأنه لم
يكن يملك صده حين ينطلق ، ولكنه لم يلبث أن روضته الأقدار بعد
الجموح ، وفرضت عليه أن يلتفت ذات اليمين وذات الشمال . فأصبح

• « ما كتب شيئاً في المساء يتركه (بلا صريخ) لتسهل مراجعته في الصباح :
• « ولتبقى الفرصة للحذف منه أو الإضافة إليه » • ويعمل ذلك بقوله :
• من المؤكد أن للرأي موجات تختلف باختلاف الأوقات • نتد تكرر في
• بيض الصباح بعض ما كتب في سواد الليل » •

• ولكنه يرى أن ذلك من المزعج • إذ لا قيمة للحياة الأدبية ، إذا حلت
• من المخطر وشهك والحتوف • فهو يؤمن بأن الكاتب لا يعد فرساً ، إلا
• إذا استطاع بكل سطر أو بكل حرف أن يعرض قراءه إلى الاشتباك في
• حروب مع المعنى والآراء والآهواء (١) • »

• وهو يؤكد في كل خطوط صدق جرده إلى معاطب زمهاللت لا يصير
• على محررتها ومؤذياتها إلا من دنى مثل إيمانه • وقد صبر حتى
• اتهمه الغائلون بالبلادة والجمود • « لانهم لم يعرفوا أن دنيا الأدب فيها
• مبادئ تروض أهلها على الترحيب بسكارد القمأ والجوع » •
• ويقول « الصديق في الدنيا غريب • وأنا في الدنيا غريب » •

• وبلغ به الجرأة إلى أبعد حده ، حين يقول :
• « أنا أؤمن بأنه لا يمكن لأحد أن يكون كاتب مسمى إلا إذا استطاع أن
• يكون (أصدت) مسمى • • ومن مستحيل أن يكون في الدنيا أحد أصدق
• مسمى » •

• ويؤكد أن غايته في حمل رسالة القلم ليست هي الانتفاع المادي
• « ولو كان غايته هي الانتفاع المادي لسلكت سبيلاً غير هذا السبيل
• فلأفلام ميادين تعمل بأصحابها إلى الشراء العريض • • »
• وهو يلح في تصوير هذا المعنى ويوغل فيه ، فيقول :

• « يجب أن يخرج الكاتب الأخير من الميدان • فما يكون الرجل
• كاتباً إلا إذا شعر بأنه يؤيد بقوة روحانية تعصمه أحلاف الزور والبهتان •

فمن هؤلاء الذين يحملون الأقلام وليسوا الحسله بأهل لأنهم عبيد لاميدهم
من القراء ، ولأنهم زعمون ان القلم وسيله من وسائل المنع لـ « رخيص » .
ويرى زكي مبارك أن الخطر في انحراف الكذب عن رسالتهم الاتجاد
الى تسليه الجماهير فان ذلك يؤدي الى خطر كبير بالنسبة للأدب ، فيصبح
على شفا الهاوية يقول :

« ان الأدب في عصر على شفا الهاوية ، لأن الأدباء يستوحون قراءهم
وتلك علامة الغماتة والهزال . قد يقبل هذا الحل من الكذب الذين يشغلون
بتسليه الجماهير ليأخذوا أموالهم ، كما يأخذها الخوى في مساحات
(الموالد) فما عذر الكتاب الذين أعدتهم مواهبهم ليكونوا هداة صادقين .
كنت أنتظر أن يكون للأدب قوة السيطرة على المجتمع . فـلمجتمع مريض
ونحن الأطباء » .

وزكي مبارك يؤمن بأن على الكاتب أن يعدل آراءه وبطورها مع
الزمن بحيث لا تجمد ولا تبدل ولا تتعارض مع الحصة في خطوها الى الامام
ويرى أنه ليس في ذلك عار أو خطأ .

يقول : « يجب أن تنظر الى آرائك كما ينظر الى أبوابك » فلآراء
تبلى كما تبلى الأبواب . والذي يعيش على رأى واحد ، قد يكون أجهل من
الذى يعيش بثوب واحد . فاحذر من العيش وأنت على الآراء . وقد يعيرك
الغافلون بالتنقل من رأى الى رأى ، مع أنهم لا يعبرون من يلبس ثوبا بعد
ثوب . وانما كان ذلك لأنهم يظنون أن الآراء من صـور الحيوية .
ولأنهم يتوهمون أن الثبات على الرأى الواحد من شواهد التقين . ولو عقلوا
لأدركوا أن العين التى تنظر بأسلوب واحد هى عين بليدة لاتدرك الفروق
بين دقائق المراتب . وكذلك يكون العقل البليد . وهو الذى لا يدرك
المفروق بين المعنويات والمقولات .

الأمر الهام أن تكون أنت أنت ، فى تحولك وقرارك . فلا ينبغي أن
تكون أداة للتعبير عن أوهام زمانك وبلادك . أو أن تكون ظلا لعظيم من
العظماء أو حزب من الأحزاب .

ويذهب زكى مبارك في أن رسالة القلم البليغ هي رسالة مهولة
« يطيب في سبيلها الاستشهاد ، ويرحب في سبيلها بجميع الآلام » • ويقرر
بأن هذا الايمان هو الذى جعل تلاميذه يتقدمون في الميادين الرسمية •
وتخلف • وهذا هو ثمن الاعتزاز بدولة البيان •

ويرى زكى مبارك كذلك أن الكاتب ليس أجيرا للوطن ولا للمجتمع
وهو مطلق الحرية في جميع الشئون • وان التعبير عن آلام المجتمع وآماله
لا يكون أدبا الا اذا صدر عن الكاتب عن ايمان صادق •
وعنده أن منهاج الذاتية الأدبية يتطلب أن يحرر الكاتب عقله وروحه
وقلبه من جميع الأوهام والأباطيل والأضاليل • فينظر الى جميع الأشياء
والمعاني نظرة استقلالية منزهة عن الخضوع لنظرات من سبقوه ، ولو
كانوا من أعظم الرجال •

ويرى أن على الكاتب البليغ أن يوطن نفسه على الغربة الأبدية • ولو
كان في داره وبين أهله - فالفكرون في جميع العصور غرباء - وبذلك
لا يكون له ظهير غير قلمه ولا نصير غير روحه •

أسلوبه ومنهجه في البحث

يعكس أسلوب « زكى مبارك » شخصيته وعاطفته الملتزمة الحادة ،
ونفسيته الصريحة التي تأبى المداواة أو اصطناع النفاق • ومن خصائصه
الاستطراد والقفز من فكرة الى فكرة ، والاسهاب المتنوع الذى يخدم الفكرة
وميله الى النمو الموروث من التأليف ، وغلبة النزعة الوجدانية والطلاقة ،
ووضوح العبارة مع أصالة المفردات •

وقد تنوع انتاجه ، فكتب في النقد والبحث والمقالة وأحاديث الوجدان
والعاطفة • وهو يقول في هذا « أنا أعيش كما يعيش أميل فاجيه • فأنا
أكتب في كل يوم وفي كل ليلة ، وتحت يدي عشرات من المقالات وعشرات
من القصائد • »

وقد ترك لذلك انتاجا ضخما لم يجمع في مؤلفات • فقد أمضى
سنوات طويلة يكتب الفصول الإضافية في « البلاغ » و « الرسالة » •

عرف أسلوب مبارك بالبساطة فى التعبير ، والبلاغة فى الأداء ،
والفكاهة الحلوة • ولم يخل هذا الانتاج الضخم من هنات وسخافات ،
ربما كان مرجعها انه يكتب فى كل أسبوع ، فى موعد محدود ، مفروض
بحكم صدور الصحيفة ، وربما كان مرة منحرف المزاج أو مكدودا •

وزكى مبارك بطبيعته صحفى مجادل قوى الشكيمة جرىء فى الحق ،
أو فيما يعتقد حقا • يغلب عليه اللون الوجدانى ، مع الرصانة والطلاوة •
وأسلوبه حى ينبض بالحياة ، وان كان يدور حول النفس •

يقول : « أنا أعتقد بلا زهو ولا كبرياء أنى وصلت باللغة العربية الى
ماكانت تطمح اليه من « البيان » •

أنا أعتقد بلا استطالة ولا تزيد أنى خلقت عذوبة الأسلوب فى اللغة
العربية وقد صار البيان عندى طبيعة أصيلة لا يعترىها تكلف ولا افتعال •
وما أذكر أنى عرفت التسويد والتبيض فيما ألفت من الكتب أو نشرت من
المقالات ، بعد زمن التمرين الذى سبق سنة ١٩١٦ •

وما أعرف بالضبط ما خصائص أسلوبى : لأننى أصدر فيه عن السجبة
والطبع ، ولكنى أعرف بالتأكيد أن الذى يقرأ مؤلفاتى ومقالاتى يشعر بأنه
يرى الحياة وجها لوجه • ويشهد صراع الأحلام والأوهام والآراء والأهواء
والحقائق والأباطيل • •

وزكى مبارك يصدق فى جانب كبير مما أورده فى هذه العبارات •
ويركز زكى مبارك مهمته فى البحث على العقل واقامة البرهان قبل
تلمس النزوات والتوفيق بين المعقول والمنقول • يقول :

« وأنا أمثل المدرسة التى تحكم العقل فى كل شئ • وتفرض على
الباحث ان ينقد أولا المصادر التى يعتمد عليها وتروضه على ادراك الفروق
بين الأدواق والأحاسيس فى مختلف العصور الادبية •

وفى يقينى أننى سأحول النقد الأدبى فى مصر تحولا جديا ، وسأعلم
القراء كيف يبحثون عن الحجج والبراهين ، قبل أن يغرموا بتلمس

النزوات الصغيرة ، التي يلقي بها الكذب هنا وهناك ، وهم يتجادلون ويتحاورون • وأنا أمثل المدرسة التي توفق بين المعقول والمنقول ، وتفرض على أنصارها أن يروضوا أذهانهم على فهم الواقع ، وترك ما درج عليه بعض المحافظين من التعلق بالأوهام » •

وفي عرض التراجم الذاتية يرى زكي مبارك أن هناك طريقتين لذلك •

فإن كان الغرض هو حث السبب على الافادة من أدب يترجم له كن من الأنسب أن نجسم المحسن ونغضى عن العيوب • وإذا كان الغرض درس الطبيعة الانسانية وبيان استعدادها لاحول القوة والضعف ، كان من الأوفق ان نعرض لسير المشهورين ، بتفصيل ما مر بهم من امارات التحليق والاسفاف •

كما يرى أن تمثل من تترجم لهم كأنهم أحياء • فنفرض أنهم يملكون حق العتب والملام : « فإن كان المترجم له رجلا عرف في حياته بقسوة المراس والاستهانة بالقليل والقل ، صح لنا أن نكتب عنه ، في طلاقة وحرية •• وإن كان رجلا عرف في حياته بالتحرز من المعارك الأدبية ، وجب أن نكتب عنه في لطف ورفق ، كأنه حي يؤذيه الهجوم » •

وهو يعلن أنه لاصحة ما شاع عنه افك وبهتان بالولع بالغض من أقدار الناس • ويقول : « أقسم أنني لا أهجم على رجل الا بعد أن أدرس مقاتله دراسة جدية لاتحماها عند النضال ، فلبس من المروءة ولا من الشرف أن يسخر القلم وهو نعمة من الله علينا فيما لا يليق بالأدب الصحيح (١) » •

وقد اتهم زكي مبارك بدأوة الطبع في السجال والمناقشة • وقد دافع عن نفسه • فقال « ان بدأوة الطبع التي كثر الكلام في ذمها وتجريحها لم يكن من المثالب الا في كلام الشعربة • وهم قسوم أرادوا الغض من الشمالي العربية • ولولا ذلك الهجوم الأثيم لبقت من المحامد • فكيف ينكر على رجل مثلي ، ظل بدوى الطبع ، في زمن توارث فيه الصراحة ، وكثر فيه تنميق الأحاديث ؟! » •

(١) البلاغ - ٢٦ من أكتوبر سنة ١٩٣٤

وقد حول زكى مبارك أن يبرر في أكثر من موضع بعده عن ميدان
القصة : يقول . . . اننى لم أكتب فى حياتى غير قصتين : قصة قصيرة ،
وهى فى صدر كتاب « الأسمار والأحاديث » . وقصة طويلة ، هى قصة
« لىلى المريضة فى اعراى » ، والقصتان مأخوذتان من الواقع لا من الخيال .
ومن رأى أنه لا يجوز للكاتب أن يعيق فطرته ، فيكتب فيما لا يحسن
من المنون . وأنا مطّور على النقد الأدبى . وقد تفوّقت فيه . فمن الواجب
أن أقصر جهودى كلها عليه .

ومن الصعب أن أناقش الأستاذ توفيق الحكيم فى القصص ، ومن
الصعب على الأستاذ الحكيم أن يناقشنى فى النقد الأدبى . فلكل رجل
منا ميدان . . .

وقد سجل زكى مبارك رأيه فى القصة عام ١٩٣٧ . فقال : القصة
فى مصر مطية من لا يعرف . وعوام الناشئين يؤكدون أنها فن جديد .
وهم يرددون أن القصة قد توجب التحلل من القواعد النحوية والانشائية ،
ولا يصلح لها غير المفتعل من الأساليب . وأكثر ما نراه من الأفاقيص
العصرية ليس الا انتهاء من القصص الصغيرة التى تباع فى (محطات)
أوروبا لينتهى بها المسافرون « . ان الكاتب الأوروبى لا ينشئ قصة الا بعد أن
يدرس آراء المفكرين فى القديم والحديث ، وبعد أن ينظر فى مشكلات
عصره نظرة الباحث المتعمق ، فيعرف ما يحيط به من المضلات الذوقية
والاجتماعية والاقتصادية ، فيكون لقصته مغزى مأخوذاً من أزمات النفوس
والقلوب (١) . . .

ويسجل زكى مبارك فى أكثر من مناسبة ، أنه مولع بدرس سرائر
النفس الانسانية . وهذا المعنى هو الذى حملته على الصراحة فيما يسجل
ويفيد من الأفكار والمعانى . ويخشى أن يكون ضحية للدراسات
الفلسفية . ولا يغريه الا شئ واحد ، هو الشعور بأنه أنقذ الأدب العربى
من كابوس الرياء والنفاق .

ولعل أبلغ ما أخذ عن الدكتور زكي مبارك في منهجه في البحث
« الحديث عن النفس » . فقد كان موضع التقدير حتى قال عنه المازني :
« لو أخذ زكي مبارك كتابته من الحديث عن زكي مبارك لكان أحسن مما
هو الآن » . وقال طه حسين : « إن أكرم أدب زكي مبارك في الحديث
عن زكي مبارك » .

وقد دافع زكي مبارك عن نفسه في كلمة وجهها الى المازني .
فقال (١) :

« ماذا تنكر من حديثي عن نفسي ؟ .. هل كان أدبك يا صديقي
المازني إلا دورانا حول نفسك ؟ .. وهل كتب العقاد مقالا أقوى من مقاله
عن الأزمة التي صاوت روحه يوم اختلال العلمين ؟ وهل كتب الدكتور طه
أقوى مما كتب في الحديث عن طفولته وصباه ؟

إن تصوير هموم النفوس وما يحيط بها من مخاوف وآمال ، هو
أدب صحيح جعلته الكتب السماوية من شمائل الأنبياء .

وهل يمكن أن اتعرف الى الوجود قبل أن أتعرف الى نفسي ؟
وهل كانت روائع الأدب في جميع الأمم إلا أحاديث نفسية ؟ ألم
تكن أصالته في التعبير عن المخاوف الروحية ؟ وهل كانت أكثر القصائد
الخيالية إلا إفصاحا عن عواطف ذاتية ؟

قال ديكارت : « أنا أفكر . فأنا اذن موجود » .

ومن معاني هذه العبارة أن الشعور بالنفس هو أساس الشعور
بالوجود .

ثم أشار زكي مبارك الى الثناء على النفس ، ذلك الذي يقع فيه من حين
الى حين . فقال : « هل جال في خاطرك أن تبحث عن السر في هذه
النزعة النفسية ؟ ، لو أنك فعلت ، لعرفت أنني لا أكبر الامتجديا . والتحدى
نزعة طبيعية تطوف بالنفس حين تفكر في دفع الجمود والعقوق » .

(١) الرسالة : ٢٦ من أكتوبر سنة ١٩٤٧

وجملة القولى : ان أسلوب زكى مبارك هو مزاج من الأسلوب العربى القديم ، والأسلوب الغربى الحديث : فقد حفظ زكى مبارك القرآن فى مطلع حياته . وحفظ خمسة آلاف بيت من الشعر . وقرأ أمهات الكتب العربيه ، ثم اتصل بأدب الغرب ، فقرأ فى الأدب الفرنسى أساليب جديدة ، ومعانى متجددة ، كانت بعيدة الأثر فى أسلوبه وتفكيره واتجاهاته .

ولعل حرية فكره واندفاعه تغرى الى الاتجاه العرسى فى التفكير . كما أن اصرار مبارك على الجدال ، وإيغاله ، يعزى الى ثقافته الأزهرية . أما دعوته الى الحرية ، ومقاومة التدليس ، وتحطيم تقليد التفكير القديم ، فإن لهذا صلة بالفكر الغربى ، الى حد ما . وله صلات بما قام فى نفس زكى مبارك من كراهية للأزهريين الذين ناووه اصدار كتابه « الأخلاق عند الغزالى » .

ولا شك أن « زكى مبارك » قد أخذ الطريق الذى سار فيه طه حسين ، وأغرم مثله بالرأى الغربى والنتير . وكما حاول طه حسين أن يكسب الشهرة فى صدر شبابه ، بآراء مثيرة ، عن المنفلوطى ، والمعري ، وحديث الأربعاء ، والشعر الجاهلى ، فقد اندفع مبارك الى مهاجمة الغزالى فى آرائه ، واتهامه بالجمود . ولكن زكى مبارك يمتاز فى هذا الاتجاه بأنه لم يلبث أن عاد الى الحق ، واعدد للمغزالى ، وصحح آراءه فيه ، فى كتاب « التصوف الاسلامى » . ولكن زكى مبارك عاش حياته كلها ، راغباً فى الامارة ، مندفعاً نحو القول الجديد الجرىء ، الذى يهز ، ويدوى ، ويحدث الضجيج .

وجدانيات مباركة

هذا بحر لاساحل له في أدب مبارك • ولو شئت أن نضيف كل
أدب زكي مبارك الى الأدب الوجداني ، لما كان ذلك غريبا • فقد عاش
مبارك بعاطفته • حتى أبعائه العملية اتسمت بالعاطفة • ولما كان زكي مبارك
شاعرا بطبيعته فان العاطفة تصبغ كل فنون ادبه • ولقد اتجه الى الوجدانيات
في سنواته الأخيرة • وكاد أن يقف أدبه على فن الكتابة الذاتية
والوجدانيات •

رجميع مراحل حياته تبين عمق هذا الاتجاه • فهو في مسهله
حياته الفكرية ، اتجه الى دراسة شعر ، عرف بعمق اتجاهاته الوجدانية ،
هو عمر بن أبي ربيعة • فقد ألقى محاضراته الاولى في الجامعة المصرية
عن (حب ابن ابي ربيعة وشعره) ثم لم يلبث أن شغل نفسه بدراسة
شعر الحب في الأدب العربي القديم في حلقات أطلق عليها « مدام
العشاق » •

وكانت دراساته للنثر الفني والتصوف الاسلامي متصلة أشد الاتصال
بالأدب الوجداني • وقد سجل مبارك في مقدمة كتابه عن النثر الفني ،
ان الأستاذة في جامعة باريس عابوا على كتابه ، « غلبة النزعة الوجدانية » •
وقد اعتذر عنه مسيو ماسنيون يوم أداء الامتحان في السربون ، فذكر أنه
شاعر • والشعراء لا يستطيعون الفرار من نزوات الوجدان •

ولكن زكي مبارك اتجه فيما بعد الى خلق مذهب في الكتابة الوجدانية
قوامه الأدب الصريح • وقد برز هذا الاتجاه واضحا بعد سفره الى بغداد
وكتابه فصول كتابه الضخم « ليل المريضة في العراق » بأجزائه الثلاثة ،
وهي عبارة عن يوميات وجدانية بدأ في تدوينها في أغسطس سنة ١٩٣٧ ،
وانتهى منها في مارس سنة ١٩٣٩ • وبذلك يكون قد شغل نفسه بهذا
الحديث سبعة عشر شهرا ويزيد •

وقد أراد أن يكتب قصة رحلته الى العراق « في أسلوب وجداني »
فجعل أساس الفكرة بيتا من الشعر هو :

يقولون ليلى فى العراق مريضة فياليتنى كنت الطبيب المداويا

وقد رمز مبارك للعراق بليلي • وجعل نفسه « الطبيب المداويا » ،
وأراد أن يصور قصة هذا الجزء من الوطن العربى • وقد أصابته
المتاعب والأوصاب ، نتيجة لظروف الاستعمار التى منى بها ••

تم استطراد الكاتب ، فأخذ يكتب يوميات رحلته وزياراته لمسند
العراق • ويستطرد ، فيتحدث عن مقابلاته ووفاءاته وأفكاره •

وفى خلال هذه الرحلة الطويلة كشف زكى مبارك عن نفسه ،
وحياته وأفكاره ومشاعره ، بصورة جريئة • وقد استهل مبارك كتابه
بكلمات وجهها الى الدكتور محمد حسين هيدل • أشار فيها الى كلمة
جاءت فى كتبه (نوره الادب) قال فيها « ان هناك آفا من المعانى يتحاماها
كتاب العصر الحديث ، وقال انه سيشق هذا الطريق • ويكرر ، عن سينات
اولئك الكتاب ، فيتحمل المشاق فى ارتياد تلك المنجاهيل • قال : « وقد
اقتحمت تلك الآفاق بلا زاد ولا ماء • وأنا أعرف أنى أعرض سمعتى
للأفاويل والأراجيف • لأن الناس عندما لا يفهمون كيف يدخل الطبيب
على نفسه ، ليشرح على حسابها أهواء النفوس والقلوب والعقول • اقتحمت
تلك المهالك ، وليس لى الا سناد واحد ، هو الشعور بأنى أودى خدمة
للأدب والطب • وهل يخدم الأدب والطب أفضل من التغفل فى تشريح
النزعات والأهواء ؟ »

وقد أحب فى أكثر من مناسبة أن يصور هذا المذهب ، ويكشف عن
جوانبه يقول :

« عز على ، أن يقال ان شعراء أوربا قد تمردوا باجادة القول فى
الوجدانيات ، فألفت كتاب (مدامع العشاق) ، ليكون شاهدا على سبق
العبقريه العربيه الى شرح مآسى الأرواح والقلوب • وسأنى أن يقال
ان « راسين » هو أعظم من شرح عاطفة الحب • فألفت كتاب « ليلي المريضة
فى العراق » لأقيم الدليل على أن فى كتاب اللغة العربيه من يتفوقون أظفر
التفوق على راسين • »

كما اشار الى أنه سلك في هذه البوصيات (ليلي المريضة) مسلك الرمز والايماء ، ومسلك الغمز والتجريح . ورأى أن الأدب يوجب أن يرى الأديب جميع الأشياء ، وأن يعرف جميع الناس . « فانا أشرب المر من عصير الحياة . لاحيلة الى شراب سائق للشاربين » .

وهو في سبيل هذه الغاية التي آمن بها ، نسلل الى كل بيثة ، وتغلغل في كل مجتمع . لماذا ؟ . « لأرى كيف يعيش الحيوان الناطق الذي يرى نفسه سيد المخلوقات ، وهي دعوى أعرض من الصحراء » . وهو يؤمن بأن الأديب أحوج الرجال الى اختلاجات العواطف والافكار والاحاسيس ، ولا يتم ذلك الا اذا استطاع معاشره الناس من جميع الاجناس . والأدب عنده كالفن : « يجب أن يسمو عن الأوضاع والتقاليد ، حتى لا يفتر ويضوى بوضعه تحت رحمة المتزمتين من رجال الدين ورعاية المتخرجين من دعاة الاخلاق » .

ولا شك أن « زكى مبارك » في اتجاهه هذا يبدو جريئاً غاية الجراءة ولقد سبق أن هوجم من أجل هذا الاتجاه ، حينما أصدر كتابه « مدام العشاق » ذلك الذي قال عنه طه حسين في نقده الذي نشرته جريدة السياسة ، وضمته مجموعته « حديث الأربعاء » في الجزء الثالث : « ان كتاب مدام العشاق يحرض على الشهوات . ومعنى هذا أن « زكى مبارك » من أنصار الادب المكشوف » .

انه يقول في مقدمة كتابه « حب ابن ابي ربيعة وشعره » ، ما نصه : « الأدب كالفن يجب أن يسمو عن الأوضاع والتقاليد ، حتى لا يفتر ويضوى بوضعه تحت رحمة المتزمتين من رجال الدين ، ورعاية المتخرجين من دعاة الاخلاق . والأدب المستور انما يفشى بالحجب المحلية التي لا تدرى أتبقى سائغة مقبولة أم يمدو عليها البدع المستطرف ، فيلقى بها في مهاوى الخمول » .

ولكن زكى مبارك عاد الى تناول هذا الموضوع في كتابه « ليلي المريضة » فقال : « ما أردت به الا الصدق في تصوير العواطف والأهواء » .

ليكون فى ذلك مادة تنفع فى دراسة علم النفس ، ومن المستحيل أن أريد الدعوة الى الفجور والمجون • لأننى بحكم أعمالى الرسمية من رجال التربية ، ولأننى رجل متأهل ولى أبناء •• قد يكون فى القراء من يخشى عليه أنى ادعو الى مبادئ خلقية سامية أغشيها بالفتون ، كما يصنع الطبيب فى تفشسه « البرشامة » المرة بغشاء من الحلواء •• »

ويرجع مبرك اتجاهه الى دراسة النفس الانسانية الى غرامه بالأدب الفرنسى منذ سنة ١٩١٥ : « فراعى أن أراه يتحدث عن أزمت القلوب والنفس والعقول ، بأساليب لا أجد لها نظائر فى الادب العربى • فقررت أن أرجع الى نفسى لأقتش عما فيها من أسرار وغرائب واعاجيب لعل أن أمد الأدب العربى بذخيرة جديدة من ذخائر النفس والقلوب • ومضيت فدرست طوائف من الفرائز والطباع والميول لأستطيع تأريخ النفس الانسانية فى العصر الحديث • وقد جمعت من ذلك كله محصولا يعز على من رأس ويطول • ثم هالنى أن أرى الناس ينظرون الى ، نظرات الريبة والاحتراس •• »

وقد رأى مبارك أن الأدب العربى أصبح على شفا الهاوية ، بفضل شيوع التدليس فى تصوير العواطف والفرائز والطباع • من أجل هذا كله ، عمد زكى مبارك الى كتابة هذا اللون من الوجدانيات • ولقد صور زكى مبارك « الحب » فى كتاباته • وكان رأيه جريث كظرائمه الى الوجدانيات •

• ان حديثى عن الحب صار مذهبا أدبيا ، أشرح به ما يتعرض له الناس فى ميادين التوازع والأهواء • وأنا أريد أن أخلق جوا من البشاشة ادفع به ظلمات الزمان •

نحن لا نبتكر الكلام عن الحب ، فهو عاطفة عرفتها الأرواح منه أقدم عهود الوجود • وما قيمة الدنيا اذا خلت من الحب • وهل ينصرف القلب عن الحب وهو فى غافية ؟ ••

الحب لا يفزو الا قلوب الأصحاء • وهو يساور قلوب الجنود ، فى

أصعب أوقات الحروب • والعجندى الفارغ القلب من عاطفة الحب لا يصلح أبداً للاستشهاد في سبيل الوطن الغلى ، لأن الوطن لا يغلو الا في صدور أرباب القلوب • الحب جده جد • وهزله جد • ولا يتجاهل هذه العاطفة الا الغافلون عن تأثيرها الحسن أو السيئ ، في تكوين الوجود •
وبأى حق يخلو أدب من تشريح عاطفة الحب •

ان التوفى الذى يصطبغه بعض الناس ، فضى على عصرنا بالحرمات من البشاشة والأريحية ، وقطع ما بيننا وبين ماضينا المجيد ، يوم كان لنا شعراء لا يعترفون بغير أوتار القلوب •

واين نحن من العصر الذى عس فيه عمر بن أبى ربيعة • والعصر الذى عاش فيه العباس بن الأحنف • أو العصر الذى عاش فيه الشريف الرضى ؟ ••

كان أسلافنا أصحاب • فكأن عصورهم تجمع بين أشرف صنوف الهداية وأعنف ضروب الضلال • وكان الرجل الديان لا يتورع عن رواية أظرف قصائد الغزل والتشبيب •

فى مساجدهم روي طرائف الأشعار ، ونوقشت مذاهب الزيج ، بلا تحامل ولا اسراف وفى بيوت أتقيانهم دونت أوهام القلوب والعقول •
فأنا أتحدث عن الحب بصمه جديده ، واعتب احبده وآثاره فى كل ما أرى واسمع •

ان سكنا عن تشريح عاطفه الحب فمن يتحدث عنها ونحن ندعى النيابة عن الجمهور فى تشريح التوازع والأهواء ؟ نحن نريد أن نشف الناس بأخلاقهم وأذواقهم وأوهامهم • نريد أن نسيطر عليهم بالأدب والعقل ، بعد أن سيطر عليهم السياسيون بالمناوشات الحزبية ، نحن نفكر فى خلق عصية أدبية • ولن نصل الى ذلك الا يوم يؤمن الجمهور بأن الأدب هو الترجمان الصادق لشهوات العقول وللعقول شهوات أعنف وأخطر من شهوات الأحاسيس ، وتثقيف الشهوات العقلية يصل بنا الى منازل الحكماء ويطمئنا فى الخلود • (١)

(١) مجلة الرسالة : مقال « تشريح عاطفة الحب » ١٩ من فبراير سنة ١٩٤٠ .

وقد سئل زكي مبارك الناس بالحديث عن « ليلي » . فمن هي بلي؟ ولماذا شغل بها ؟ اعتقد أن « زكي مبارك » عندما درس الصوفية واوغل فيها أعجبه تصوير الصوفية للحب الالهي ورمزهم به بليلى . لذلك فكر هو في أن يحول هذا الرمز ناحية اخرى ، على النحو الذي هداه اليه تفكيره في البحث عن سرائر النفس الانسانية . غير انه حين يتحدث عن السر في كتابته عن « ليلي » يقول انه انما فكر في اغناء الأدب العربي بألوان من الصور الشعرية ، التي تصور عذاب الأرواح والقلوب . وأنه لم يكن سييء القصد فيما صنع . وانما أحب أن يقيم في علم الأدب العربي دولة للقلوب والأحاسيس . يقول : « كنت أحب أن يشعر شبابتنا بأن لغتهم مازالت غنية ، وأن فيها كتابا وشعراء يعرفون مواسم القلوب » .

ولكنه يحس بأن هذا العمل الخطير الذي أقدم عليه لم يكن جزاؤه كما ينبغي : « كنت كالطبيب الذي يحمل المشرط ليدأوى جرحاء . فينقل اليه المشرط جراثيم الهلاك » .

ولكن زكي مبارك يؤكد أنه حرر يومياته عن ليلي المريضة من جميع القيود والاعلال . وقال انه ليس له من الجمال الا مأرب واحد :

« هو درس الطبائع والفرائز والميول لأخرج من دنت بمحصلو فلسفي ، قد ينفع بعض النفع في اذكاء الدراسات الادبية والفلسمية » .

ومن بين آثار زكي مبارك الوجدانية ، ما أطلق عليه « رسائل مجنون سعد » تلك التي نشرها في مجلة الصباح عام ١٩٣٩ بقلم « الدكتور بديع الزمان » وهي مجموعة رسائل غرامية تحدث مبارك عن ظروف كتابتها . فقال :

« هناك كتاب لم يسبق له مثل ولا نظير ، وهو « رسائل مجنون سعد » تلك التي أنشأها الدكتور بديع الزمان . أما ذلك الدكتور - وأنا ذلك المجنون - وأنا ذلك البديع ، فقد كانت تلك الرسائل ترسل بطريقة سرية الى صاحب الصباح ، لأنني كنت من أكابر المفتشين بوزارة المعارف ولا يجوز لرجل من أكابر المفتشين أن يتحدث عن الحب والجمال .

بدأت تلك الرسائل في بغداد . ولم تكن الموجية ليلي البغدادية .
وانما كانت ليلي قاهرية . رمت سهمها فأصغني ، وأنا في بغداد . لقد
اعتصرت فؤادي وأودعته تلك الرسائل .

ومما يتصل بهذا ما بدأ ينشره من رسائل قديمة ، موغل بعضها
في القدم ، فقد كتب في يونية سنة ١٩٤٢ في الرسالة مقالاً عنوانه (الخطاب
الذي احترق بسعير الأنفاس) .. يقول فيه :

« هو خطاب تلقينته من فلانة في سنة ١٩١٩ . فما صبر القلب على
غرام مشبوب ، يدوم ثلاثة وعشرين عاماً . وهي كآلف سنة مما تعدون ،
كان الدهر قد سمح في غفلة من غفلاته بأن ألقاها بعد طول الفراق
ثم استيقظ الدهر ، فعرفت ما لم أكن أعرف . عرفت أنني لن ألقاها بعد
ذلك ، ولو انتظرت الى أن تشيب ناصية الزمان .

فمن يبينني مثقالاً من الصبر الجميل عساني أتناسي أحزاني
وأشجاني ؟ »

وعندى أن اتجه زكى مبارك هذا الى الوجدانيات ، واسرافه فيها ،
يتصل بأزمته الأخيرة التي سنفصلها فيما بعد ، فقد أحس بأنه قد بلغ
الغاية . قدم ثلاث اجازات من الدكتوراه ، ومع ذلك فانه لم يجد مكانه ،
ولم يلق قدره ، لا في ورادة المعارف ، ولا الجامعة ، ولا ميدان الأدب
والصحافة . هنالك حاول أن يحدث ضجيجاً قوياً وصريراً مزعجاً . فكان
أوج قوة شخصيته ، لاعتبرت مصدر أزمته الأخيرة .

ومما يتصل بهذا رأى زكى مبارك في المرأة . فقد كان من الغريب
أن الذي تحدث عن الحب طويلاً ، وجرد نفسه للوجدانيات ، قد كون
رأياً في المرأة . ولكنه رأى جائز ، فقد حمل على المرأة حملة شعواء
... ولولا أن هذه الآراء كتبها عام ١٩٣٨ ، وهو في بغداد ، وهو في
أوج قوة شخصيته ، لاعتبرت مصدرها أزمته الأخيرة .

وقد أثار هذه الآراء في امانها ثورة ضخمة .. وان كان قد أخذ
بوجهة نظره كثيرون .

وهي تعطي صورة التناقض بين شخصيته ، حتى ان التأمل ليدعش .
كيف أن زكي مبارك الذي صور الحب العنيف القاهر لـ « ليلى » في كتابه
هذا ، يذكر المرأة على هذا النحو •

وعندى أن « زكي مبارك » قد كتبها تحت ضغط ظروف غدر أو
هجر • وهذه جملة آرائه :

• قضيت أكثر من عشرين سنة في الدراسات الفلسفية • فالمرأة
الرفيعة القلب لا تؤنسني الا قليلا • لأن عقلي أكبر من قلبي • وأنا أشتي
المرأة اللبيمة التي يكون غرامى بها فرصة لدراسة القلوب والنفوس
والعقول •

• انتهيت من التجارب الى أن المرأة للرجل عدو بين • المرأة مخلوق
جميل • ولكنه سخي • لأنها تجهل ما فطرت عليه من الضعف • وهي
لا تسيطر ولا تستطيل الا على كرام الرجال • والرجل الكريم يراعى
عواطف المرأة بفضل ما فطر عليه من الهيام بالجمال والرفق بالضعفاء •
ونكها تجهل ذلك وتظن انه لا يوادعها الا بفضل ما تملك من السحر
والجاذبية • وفي المرأة سحر وجاذبية ، وان كانت شوهاء ، لأنها باب الى
الفضائل •

• المرأة تملك أصول الشهوات ، وهي باب الدمار والخذلان •
وما أطاع رجل امرأته ، الا ذل وهان • وأعظم ميزة لنبي الاسلام هي دعونه
الى الحذر من النساء •

• ليس لى ما أشكوه من المرأة غير غلوها في الغيرة ، فهي تخاف
من جميع الهواجس وجميع الظنون • والمرأة لا تفهم أن الحياة تفرض
على الرجل أن يتحول من شأن الى شئون ، ليصل الى فهم المجتمع الذي
يرأوحوه ويفاديه في سبيل الرزق أو في سبيل المجد •

• المرأة هي الجحيم الذي تتمرن به على الاقامة في سفر ، وهي
البلاء الذي يجبه الله على رؤوس العباد • هي الشقاء المعجل ، والكراب
الذي يسبق الموت • والمرأة في جميع أحوالها مصدر فساد • وهي التي

تفرق بين الابن وأبيه والأخ وأخيه • ولها مداخل الى الفتنة يعجز عنها
ابليس •

• ومع أن الرجل يعز المرأة بفناء ، فهي تستريب من ظمره بالغنى
والعافية ، لأنها ترى في ذلك بابا لتطلعه الى سواها من النساء وما في الأرض
عدو الا وهو خليف بأن يتعامى عن بعض عيوبك الا المرأة • فهي وحدها
العدو الذى لا يغفر ولا يصفح •

زادها الله ذلة الى ذلة وضعف الى ضعف •

• المرأة تؤثر في حياة العظماء بلا جدال • لأنها توقظ فيهم غريزة
المخالطة والنفاق والرياء • وهى فضائل يعدها الغافلون من العيوب • بفضل
المرأة عرفنا كيف نصانع ونجامل ونراوغ • بفضل المرأة راضتنا المقادير
على الصبر الجميل •

آراء زكى مبارك

مناصب اللغة العربية والقومية العربية في مصر
ألفه زكى مبارك

لزكى مبارك جوانب متعددة فى العمل الأدبى ، الذى تخصص فيه كان أبرز هذه الجوانب دراسته للأدب العربى • ثم دراسته للتصوف الإسلامى • وله آراؤه فى النقد والشعر والقرآن والمرأة •

ولكن هذا الجانب من زكى مبارك هو اعمى جوانبه أو يمثل أصدى آرائه ، ويرسم حقيقة اتجاهه وجوهر فكره •

فقد كان زكى مبارك صادق الإيمان بالقومية العربية عيورا على اللغة العربية وبالرغم من انه سافر الى أوروبا وتأثر كثيرا بالثقافة الفرنسية والآراء الغربية فى أسلوب البحث وطريقة التفكير • الا أنه ظل من هذه الناحية صادق الإيمان بالعربية والعرب ، لم ينحرف ولم يتردد فى رد كل من يحاول أن ينال من أمجاد الفكر العربى أو اللغة العربية • وقد كان ذلك غريبا فى نظر كثير من الناس الذين كانوا يظنون أن « مبارك » قد يحمل الأمانة للفكر العربى ، كما حملها من قبل عدد من الكتاب الذين تأثروا بالفكر الفرنسى ، وجعلوا أمانتهم له أكبر من أمانتهم لأمتهم العربية ، وأوغلوا فى الدعوة الى العامة أو الفرعونية أو ثقافة البحر المتوسط •

وقد سجل ذلك فى مقدمة ديوانه « ألحان الخلود : » ، فقل « حين رجعت الى القاهرة (مارس - ١٩٣١) أخذت أشرف فى جريدة البلاغ مقالات عن ذخائر الأدب العربى • ولكن الدكتور ابراهيم ناجى ضاق صدره بتلك المقالات • فقد كان ينتظر أن أكتب مقالات عن الأدب الفرنسى »

لهذا كتب مقالات (بتوقيع) مستعار فى احدى الجرائد الاسبوعية تقوم على الغمز والتجريح • واستمر غمزه وتجريحه ستين • وفى أحد

الأيام طلبت موعدا للتلاقي . فاختار محل جروبي ، تفضل فيه فقدم
كأسا من الشاي . وتفضلت أنا فقدمت نسخة من ترجمة كتاب الشر
الغنى . .

ولا شك أن هذا المثل غني عن أي بيان . فقد كان الظن أن الشباب
المثقف الذي تلقى دروسه في الغرب لن يكون متحمسا لنصرة العربية
على هذا النحو الذي برز به في صدر جريدة البلاغ ، تحت عنوانه الشهير
« الحديث ذو شجون » في الوقت الذي كان الاستعمار قد ركز الدعوى
الى العامية والفرعونية والوطنية الصنيعة . فقد دخل في معارك ومساجلات
ومصارعات ضخمة في شأن اللغة العربية .

وكان زكي مبارك نسيجا وحده في هذا المجال - بين من عادوا من
أوربا فقد كان المرحوم محمد حسين هيكل ، وطه حسين ، وسلامة موسى
وغيرهم ، يحملون لواء الدعوة ، مخدوعين أو غير مخدوعين . أما هو
فلم ينخدع . ولكنه أصر « منذ عرف اتجاهات أوربا ، على ايمانه الخالص
باللغة العربية والقومية العربية . وظل وفيا لهما صادق الوفاء . ينافح عنهما في كل
سبيل . ولم يحصل لذلك على أي « نشان » أو لقب من الألقاب التي كانت
تغدق على من يسميهم الغرب سفراء الفكر في العالم العربي .

ولقد أمضى زكي مبارك أكثر من خمسة عشر عاما يدافع عن تدريس
العلوم في الجامعة باللغة العربية . ولاقى في سبيل ذلك كل معارضة
من دعاة التعريب ولكنه كان مصرا على دعوته ، يدعمها بالدليل والبرهان

يقول : « ان اللغة الانجليزية لم تسد في كليات الطب والهندسة
والعلوم ، لسبب معقول . أنهم يزعمون أن اللغة العربية تعوزها المصطلحات
العلمية . وهذا وهم . أو هو عجز ستر بهذا الوهم المصنوع .
فالمصطلحات العلمية لم تكن مما تفردت به الانجليزية والفرنسية ، وانما
من ألفاظ نحتت نحتا من اليونانية واللاتينية . وفي مقدورنا أن نأخذها
كما آخذوها ، بعد أن نصقلها صقل الترجمة والتعريب ، فتضاف الى اللغة
القومية : اللغة العربية الفصحى لا العامية . »

وقد تحقق أمله عام ١٩٣٩ كتب في ٨ من يناير سنة ١٩٤٠ بمجلة الرسالة مقالا قال فيه : « من مقام السنة الماضية ان صير اللغة العربية لغة الدرس في كلية الطب وكلية العلوم . وهي دعوة عايت فيها من الشفاء ما عانيت . فمن قال انه دعا الى هذه المصلحة مرة او مرتين او مرات فانا جعلناها حلما أهتف به في يقظتي ونسامي ، أكثر من خمس عشرة سنة ، وبسبب الالاح في شر هذه الدعوة رأيت بعض أقطاب الجامعة المصرية من الثقل . وأوصدوا في وجهي كل الأبواب . »

وقد عارض زكي مبارك دعوة ويلكوكس اي اعاميه وقد أوجدت هذه الدعوة دويا عليا . فقال : « بلغ الجهل ببعض كتب انصر أن يصدق ما أشار اليه ولكوكس من أن اللغة العامية لغة مصريه أصيلة يتكلمها المصريون منذ عهد الهكسوس ، على أن هذا لا يجمع من الاعتراف بأن لغة مصر القومية هي اللغة العربية الفصيحة ، لأنها لغة للدرس والتأليف . ولغة المحاكم والدواوين ، منذ أجيال طويلة . وقد رأيت بعض الكتاب المشهورين يبدئون ويعيدون في هذه المسألة لانهم رأوها موضوع عناية أحد المستشرقين . وكل ما يهتم به المستشرقون يجب أن يهتم به الشرقيون في فهم بعض الناس . »

كما وجه الأنظار أكثر من مرة الى حماية الشباب من الدعوات التغريبية . فقال : « ان شباب اليوم يعانون أزمة خطيرة بسبب الدساس التي يصوبها المستعمرون والمبشرون الى صدر اللغة العربية . وان واجب الأساتذة في كلية الآداب حماية أولئك الشباب من تلك السموم الفواتك

كما عارض الرأي القائل بأن اللغة العربية في مصر لغة أجنبية وبأن المصريين ليسوا من العرب .

ورد على الذين قالوا بأن اللغة العربية في مصر لغة أجنبية ، فقال : « ان مصر ، لحكمة أرادها الله بالعرب والمسلمين ، هي البلد الوحيد الذي انقرضت لغاته القديمة ، لتحل محلها اللغة العربية . وهو حظ لم تظفر بمثله أمة عربية أخرى . فالأقطار الشامية تحيا فيها اللغة السريانية واللغة العبرانية . والبلاد العراقية تحيا فيها اللغة البابلية واللغة الكردية

ولغات أخرى يعرفها أهل تلك البلاد . والجزيرة العربية تحيا فيها لهجات مختلفة . والبلاد المغربية فيها ما تعرفون من لغات متنافرة ، بعضها قديم ، وبعضها حديث . والرجل العربي قد يحتاج في تلك البلاد الى ترجمان .

وقد عصفت عاصمور الظلمات بلغة القرآن في كثير من الأقطار العربية . فاضطرت بغداد ، وكانت عروس العروبة الى أن تتعلم اللغسة الفارسية بضعة قرون ، ثم قهرها الظلم بعد ذلك على أن تتكلم اللغة التركية زما غير قليل . والشام في مختلف أقطاره تعرض كارهها لأمثال تلك الخطوب . ومع هذا لطف الله بمصر ، فظلت موئل اللغة العربية . وكانت المساجد في القاهرة وفي سائر الحواضر المصرية مدارس جامعة لنشر علوم اللغة والدين .

وما يزال الناس يذكرن كيف حفظ الأزهر الشريف مخلفات الفرس والهنود والعراقيين والشوام والمغاربة والأندلسيين في ميادين المعقول والمنقول . ان اللغة العربية في مصر أرسخ من اللغة الفرنسية في فرنسا ومن اللغة الانجليزية في إنجلترا ، ومن اللغة الألمانية في ألمانيا لأن تلك اللغات بصورتها الراهنة لم تعيش في بلادها ربع المدة التي عاشتها اللغة العربية في بلادنا .

وهل في الدنيا لغة عاصرت القرآن ، وبقيت مفهومة ، على نحو ما يفهم القرآن في جميع البيئات العربية ؟ ان مصر هي التي حفظت لغة القرآن بلا جدال ولا نزاع . ان اللغات المصرية القديمة لن تعود أبدا ، ولو أنفقنا في سبيلها غاليات الأنفس والأموال . .

وفي الدفاع عن مصر قال : « سأقول وأقول ان مصر هي باعثة الأدب العربي بعد ان طل عهده بالهجوم ، نحن خلفاء العرب . والمصحف لا يطبع الا في بلادنا . وسنرفع راية العروبة في جميع الميادين »

وقد شغل زكي مبارك نفسه بتفصيل القوة في عظمة اللغة العربية وعلاج قصورها ووسائل بثها وأحاثه ودفعها الى الامام .

• ان اللغات من صنع الناس • وان كانت في بعض سورها من
موايرث التاريخ • فما كان يجب على العرب في العصور الخوالي أن يتكروا
أدوات التعبير عن شئون لم يشهدوها ولم يعرفوها • وانما يجب علينا
أن نعبر عما شهدنا وعرفنا ، كما عبروا عما شهدوا وعرفوا لنستطيع القول
اننا أهل للإنشاء والابداع • وكان أسلافنا من أكابر المنشئين والمبدعين •

• لغات العلم والمدنية في هذا العصر كانت فقيرة •• ثم أغناها
أهلها بالبحث والاشتقاق والاقباس • فمتى صنع كما صنع الأحياء من
أبناء الزمان • نستطيع بدون صعوبة ولا عناء أن نجعل لغة العرب لسان
العلم والمدنية في الشرف ، فنزاحم بها ألسنة الأجانب ، ونستبقي أعمار
أبنائنا ، فلا يضيع في رطانات لا ينتفع بها منهم غير آحاد •

• اننا نريد (لغة) من لغات امدنية ، لغة يفهمها الملاح والملاح
والتجار والبناء • نريد لغة سخيحة سعد أبناءها جميع بلا حساب • نريد
لغة تجمع بين التواضع والجبروت • يرى فيها انعوا م يشاءون من
البساطة والجمال • ويرى فيها الخواص ما يريدون من السمو والتحليق •
نريد لغة مبذولة على نحو ما يبذل الضوء والهواء • يأخذ منها كل انسان
ما يناسب عينه ورئتيه •

• لقد خلقت اللغة العربية للحياة ، ولم تخلق للموت • بدليل أنها
لم تنهزم بانتهزام الامبراطورية الاسلامية • وهي امبراطورية لم تسيطر
على العالم سيطرة حقيقية أكثر من قرنين اثنين • فلو كانت اللغة العربية
لم تعيش الا بحراسة الامبراطورية ، لوجب أن تزول • ولكنها لم تزول
ولن تزول •

لغة العربية خصائص ذاتية تستحق الدرس • فمتى تدرس تلك
الخصائص ، ومتى تعرف بالبراميين القواطع ، كيف استطاعت الاتصاف
على الموت ؟ مع أنها تعرضت ألوف المرات للموت (١)

♦ ان اللغة العربية لها ماض مجيد في الحياة العلمية والطبية • ومن السهل رجمها الى مجدها القديم • ونحن لا تعجزنا الاصول • وانما تعجزنا الهمم العاتية التى تخلق الممالك والشعوب •

♦ أريد أن أعرف ما الذى يقهرنا على هذه التبعية للانجليز والفرنسيين ألم تروا كيف يحرص الغاصبون على نشر لغاتهم ؟ فاذا كانوا يرون ذلك من مؤيدات الاحتلال ، أفلا يرى الوطنيون نشر لغتهم من مؤيدات الاستقلال ؟ ..

ان حفظ اللغة هو الأساس فى حفظ الاستقلال • ان اللغة هى أهم مظاهر الاستقلال فعوضوا عليها بالنواجد ، ان كنتم تعقلون (١) •

وقد هاجم زكى مبارك دعاة « الأدب المصرى » ودعاة اللغة العامية ووصفهم بالافلاس ، يقول « ان بعض الأدباء فى مصر يختلفون فى تسمية الأدب الحديث • وبغيتهم أن يسموه الأدب المصرى لا العربى • ثم يدورون حول فكرة الأدب المصرى • وينتهى أكثرهم الى الاتفاق على انه ليس عندنا أدب مصرى • لأن أكثر موضوعات الادب الحديث ليست مصرية • وقد يختلفون فى الصفة اللغوية فيرى فريق منهم أن اللغة الفصيحة ليست لغة المصريين ، لأنها وردت اينا من بلاد العسرب • فان سألت ما عسى أن تكون اللغة المصرية اضطربوا اضطرابا شديدا ، لأن اللغة العامية محرفة عن الفصيحة •

وقد سجل زكى مبارك كيف حاولت بريطانيا جعل تعليمنا يعمل لاجراج موظفين فلم تفلح ، وكيف حاولت فرض الثقافة البريطانية فلم تفلح • وكيف عمدت الى محو نه اشاء الكتائب وتوقيف مشروع الجامعة فلم تفلح • وكيف حاولت جعل الجامعة مائة للالحداد فلم تفلح • وكيف حاولت محاربة اللغة العربية فلم تفلح (٢)

(١) من كتاب اللغة والدين والمعايد - لزكى مبارك •

(٢) جريدة البلاغ - حياة مصر الأدبية فى عهد الاحتلال (مقال) يوليو ١٩٣٢ •

ويقول ان المحللين عجزوا عن قتل حرية الرأى كما حاولها احبء
العصبيات والخلافات الدينية • وكيف كان اسم عرابى واسم عمر مكرم •
وقد ظلا طويلا منكودين •

وفى كل مناسبة يدعو زكى مبارك الى أنه قد حان الوقت الذى سحرر
فيه بلادنا من السيطرة الأوربية فى العلوم والآداب والفنون • يقول :
« ما أدعو الى غض أبصارنا عما فى أوربا من آثار العقول • فهذا كلام
لا يقوله رجل متخرج فى السربون • وانما يجب أن نروض أبناءنا على
الشعور بأن لهم أدبا وعلما وفنا • يجب أن نروض أبناءنا على الشعور
بأن لنا عقولا وأذواقا وأحاسيس •

يجب أن يفهم أبناءنا أننا صسالحور لبناء مجدنا الادبى والعلمى
بأيدينا •

يجب أن يكون مفهومنا أن العرب صلحوا مرة للأستاذية العالمية نحو
ثلاثة قرون • يجب أن يكون مفهومنا أن اتخاذ اللغات الأجنبية لغات
تدرس فى المعاهد والكليات هو اعتراف خطير بأن لغتنا فقيرة وأننا فقراء •
وكان فهم زكى مبارك للقومية العربية عميقا صريحا مقرونا بعاطفة
الصدق والايمان • وقد عمق هذا الفهم جولاته فى العالم العربى ،
واتصاله بالبيئات الوطنية الصادقة الايمان بالوحدة العربية •

واعتقد أن حادثين هامين فى حياة زكى مبارك كانا مصدر هـ
الانجاء ، وسييلا لاستمراره عنده ، طوال حياته الفكرية • أما الحادث
الأول فهو زيارته لمراكش عم ١٩٣٢ بعد انتهاء اقامته فى باريس واتصاله
بالمفكرين والوطنيين العرب ، فى هذا الجزء النابض بالحياة ، من الوطن
العربى ، والذي كان واقعا - اذ ذاك - تحت سيطرة الاستعمار الفرنسى •
وفى مراكش يتمثل التاريخ العربى فى أروع صوره : هذه المنطقة التى
ترتبط بين البحر المتوسط والمحيط الأطلسى ، والتى كانت معبرا لغزوات
متعددة فى أرض أوربا • وفيها جبل طارق ، وصورة جيش الغزو العربى
بين العدوتين فى طريقه الى الاندلس • ثم غزوات متعددة فى عهد

الموحدين والمثمين وملوك الطوائف • هنالك حيث تبدو الروح العربية من وراء غلاف الاحتلال الفرنسي قوة جية ، هناك تكشف لركى مبارك عظمة الأمة العربية وقوة تراثها الحى •

وقد أتيج لمبارك من بعد أن يذهب الى بغداد عام ١٩٣٨ ، ليعمل مدرسا فى .مدارسها العليا ، وقد أمضى هناك عاما كاملا حيث تعمق شعوره بالقومية العربية وازداد قوة وحياة • ففى بغداد صورة عهد الرشيد ومرسم الحياة العربية فى انطلاقتها ، حيث كانت الترجمة والتأليف ومدارس العلم والحضارة ، وحيث ظهر علماء أعلام ما تزال آثارهم قوية باهرة • ومن شأن هذه الصفحة الضخمة من تاريخ الأمة العربية أن تكسب روح الكاتب العربى قوة ايمان ، وتضاعف أمانته للفكر العربى ، وللبعث العربى الجديد •

ولذلك فقد كان زكى مبارك من أوائل كتابنا الذين عاشوا بين خلال هذه الفترة التى كان الاستعمار حاضيا بأن يفصل فيها العرب فى آسيا عن العرب فى افريقية ، وبذلك جمع بين عظمة الأمة العربية فى أقصى طرفيها (بغداد ومراكش) ، وبين المدينتين اللتين تحملان أعظم مظاهر الحضارة فى الامة العربية • وقد كان له فى خلال ذلك جولات فى دمشق والقدس وبيروت أتاحت له أن يرى ويسمع ويتحدث عن روح الوحدة الكبرى •

ولعله أول كتب أشار الى « أن العرب مقبلون على تاريخ جديد لا تهض قواعده بغير الاخاء الصحيح • وهو أول من نبه الى خطر المؤامرات الغربية فى سبيل تحطيم هذه الأخوة • حيث يقول : « من أجل هذا تبذل الملايين من الدنانير الأجنبية لتمزيق ذلك الاخاء أو قتله فى المهد » •

وقد كانت هذه الرحلات فى العالم العربى عاملا فعلا فى تعميق الايمان بالقومية العربية لكل الذين طافوا به من المثقفين والكتاب ، أمثال المرحوم الدكتور محمود عزمى ، والمرحوم : ابراهيم المازنى • والزيات والمرحوم : عبد الوهاب عزام • وقد دعا مبارك الى عمل مدروس لتحقيق القومية العربية فقال :

« ان الأمر الهام أن تكون لنا خطة قومية فى التعرف الى الشرق ،
خطة قومية تنزل من القلوب منزلة اليقين ، وتمرض على المصرى أن يشعر
بالاخوة الصحيحة لكل من يتكلم اللغة العربية . فاذا تجاوزنا ذلك الى
انعطف عن كل ما صدر عن القومية العربية عددا الاسلام صوت العرب
فى الشرق والغرب ، وأدركنا ان الاسلام ميراث عربى يشاطرنا فيه
نصارى لبنان والعراق :

« لأن محمدا ، صلى الله عليه وسلم هو أول عربى رفع اسم العرب
فى العالمين » .

وقد صور مبارك ضرورة الوحدة . فقال « انما أريد أن أصارحكم بأن
مصر مثلا أضيق من أن تسع المصريين . فلا بد لنا من اخوان وأصدقاء
تبادلهم المنافع الأدبية والاقتصادية ، ونبنى على أساس مودتهم صروحا من
القوة والثروة ، واننى لأذكر أن شعر حافظ ابراهيم له حفاظ ورواة فى
بلاد المغرب ، كما كان لجريز والفرزدق حفاظ ورواة فى الادب القديم
وان ديوان حافظ لينشد كله فى سهرة واحدة فى قهوة الجامع فى باريس
ينشره الحاج طاهر الصباغ قصيدة قصيدة . ولا سيما القصائد الوطنية
البديعة التى قيلت فى دنلوب المستشار الانجليزى للمعارف فى عهد ظلام
الاحتلال . والتى فيلت فى حادث « دنشواى » .

ويقول : « هذه الأمم العربية لا خلاص لها الا باتحادها . واتحاد
المشاعر والاذواق والعواطف له أثر عظيم فى اعداد هذه الشعوب لمستقبلها
المأمول .

وليس لنا أن نعيش ، فان الزمن لن يظل على موافاته للأمم الاوربية
الطاغية التى يعز عليها أن تترك شملنا بلا تبديد وجمعنا بلا تفريق » .

كما يدعو الى احياء ذكريات العرب ، ويرى أن كل احياء لذكريات
العرب خليف بأن يثير الزهو والكبرياء فى نفوس الأمم الاسلامية . وهم
يعرفون ما صنعت تلك الأمم فى الأيام الخوالى » . وهو يخاطب المصريين
بقوله : على المصرى أن يفهم أن فى دمه روحا عربية تسوقه الى الانتقال

من أرض الى أرض فى سبيل المنافع العلمية والادبية • وأن رجولته
لا تكمل الا اذا واجه المضاعب واستطاع أن يخلق لنفسه ولوطنه أصدقاء
فى مختلف البلاد »

وقد أشار فى بعض أحاديثه الى ما وجه الى المرحوم : الشيخ
مصطفى عبد الرازق عندما قال : ان مصر تقف من الوحدة موقف المشاهدة
لا موقف الفاعلية فهجم المصريون عليه وخطثوه بعبارات قوية •

ويقول « ان التشكيك فى عروبة مصر لا يقوم به الا أناس يخدمون
المستعمرين ويخدمون المبشرين • وأن مصر هى التى استطاعت أن تعرض
على فرنسا أن تؤمن بأن اللغة العربية لغة حية • وهى التى استطاعت أن
تفرض على عصبة الأمم أن تجعل اللغة العربية لغة رسمية • وهى التى
استطاعت أن تجعل الأزهر مرجعا لجميع المذاهب الاسلامية بلا استثناء »
ويقول : أنا عربى ••• والمصريون عرب فى أقوالهم ، وأفعالهم ،
وسجاياهم ، ودينهم ، ومذاهبهم • وأدعو الله أن يجعل مصر أبدا الدهر من
أملاك اللغة العربية لغة القرآن •

ويقول : « أنا أدعو أبناء العرب فى المشرق والمغرب الى حب جميع
البلاد العربية حبا يصيرها فى عيونهم وقلوبهم ملاعب حبيبه • أدعوهم
الى التآخى الصادق المتين • أدعوهم الى التصوف فى الأخوة بحيث يصبح
كل رجل وهو مشغول عن حياة أخيه فى المحضر والمغيب • »
وقد عارض زكى مبارك الدعوة (التغريبية) التى كانت تقول بحضارة
البحر المتوسط ، وعظمة العقل اليونانى • وقد مزاعمها فى أكثر من موضع
ومناسبة من مؤلفاته وكتابات •

وقد صور مقدمة كتابه (الأسماء والأحاديث) كفاحه هذا فقال :
« وقفت لأعداء العروبة والاسلام بالمرصاد ، فمزقت أوهام الخوارج على
العروبة والاسلام شر ممزق • ودحرت من سولت لهم أنفسهم أن يتناولوا
على (ماضى) الأمة العربية • وعاديت من أجل الحق رجلا يضرون
وينفعون ويقدمون ويؤخرون • فكأن اعتصامى بحبل الحق أقوى ما تذرعت
به لاتقاء مكائد الناس ومكائده الزمان • »

ويرى زكى مبارك ان « أهل الغرب نشم ، تصفيهم القدرة ، وتعميهم النعمة ولن تكون هذه المتدعات في أيديهم الا وسائل فناء واهلاك وتخریب وتدمير » .

وهو يؤمن بأن أهل الغرب لا يوفون ادا عاهدوا ، ولا يصدقون اذا وعدوا ولا يبرون اذا أقسموا . انهم لغرمون بقبض اليهود ، وتمزيق المواثيق . ولست في حاجة الى تذكير قرائي بالسبعين وعدا التي ظفرت بها من السياسة الانجليز .

وهو يرى ان كل من يمت الى أهل الغرب بصلة قريبة أو بعيدة انما هو اسان خادع ماكر خبيث . لا عهد له ولا امان .

ويؤمن زكى مبارك بأنه لا بد لمن يريد أن يعيش أهل هذا الزمان أن يكون في مقدورهم وبغيتهم وأن يكون له مالهم من قوة البحر والهواء . وقد هاجم زكى مبارك « كليرجي » أحد كتاب فرنسا هجوما عنيدا كشف به السذج عن المؤامرات التي يدبرها دعاة التغريب ، الذين يعملون لحساب الاستعمار تحت اسم « العلم الحر » وقال :

« ان هذا الرجل يتعرض للاسلام والأخلاق الاسلامية . مع انه لم يدرس اللغة العربية في حين أن واجب العالم يقضى عليه بالحد والتمسك قبل القطع في المسائل الخلقية . وقد جرت العادة عند بعض الأوروبيين أن يقفوا في نقد الأخلاق عند ما يشهدونه في الحانات والقهوات والمراصع ، ويندر أن يفكروا في درس الاخلاق الاسلامية التي يعيش عليها الناس في الأفليم . ولو اتجهت أفكارهم الى هذه الناحية لرأوا فيها الأعاجيب . فان المصريين في الأرياف يتماسكون أقوى التماسك من الوجهة الخلقية . وفي الريف بيوت عدة يعيش أهلها في الفاقة والمترية . وهم مع ذلك نماذج في صيانة الشرف والعرض . وهؤلاء الفلاحون الفقراء هم الدلائل على نبل الاخلاق ولولا ما يعتصمون به من الخلق والدين لكانوا مبعث فتنة وشر . فمن يبلغ مسيو « كليرجي » أنه كان قصير النظر ، حتى اكتفى في درس أخلاق المصريين ، بالوقوف عند بعض المناظر التي يشاهدها

أحيانا من يعيش في القاهرة • ومن يبلغه ان انحراف بعض القاهريين ليس
الا نتيجة لاتصالهم ببعض الفارغين من أخلاط البجاليات الأجنبية •

ان الذين يذيعون الفاحشة عن الشرف وأهله لا يعرفون أن أهلهم
يعيشون في بيوت من زجاج • وينسبون أن قوتهم في الدنيا مستمدة من
أصول ينكرها الخلق النبل •

ان هؤلاء الذين يتلمسون لنا الهومات لا يعرفون اننا كنا أكرم منهم
حين عشنا في بلادهم • ان مصر لا يعيش فيها من الأجانب الا من يعجز
عن الحياة في وطنه • فترحب بهم البلاد الكريمة وتؤويهم ليكون جزاؤها
أن تطول الستهم وأقلامهم بالزور والبهتان »

ويسجل زكى مبارك موقفه الواضح الصريح من الآراء الغريبة :

« ليس من العار أن يتأثر الانسان بفكرة أجنبية ، ولكن العار أن
يدعو لآراء أجنبية لم يتأثر بها ، ظنا منه أن في ذلك طرافة وإبتكار • ومن
أجل هذا تضع جهود كثير من المجددين ، لأنهم في طرائفهم أدياء »

ويذكر زكى مبارك أن المستعمرين وصنائعهم يريدون أن يوهمو
أن مصر تخلت عن العروبة • ويريدون أن يزهدوا العرب في الثقافة
المصرية • ويعلق زكى مبارك على كراهيته للانجليز في أكثر من موضع
فهو يذكر بالتقدير جان دارك ، بعد أن زار قبرها ومن فوقه النار موقدة
لا تحبو ويقول معلق : « أنا أحب جميع من حاربوا الانجليز »

ويقول انه كان يأسى كلما تذكر تقصيره في تعلم الانجليز • لم
مرت به ظروف سعد فيها بهذا الجهول - لأنه على قبحه - كان عنوانا على
الشخصية الاستقلالية وفي باريس كانوا يقولون له عندما يملن جهله باللغة
الانجليزية : كيف يصح ذلك ومصر في قبضة الانجليز • فكان يجيب : انكم
واهمون : وان مصر ليست في قبضة الانجليز • وانما هي ملك لأبنائها
الصناديد • •

ويرد على الغرب ، فيقول : لقد خدعنا الغرب بما عنده من مدنية •

فلجده بما عدنا من مدنيه • عدده نور الكهري • وعدنا نور العدل •
عدده الزخرف ، وعدنا الحقائق • عدده الاستعمار • وعدنا الاستبسال •
ويقول متحديا : « ما كان العرب من السوائم المهملات حتى يفكروا فى
رعايتكم يا أهل الفرنسين أو الالمان أو الطليان » •

فى الأدب العربى الحديث

شغل زكى مبارك نفسه بالأدب العربى ، فكان من أقوى كتابنا عمقا
فيه • وكتابه « النثر الفنى » يمثل مدى المجهود الضخم الذى بذله مبارك
فى مراجعة آثار الادب العربى ، ومعالجه وبقده لهدد الانار ، والموازنة فيها
ولم يتوقف زكى مبارك بعد كتابه هذا عن الدراسات المتصلة للأدب العربى
بل استمر فيها • وإذا اعتبرنا ان دراساته عن التصوف الاسلامى مستقلة
حاما عن هذا الفن ، فان دراساته عن الموازنة بين الشعراء وكتبيه عن عمر
بن أبى ربيعة والشريف الرضى ، ومقالاته المتعددة التى لم تجمع فى كتب
قد تناولت الكثير من التعليقات والتحقيقات المختلفة للأدب العربى • فضلا
عن مراجعته لكتاب « زهر الآداب » للحصرى القيروانى • والكامل
للمبرد • ويرى زكى مبارك أن كتابه « النثر الفنى » أول كتاب كشف
النقاب عن نشأة النثر الفنى فى اللغة العربية • • وانه قهر به المستشرقين
ومن لف لفهم من أهل الشرق على الاعتراف بأن القرآن صورة من صور
النثر الجاهلى : انه دليل على أن العرب كان لهم نثر فنى قبل عصر النبوة
بأجيال • • ويرى أنه أول من أرجع بكتابه هذا الصور الفنية فى نثر كتاب
الصنعة والزخرف الى أصول عربية صحيحة •

وكان الباحثون يحسبون أنها أثر من اتصال العرب بالفرس واليونان
وان ما دونه من أطوار السجع والنسيب فى النثر الفنى أقل ما يقال فيه
أنه باب من البحث جديد • وقد سجل زكى مبارك فى مقدمة كتابه أنه
نخل نفسه باعداده سبع سنين • « فان رآه المنصفون خليقا بأن يغمر قلب
مؤلفه شعاع من نشوة الاعتزاز ، فهو عصاره لجهود عشرين عاما قضاهما
المؤلف فى دراسة الأدب العربى والأدب الفرنسى • وان رأوه أصغر

من أن يورث المؤلف شيئاً من الزهو فليذكر أنى ألفته فى أعوام سود ،
لا قيت فيها من عنف الايام ما يقصم الظهر ويقصف العمر • فقد كنت
أشطر العام شطرين : أفضى شطره الأول فى القاهرة حيث أودى عملى وأجنى
رزقى • وأفضى شطره الآخر فى باريس كالطير الغريب ، أحادث العلماء
وأستلهم المؤلفين الى أن ينفد ما ادخرته أو يكاد • ثم أصررت على أن أنقطع
الى الدرس فى جامعة باريس حتى أنتصر أو أموت »

وكما قلنا من قبل لم ينس زكى مبارك طبيعته فى النضال ، حتى
مع كبار الاساتذة المتحيزين فى باريس ، فقد بدأ بعد وصوله
الى باريس مباشرة بمهاجمة آراء مرسيو مرسيه (رأس المستشرقين
الفرنسيين) لذلك العهد ، والذي كانت له آراء مدونة عن نشأة
النثر الفنى عند العرب • وقد نصحه مستشرق آخر هو (ماسنيون)
وأفهمه أن « مرسيه » رجل صعب المراس وأن منزلته فى المعهد العلمى
عظيمة وأن المستشرقين يجلونه أعظم الاجلال • ولكن كتب الله الا ينتصح
فبدأ رسالته اننى قدمها الى السربون بفصلين فى نقض آراء كبير المستشرقين
وقد رفض مرسيه ابقاء هذين الفصلين بحجه أنها لون من الاسطراد
لا يوائم الروح الفرنسى فى البحث • ولكن زكى مبارك أصر على ابقاء
الفصلين بحجه انهما العماد الذى تنهض عليه نظريته فى نشأة النثر الفنى •

وكما قد من قبل ، يقسول زكى مبارك عن أثر ذلك « وكأنى
عز على الرجل أن أهجمه فى غفر داره • فمضى يعديسى عداً خفياً كانت
له آثار بشعة لا أتذكرها الا انتفضت رعباً من عجز الرجل عن ضبط
النفس وقدرتهم على تقويض دعائم الاصف • وقد قابلت خصومته ببلد
أقصى وأعنف • ورأيت الحرص على آرائى أفضل من الحرص على رضا
فأبقيت الفصلين اللذين أغضباه » •

وهكذا تكشف لنا هذه الحادثة جانباً من شخصية زكى مبارك وتفرد
فى مجال علمائنا الذين سافروا الى أوروبا وغير أوروبا ليحصلوا على اجازات

علمية • ثم سمع أن واحدا منهم خاصم أستاذته على هذا النحو ، وأصر على آرائه ورفض آراء המתحنيين •

وقد كشف زكى مبارك فى كتابه « النشر الفنى » عن أشياء كثيرة وعارض فيه آراء المستشرقين • ومن ذلك ان أستاذة الادب العربى فى الشرق والغرب كانوا يعتقدون أن رسالة الغفران هى • أول مسلاة فى اللغة العربية •

ويظنون ان ابن شهيد حاكاه حين ألف « اتوايع والزوايع » ، فأثبت مبارك أن رسالة ابن شهيد ألقت قبل رسالة المعرى • وان المعرى هو الذى حاكى ابن شهيد •

ولكن « زكى مبارك » بالغ بعد ذلك فى تقدير كتابه هذا • فقال عنه • ستييد أحجار الجامعة المصرية ويبقى كتاب « النشر الفنى » فقد بادت المدرسة النظامية • وبقيت مؤلفات الغزالي • لأن الفكر صورة من صور والله حى لا يموت •

وكما ذكرنا من قبل ، يقول : « ما ذكرت كتاب « النشر الفنى » الا شعرت بنيران تتأجج فى عروقى » • ويعد كتاب « عبقرية الشريف الرضى ، من أجود آثار زكى مبارك فى الأدب العربى • وهو يقف به فى صف العقاد بابن الرومى ، وطه حسين بالمعرى •

وقد أشار زكى مبارك الى أنه أعجب بالشريف منذ عهد طويل من- عام ١٩٣٢ • فلما ذهب الى بغداد (١٩٣٨) ابتدأ به على غير موعد • فقد رأى نفسه فجأة بين دجلة والفرات ، فتذكرت أنه قد جاء الأوان لدراسة هذا الشاعر ، الذى تعصب له منذ أعوام طوال • ويقول ان التشابه بينه وبين الشريف عظيم للغاية : « ولو خرج من قبره لعانقنى معانقة الشقيق للشقيق • فقد عانى فى حياته ما عانيت فى حياتى • وكافح نى سبيل المجد ما كافح وجهله قومه وزمنه • وكافحت فى سبيل المجد ما كافحت وجهلى قومى وزمانى » •

وقد أشار الى أن الأدباء فى مصر كانوا يختلفون حول البحرى

والتبني • وكان وحده يقدم الشريف الرضي على هؤلاء الشعراء • ويؤكد الرضي كان احق بمجهوده • وانه نبه « طه حسين » بالاهتمام بدراسة زكي مبارك أنه قال للعقاد يوم أخرج كتابه عن ابن الرومي ان الشريف شعر الشريف • وأنه فكر في اصف الشريف الرضي يوم رأى « أنيس المقدسي » في كتابه عن أمراء الشعر في العصر العباسي يهتم بأبي العتاهية ، وينسى الشريف : « مع أن ديوان أبي العتاهية » لا يساوي قصيدة واحدة من قصائد الشريف • • وعنده أن الشريف الرضي شاعر ثمر يوالى تحطيم قيود الذل والاستعباد • ونواحي الرجولة قد اكتملت فيه كل الاكتمال • فهو رجل له صبوات وآمال • وهو عبق وفارس ومؤمن وزعيم • ويجمع بين المداراة والحلاوة والعنف والرفق • وعنده أن الشريف في باب شعر من المتبني • وأن الشريف بهذا المعنى أفضل الشعراء • لأنه جرى في ميادين سيظل فارسها السباق على مدى الاجيال ويقول : « سيذكر أدياء بغداد أنني أحببت شاعرا هو من تروة العروبة وثروة العراق »

وقد صور مهبجه في دراسة الشريف ، فقال : انه لم يقف منه موقف الأستاذ من التلميذ - كما يفعل المتحذلقون - وانما وقف معه موقف الصديق من الصديق • وعنده أن من اوفاء للبحث ان يساير الشاعر الذي يعرض عقله وروحه • وما أبعد اعرف بين رأى زكي مبارك في الشريف ، ورأيه في المعري ، فهو يرى المعري قد زهد في أكل لحوم الطير والحيوان • ولكنه كان مولعا بأكل اللحم المحرم : لحم الانسان (فما ترك فئة ولا جماعة الا انتهش لحمها بأنياب حداد) • ويقول : لو استبحت لحم المعري كما استباح لحوم اسس ، قلت ان ثورته على المجتمع كانت ضربا من الانتقام الاثيم • فالرجل كان يعرف أن أهل زمانه يتهمونهم بالمرور في حق الدين فشاء له هواء أن يسجل مخزيتهم وما آثمهم ، ويفضحهم في العالمين وقد أشار زكي مبارك الى جهوده في ميدان الأدب العربي • فقال :

« رأيت اللغة العربية تشوف الى من يحدد مقاصد النقد الأدبي • فألفت كتاب « الموازنة بين الشعراء » • وقد طبع مرتين • ورأيت لغة العرب تنظر من يحقق بعض المؤلفات القديمة فنشرت كتاب « زهر الآداب » •

ونشرت « الرسالة العذراء » مصحوبة بدراسات وتحقيقات • وراعى أن
يجعل الناس بعض مصادر التشريع الاسلامى • فنشرت رسالة فى تحقيق
نسب كتاب الأم • •

وأراء مبارك فى الأدب العربى .تلخص فى ايمانه بالأدب العربى •
وأنه يكفى لتكوين الاديب (١) ، ويرى أن الدراسات الادبية فى الصحف
السياسية لم تكن لوجه الله ، ولكن للاستئثار بالقراء • كما يعتقد أن الأدباء
المتخرجين فى الجامعة غير الأدباء المتخرجين فى الأزهر ودار العلوم •
ومما يرويه أنه فى الصراع على لقب أمير الشعب وعلان طه حين اهداء
الى العقاد ، نار محمد الهراوى ، ومحمد الأسمر ، وأهديا اللقب الى
(البرنس) ، وهو نساخ فى دار الكتب ، له مصومات فى التهانى بالأفراح
والليالى الملاح • ومما ذكره أن « شوقى » أعضاء ثلاثين جنبها ليستعين
بها على طبع كتاب (حب ابن أبى ربيعة وشعره) ولولا هده المنحة لعجز
عن اخراج الكتاب - والمازنى فى رأيه أكبر كتاب اللغة العربية فى العصر
الحديث : وله فى نفسه أعظم مكان • وقد أورد أن « معروف الرصافى ،
قال له ان أسلوب المازنى أشبه بشراب التوت •

وقد سجل نقاد زكى مبارك انه من أول الداعين الى تكوين شخصية
للأدب العربى الذى يبدو ضعيفا ضئيلا بحانب الدوى الهائل الذى تدفع
به الآداب الغربية فى كل يوم •

ولقد سجل زكى مبارك رأيه فى الأدب الذى يكتبه كتاب عصره
حين قال :

« لا عبرة بهذه الترثرة التى يطالعنا بها الكتاب فى كل صباح • فهى
على وفرتها تكرير وترديد لأفكار الفرنسيين والانجليز والألمان • وليس لها
شخصية ولا ذاتة تحدث القراء عن حياة أولئك الكتاب •

(١) اشترك فى مناقشة فى الجامعة كان فيها مع خليل مطران على
الرأى بأن الادب العربى يكفى لتكوين الاديب •

زكى مبارك والنصوف

كتب (زكى مبارك) عن التصوف مرتين : المرة الأولى عام ١٩٢٤ عندما أصدر رسالته « الأخلاق عند الغزالي » والمرة الثانية عندما أصدر رسالته (التصوف الاسلامى) ١٩٣٧ - أى بعد ثلاثة عشر عاما . وفى المرة الثانية تغير رأى زكى مبارك عما كان من قبل - ولا شك أن هذه شجاعة أدبية منه . فقد هاجم مبارك الامام الغزالي فى رسالته الأولى . ولكنه عاد فاعتذر اليه فى رسالته الثانية ، كما نوهنا عن ذلك من قبل . ولكن لزكى مبارك قصة مع الصوفية تسبق ذلك بأمدة طويلة ، وترجع الى عام ١٩١٢ ، وعندما كان طالبا فى الأزهر . ولعل هذه الصلة التى بدأها فى ذلك الوقت هى مصدر حملته على التصوف ، عندما جاء الوقت الذى يختار فيه الغزالي ، ليجمله موضوع بحثه الذى تقدم به للحصول على اجازة الدكتوراه . وقد ذكرنا من قبل أنه قال : « فى ١٩١٢ وأنا طالب فى الأزهر اشتدت رغبتي فى صحبة الصوفية وألح بى الشوق فأخذت أنتقل من ناد الى ناد حتى تعرفت الى رجل فاضل من أساتذة الأزهر الشريف كان يومئذ من كبار الصوفية . فأخذت عنه العهد . وبدأت أقوم بالأدوار على الطريقة الشاذلية . وكان فى صوتى من المرونة ما يساعد على القاء الأناشيد . فكنت من المتقدمين فى الانشاد وفى ١٩١٥ رآنى ذلك الشيخ صالحا للأستاذية فى الطريق . فأضاف اسمى الى قائمة الخلفاء . وكان لى فى ستريس وغير ستريس مريدون وأتباع . وأذكر أننى كنت أحسبني يومئذ من الموفقين .

وفى ١٩١٨ قام بينى وبين الشيخ الطماوى نزاع . فقد كان يرانى قليل الرعاية للتقاليد الصوفية . وتأملت فرأيت السبب تافهــــــــــــــــا كل التفاهة ، فقد غاظه أن أتكلم فى حضرته . . وقد وضعت رجلا على رجل وهى جلسة تدل فيما يعنى على تعاظم وكبرياء . وحاسبت نفسى . فرأيت أنى لم أفعل ذلك عن عمد . ثم خطر بالبال أن الصوفية ايمان بعلام الغيوب فلو كان ذلك الرجل من المهملين لما آخذونى على هموة شكلية لم يكن لى

فى وقوعها قصد ، وم تسبقها نيه سوء واستهى الحديث بالقطيعه ومرت أيام عانيت فيها من الضجر والغيظ ، عانيت وحاولت أن أصلح ، بيسى وبين الشيخ ، ولكنى لم افلح فى جذب نفسى اليه ، فقد اقتنعت بأن بعض الصوفية ارباب ظواهر ، وان ادعوا أنهم ارباب قلوب . وفى خلال تلك الأزمة ألفت كتاب (الأخلاق عند الغزالي) الذى نلت به اجازة الدكتوراه من الجامعه المصريه فى ١٩٢٤ وهو كتاب تجنيت فيه على التصوف (لم أر كتابا حتى الآن رجع عن رأى خطأ قديم غير زكى مبارك) . وما كاد ينشر هذا الكتاب حتى ضعفت حماسى لما أقمته عليه من أساس العقل ، لأن الدنيا كانت بدأت ترينى أنى تحاملت على الغزالي وتعملت الحكم على آرائه فى سياسة النفس : فقد كن يدعو الى النفرة من الناس ، وكنت أرى ذلك من الجبن فى الحياة الاجتماعية ، ثم تكشف بعض الحقائق ، فرأيت المروءة تقضى فى أحيان كثيرة بالهرب من الناس .

وكذلك عدت أستروح بذكرى التصوف وأضمرنه اشواق والحنين ،

ولكن هل مر هجوم زكى مبارك على الغزالي بدور ضجة وبدون أن يثير معارك ؟ أبدا : لقد فتح كتابه الباب أمام الأزهريين لهاجمونه ويتهمونه فى دينه . وكما ذكرنا من قبل ، ان المرحوم : محمد جاد المولى أحد المتحنيين له فى رسالة الأخلاق عند الغزالي . قال : « ما أطلعت على رسالته رأيت فيها ما صدق ظنى فيه : رأيت يهجم على حجة الاسلام الغزالي ويقسو عليه ، فلم أجد بدا من أن أتشدد فى حسابه لأعجم عوده وأسبر غوره . فلما أخذت فى محاسبته على ما صنع فى نقد الغزالي ، تكشف جوانب أثار الشيوخ اللبان ، فتدخل ، وتدخل معه جماعة من جلة العلماء ، وكان الجمهور يموج من الغيظ ، ولولا حكمة رئيس اللجنة يومئذ ، وهو الدكتور منصور فهمى ، لاضطرب النظام ، وانفرط عقد الامتحان

وكنت أظن أن المشكلة انتهت عند هذا الحد . ولكنى تبیت مع الأسف أن هجومي على الدكتور مبارك كانت له عواقب ، فقد حمل عليه جماعة من العلماء فى جريدة المقطم وجريدة الأخبار ، يحمل لواءهم

الشيخ يوسف الدجوى ، والشيخ أحمد مكى وعند ذلك عرفت أن الدكتور زكى مبارك قد قضى حياته فى المصاولة والمجادلة ، لما استقر فى النفوس من أنه باحث متعسف مشاغب • ولكن أحمد جاد المولى الذى امتحن (زكى مبارك) سنة ١٩٢٤ فى رسالة الدكتوراه « الاخلاق عند الغزالى » هو الذى امتحنه سنة ١٩٣٧ - وبعد ١٣ عاما ، فى رسالة الدكتوراه (التصوف الاسلامى) فهل تغير زكى مبارك بعد هذه السنين ؟ نعم :

يقول « رأيت طالب الدكتوراه فى سنة ١٩٢٤ غير طالب الدكتوراه فى سنة ١٩٣٧ : كان الطالب الأول يجادل لجنة الامتحان بلا نهيب ولا تلطف - ولا أقول بلا تأدب أما الطالب الجديد فكان آية من آيات الأدب والذوق • وكان مثالا من أمثلة التواضع والاستحياء • يسمع السؤال بهدوء ويجيب عنه بذكاء مقرون بالتحفظ والاحتراس • فماذا صنعت الثلاثة عشر عاما بالدكتور زكى مبارك ؟ لقد تغير تغيرا تاما • وانقطعت الصلة بين حاضره وماضيه أشد الانقطاع • وكذلك يصنع العلم بأبنائه الاوفياء • فهو يجعلهم متواضعين مهذبين لا يعرفون العنف ولا الفطرسه ولا الكبرياء »

ويرى جاد المولى « أن زكى مبارك » نموذج فريد من العلماء • فهو حينما يصول فى الدقائق الفقيه كما صنع حين حقق نسب كتاب « الأم » فضيفه الى الفقهاء • وحينما يجادل فى العضلات النحوية فضيفه الى النحويين • وينظر الى كتاب « الشر الفنى » فتحسبه رجلا يحسن غير النقد (الأدبى) • وتقرأ رسائله الغرامية فيخيل اليك أنه شاب لا يعرف غير الاصطباح والاعتناق ، يهوى الغيد الرعايب • وتنظر الى رسالة اللغة والدين والتقاليد فتعده من كبار المصلحين • وتنظر مقالاته فى التربية والتعليم فتراه من أقطاب المربين • وتقرأ هجومه على الكتاب والشعراء والمؤلفين فتعده من الهدامين • ونسمع أخباره فى الاندية والمجالس وأحاديث رحلاته وانتقاله من العمامة الى الطربوش ثم الى القبة والسدارة فنتعقد أنه من المولعين بدراسة أخلاق الأمم والشعوب •

أشار زكى مبارك الى أن كتابه (الأخلاق عن الغزالى) كانت له آثار

بعيدة المدى فقد رفض جماعة من علماء العراق مصافحته بحجة أنه أذى
الغزالي .

وأشار زكي مبارك في بحث له عنه نشرته الرسالة (٣ من نوفمبر
١٩٤١) بأنه ألقه في أووت كان فيها تأثير انقلب وانعقل على فهم القدماء
للأخلاق (وهي ثورة لم أنج من شرها الى اليوم . . . وقد أسايرها
وتسايرني الى آخر أيامي . وكيف يهدأ من يروعه أن يرى رجل الدين
يعرفون خريطة الحياة في الآخرة ويجهلون خريطة الحياة الدنيوية .
ان كتاب الاخلاق عند الغزالي لم يكن الا دعوة صريحة الى التشكيك
في أصول الاخلاق الموروثة عند القدماء . . »

ويرى زكي مبارك في كتابه أن الفضائل سلبية وإيجابية . ويقرر
« ان الغزالي وجه اهتمامه الى النضائل السلبية ولم يعن بشرح الفضائل
الإيجابية مثل الشجاعة والافدام والمرض وما الى ذلك ، فانه لا يكفي أن
يسلم الرجل من الآفات النفسية بل يجب أن يزود بكل مقومات الحياة
وخير للمرء أن يوصم برذائل القوة من أن يتحلل بفضائل الضعف . فان
الضعف شر كله . . »

وقال « ان أسلوب الكتاب يغلب عليه الحذر والتهيب . . . وقال : -
ان الغزالي أسره على نحو ما يصنع بمن يواجهون نوره الوهاج ، غير أنه
عمد الى كسر باب الأسر ليلقي الغزالي لقاء الند للند (ان كان للغزالي
أنداد) »

وقد اهتم برسالة الأخلاق عند الغزالي الدكتور «سنوك هو جرتيه»
حيث كتب عنها باللغة الهولندية بحثاً نوه فيه عن المؤلف . رجع مبارك عن
آرائه في الغزالي وأعلن اعتذاره في كتاب التصوف الاسلامي في مقال
كتبه في الرسالة (٢٩ من يوليو ١٩٤٠) عما سلف من نقد له قال تحت
عنوان : « اليك أعذر أيها الغزالي » .

« في سنة ١٩٢٢ : كنت أقضي أكثر الوقت في تحرير كتاب (الأخلاق
عند الغزالي) وكان ذلك في أعقاب أعوام شداد واجهت بها نار الثورة

المصريه وأكثرت يدى بلهب الجدل والصيال حول المطالب .وضنيه . فأنثر ذلك فى عقلى وتفكيرى الى أبعد الحدود . وحملتنى ذلك التأثير على السخرية من اعتزال الغزالى للمجتمع السياسى وابتعاده عن الضجيج الذى كانت تثيره الحروب الصليبية فى ذلك الحين .

ثم مرت أعوام راضنى فيها الدهر بعد الجموح . فعرفت أن الغزالى لم يكن من الجبناء وأنه كان من الحكماء .

وهل أخطأ ابن خلدون حين نهى العلماء عن الاشتغال بالسياسة ؟

وهل أخطأ محمد عبده حين استعاذ بالله من مادة ساس يسوس ؟
دلونى على رجل واحد غمس يده فى السياسة ثم سلم من الأقويل والأراجيف .

• كما سجل زكى مبارك أن الدكتور (طه حسين) اعتذر عن رئاسة اللجنة التى أدى أمامها امتحان الدكتوراه فى الجامعة المصرية عن (التصوف الاسلامى) بحجة انه رجل « غير مصقول » على حد تعبير زكى مبارك وأنه « قد يخرج على قواعد الذوق فى المناقشة العلنية فيخرج عميد كلية الآداب أمام الجمهور .

• والسؤال بعد ذلك : هل حق أن « زكى مبارك » قد تأثر بدراساته عن الصوفية ؟ . لقد اعتبر أن التصوف لا يقتصر فقط على محض العبادة الدينية والتوبة الى الله ، والتجرد من شهوات الدنيا . وإنما هو كل افراغ للقوى الروحية والعقلية فى فكرة سامية . وقد اعتبر هذا من زكى مبارك - فى تقدير الباحثين جرأة له ومخالفة للعقيدة السائدة عن مذهب التصوف بأنه وجدان دينى . ولا شك أن « زكى مبارك » قرأ فى سبيل اعداد بحثه الخطير عن التصوف الذى بلغ أكثر من تسعمائة صفحة من القطع الكبير - عددا ضخما من المؤلفات ، ودرس مذاهب دعاة الحب الالهى ، ووحدة الوجود ، وابن عطاء الجيلانى .

وهو يرى أن الصوفية ابتدءوا حياتهم بالحب (الجنسى) ثم ترقوا الى الحب الروحى . وعنده أن الانتقال من حب الجمال الى التصوف

معقول • ولا سيما في حبه احرم من محبوب • وعندي أن • زكي مبارك • بعد أن توغل في دراسة التصوف بدأ يحلّ أدبه بعبارات منها اتجاه واضح الى الله ••• فهو يقول مثلاً

• ما كنت أملك غير ايساي بالله • وهو اسر في عقيدة التصوف التي أقمت عليها بناء حياتي • •

ويقول كل شيء يسبح بحمدك يا واجب الوجود • وأمر الاخلاق كله اليك • أنا عشقتك بلروح والقلب والوجدان • •

ولكنه بلغ في اتجاهه هذا الى حد بعيد فقد بدا أنه تحرر من كل القيود في حديثه الى الله سبحانه وتعالى • كقوله مثلاً •

• سأحاسب ربي قبل أن يحاسبني • • أو يقول • ماذا أعددت لي من تكريم وقد سبحت بك فوق • أذن الجمال ؟ • ويقول • الدنيا لوحة فينة صاغها بديع السموات والأرض بما فيها من حسن • فهو صنع (فن) وما فيها من قبح فهو صنع (فن) • فأنا أدرس المحسن والمسوى بذوق واحد • وقد أتفلسف فأزعم ان خلق الوجه الدميم أصعب من خلق الوجه الوسيم • وعلى أهل الدمامة أن يشكروا خالقهم • فقد سواهم بعناية ولعل مرجع هذا الانحراف الذي أصاب • زكي مبارك • هو ايمانه بنظرية وحدة الوجود • وهي نظرية أقل ما يقال فيها انها تنفي نظرية الجزاء التي هي جزء من شرائع الاديان • وهي بذلك تبيح للانسان كل تصرف دون عقوبة •

كما يظهر هنا تناقض زكي مبارك • ففي الوقت الذي يكتب فيه عن التصوف الاسلامي ويقول انه يقيم قاعدة حياته على أساسه تراه يؤمن بمذهب الكشف والتعزية والصراحة في الكتابة عن النفس والفرائز •

ولعل نظرية وحدة الوجود أيضا هي التي دفعته في هذا الانجساح فقوضت في نظره عقيدة المسؤولية • وقد كان لهذه النظرية أثر مريرة فقد هوجم بها في أيامه الأخيرة ••• ولكن زكي مبارك ما يكاد يذهب الى بغداد ويقيم فيها عامه (١٩٣٨) حتى يكتب في يومياته (ليلي المريضة) ••• يقول :

• لقد جعلت الحديث عن احب شريعة من الشرائع • هل احسنت
هل أسأت ؟ لا اعرف بالضبط • ولكن قلبي يحدثني باننى كنت من
المسرفين ، اتوهم حيناً اننى اخدم لغتى بهذه الأحاديث ، وأعتقد أحياناً
أننى أهدم الأخلاق بهذه الأحاديث •

أحب أن أعرف نفسى ، فهل أستطيع أن أعرف نفسى : هيهات
هيهات لو كنت رجلاً فاسقاً لعرفت الحدود وانتهيت •

ولكنى رجل عفيف • وهنا تظهر دقة الاشكال • ومن الذى
يصدق أننى رجل عفيف ، وقد ملأت الدنيا بالحديث عن طغيان الشهوات ،

فن جديد في الكتابة (مشيت بنى عربانوس)

بدأ زكى مبارك حياته شاعراً • ثم فتحت آفاقه فى الأزهر • فاتصل
بالجامعة المصرية واتجه الى التعمق فى دراسة الأدب العربى وأعد رسالته
عن (النثر الفنى) وأوغل فى هذه الدراسات • ثم التفت الى الأدب
الصوفى • فألف عنه رسالته الضخمة المعروفة •

هنالك بدأ يشعر بأنه فى حاجة الى عمل جديد مثير • فما هذا
العمل ؟ • اعتقد أنه اتجه الى أكثر من عمل • اتجه الى الكتابة عن الحب
والوجدانيات على أساس أنها دراسة للنفس الانسانية كما فعل فى (ليلي
المريضة) • واتجه الى كتابة الاحاديث التى تدور فى الأسفار ، يضمونها
آراء وآراء غيره من الكتاب - كما فعل فى كتابه (الأسماء والأحاديث)

ثم اتجه الى خلق شخصيات خيالية يصور بها نماذج من الناس ،
كشخصية أبجد أفندى التى كان يرسم بها صورة غريبة لبعض الموظفين •
وربما كان يقصد بها الى رسم صورة انسان بالذات •

غير أن من أبرز الاعمال التى ابتدعها هو كتابته عن ادم وحواء • وقد
نشر بعض هذه الفصول فى الرسالة ، بدأها فى يناير ١٩٤٢ • بمقالات

توالى وتعددت أسبوعيا حتى مايو ١٩٤٢ (وقد بلغت أكثر من ١٦ مقالا) وقد جعل موضوعاتها (١) محاكمة آدم وحواء فى جلسة سرية فى ساحة العدل ، حديث السدرة ، بين الورق والدوح ، تحت شجرة التين ، قبل أن تثور العواصف فوق أنبج الكوثر • اجتماع الملائكة فى مسجد الفردوس • وهكذا ••• وهو نوع من الفنون التى حرص زكى مبارك على أن يغرب فيها ويتناول مسائل مثيرة وشائكة •

وقد بدا هذا البحث تحت عنوان « بين الورق والدوح : رسالة مهداة الى مسيو دى كومين » : استهلها بعبارات تحدث فيها عن شهر عدوان الخريف على آثار الربيع •• أول مرة فى باريس • وكيف كانت قدماه تخبان فى أوراق الاشجار وهو يخترق حديقة لكسمبور • ويصور كيف انتشى حين رأى ذلك المظر الجميل • وقد اعانة على فهم جواب من حيوية الأدب الفرنسى ، الذى يحوى آلاف من صور العدوان البغيض : عدوان الخريف على آثار الربيع ، بلا تهيّب ولا استحياء •

ثم يروى كيف أنه جلس فى يوم عصف تحت « الدوح » وهو ينظر بحزن الى تساقط الورق : « فوعيت من جواره أحاديث لن أنساها ما حييت • وكيف أنساها وقد زلزلت قلبى وأطلعتنى على بعض ما كنت أجهل من سرائر الأدواح والأوراق » •

ثم أجرى الحوار بين الورق والدوح عن الطوفان والسفينة •• وفى الختام قل : قللة وحده هو الذى يعلم قصة الورق والدوح • وهو الذى يعلم ما أعانى من البلبلة بين القاهرة وباريس وبغداد • وهو الذى يعلم كيف أنتم من التصريح الى السلمح لينجو الورق من الاقتضاح (٢) ثم لم يلبث بعد قليل أن عود الموضوع بصورة أخرى • فروى

٣٠ من مارس ١٩٤٢

١٣ من ابريل ١٩٤٢

٤ من مايو ١٩٤٢

٢٣ من فبراير ١٩٤٥

(١) الرسالة

١٦ من مارس ١٩٤٢

٢٣ من مارس ١٩٤٢

(٢) الرسالة - ١٩ من يناير ١٩٤٢

قصة مخترعة خيالية عن كتاب أهدها اليه المرحوم أحمد زكي (باشا)
السكرتير العام لمجلس الوزراء سابقا وشيخ العروبة ، بعد ان وقع الخلاف
بينهما ، ثم انتهى الى الصلح . ويقول فيما يقول . ان « زكي باشا » طرب
حين رآه يقرأ الخط الكوفى بلا غناء ويرد على ذلك بقوله كيف
تكون حاله لو نظر قرآنى أقرأ الخط السنسكرىتى . وهذه هى الصورة
التي كتبها تحت عنوان بين آدم وحواء (١) .

كثر الكلام فى هذه الايام عما كان بين آدم وحواء لعهد الجنة
وعهد الأرض . وقد تورط صديقنا الأستاذ توفيق الحكيم . فادجم خياله
الروائى فى شئون فصل فيها التاريخ منذ أجيل طوال . ولم يبق موجب
لذلك التورط بعد حكم التاريخ . فهذا الصديق يعرف أن آدم من الأنبياء
والتزويد عليه لا يجوز ، وان احتال فزعم انه يكتب باسم الفن لا باسم
التاريخ .

وهل يستطيع بفنه الروائى ان يخلق من الصور مثل ما سجل
المؤرخ « شيت ابن عربانوس » طيب الله ثراه ؟
ولكن ما حديث ذلك المؤرخ المجهول ؟

لم أكن أعرف عنه شيئا قبل سنة ١٩٣٣ . وانما هدانى اليه أستاذنا
المرحوم أحمد زكي باشا بعد ان انتهى ما كان بينى وبينه من خصومة وصيال
فاذا سألتكم كيف ابتدأت تلك الخصومة وكيف انتهت فأنا أدونها
سطور ، ثم أمضى الى ترجمة شبت بن عربانوس بايجاز تمهيدا لشرح
آرائه فى آدم وحواء باطناب .

.. كانت وزارة المعارف قررت اقامة حفلة تأيين للشاعر أحمد
شوقى بكلية التجارة . فهلنى أن أسمع خطيبا تنحج بعنف ، مع أنى
لم أكن اجتزت عتبة الكلية . فسألت نفسى كيف يصل صوت التنحج على
الرغم من تلك الابعاد الطوال . وبعد لحظة فهمت أن الحفلة أقيم لها
(ميكروفون) وأقيم لذلك (الميكروفون) مسامع فى جميع الأركان . .

(١) بين آدم وحواء : الرسالة ٢٣ من فبراير ١٩٤٢

ونظرت فإذا الخطيب احمد ذلي باشا • فكيف عـب عه وهو عالم علامة
ان امكروون سينقل الى النجيران وجيران العجيران نحجته الحوراء • اما
كان في مقدورة ان يدين وجهه او يدير المكروونون قبل ان يقرب بلـك
الصوت •

اضحكى ان يقع شيخ العروبة فيما وقع فيه • فاخت ارصد
نه غلطة ادبيه او تاريخيه لاهجم عليه في جريدة ابلاغ تم اتفق لحسن
الحظ أن قل لازما غير صحيح ، وهو يتكلم عن روح الرسول في نهج
البردة • وكنت يومئذ مشغولا بتأليف كتاب « امداح اسبويه » فوجدت
عندي من المحصول الأدبي والتاريخي ما يكفي لانجحه بلا عـاء •

وما كادت تظهر كلمتي فيه حتى اندفع الرجل مصولتي على صفحات
البلاغ بأسلوب ساحق ماحق • وكـن رحمه الله آية في الكر والفر • وكان
لا يهجم على باحث الا تركه كالرفق بفضل اطلاعه الشامل وذكائه الوهاج

وكنت حوادث فلسطين وصلت الى آلام وجراح • فارسل زكي
باشا الى الحاج امين الحسيني برفية مطونه كلفته احد عشر جنيه • وكان
ينتظر أن يصل الى جواب رفيق • ولكنه لم يتلق أى رد من الحاج أمين
الحسيني • فكتب اليه يسأل عن سر ذلك السكون فكان الجواب أن البرقية
وصلت ، ولكنها لم تكن بمضاء زكي (باشا) وانما بمضاء زكي مبارك •

وامتشق زكي (باشا) قلمه وانشأ مقالا أخذ أربعة أنهر من جريدة
الاهرام • وكان في مقاله أن عمل التلغراف حرف الامضاء • فان كان في
مصر ، فالى الليمان وان كان في فلسطين ، فالى البحر الميت • وأعلن زكي
(باشا) أن التحريف مقصود • وكانت حجته أن « زكي باشا » قد تحرف
الى زكي الابراشي ، بسبب الشين ، ولكنها لا تحرف الى زكي مبارك •

وامتشقت قلمي فكتبت ردا وجيزا ، نشرته الأهرام في أول نهر
من الصحيفة الأولى • وكان الرد يتلخص في أن « زكي باشا » هو نفسه
الذي أمضى باسم زكي مبارك وحجتي أن (الباشا) مشغول بما نشر على
صفحات البلاغ • فأنا ملء قلبه • ومن السهل أن ينسى اسمه ويذكر اسمي •
ورأى زكي (باشا) أن التعليق مقبول • فذهب الى ادارة التلغراف وطلب

أصل البرقية ثم ابسم حين شاهدتها بسم (زكى مبارك) ، وبخط
(الباشا) الطريف • فلم يكن بد من ان يدرك زكى باشا أن الأقدار
(أرادت) أن تطوقه بالخطأ • ليكف عن آذاه فتصل بى تليفونيا ليدعونى
الى العشاء وامضاء عقد الصلح فاجبت بالقبول ••

وفى لى شيخ العروبة : الجائزة العظمى لمن كان فى مثل أدبك أن
تهدى اليك النسخة الوحيدة من كتاب (شيث بن عربانوس) ومضى
(الباشا) لاحضار الهدية • ثم عاد ومعه كتاب فى أكثر من خمسمائة صفحة
بالخط الكوفى • وهو مجلد على طراز المصاحف المحفوظة بدور العاديات
ثم يقول : « أقبلت على الكتاب بلهفة وشوق » ثم لحظت أن منزلى عظمت فى
قلب زكى (باشا) عندما رآنى أقرأ الخط الكوفى بلا عناء فكيف تكون
حاله لو نظر فرآنى أقرأ الخط السنسكرىتى » •

ثم يقول : « عرضته على دار الكتب وعلى مكتبة وزارة المعارف وعلى
مكتبة الجامعة المصرية فلم أجد أحدا يعترف بقيمته التاريخية ، وان كن مكتوبا
بالخط الكوفى • وهل كنت أجهل أن الطعن فى صحته من اممكات ؟
انما كان همى أن أنتفع بشمته • وأن أتمكن الجمهور من الاطلاع على
مافيه من مقاصد أو أغراض • ولكن الامل فى الانتفاع بشمته أمسى خيالا
فى خيال » •

ثم يقول انه قد عزم على تلخيصه ولكن قبل أن يبدأ فى ذلك يسجل
أنه غير مطمئن الى أنه ألف فى العصر الذى تلا الطوفان • ويضيف الى
ذلك أن المصادر التى تحت يده لم تتحدث عن شيث بن عربانوس • ولم
نسمع أن اسمه ورد فى كتب المستشرقين فأين وجد زكى (باشا) ذلك
الكتاب ؟ ••

ويقول انه كان فى النية أن يوجه اليه هذا السؤال ، لولا أن المنية
عاجلت المرحوم (أحمد زكى باشا) لتطول الحيرة فى مصدر ذلك السفر
الغريب ، ومعنى هذا أن (زكى مبارك) استغل قصة كتاب خيالى مكتوب

باللغة الكوفية ليحقق عرصاً معياً (١) وأعتقد ان النصّة مخترعه من أولها الى آخرها • وانه اراك ان يرسم صورة آدم وحواء • ولكنه خشي أن يتهم فيه بالاعراق او التبعه او الاحراف فنسبها الى شيث بن عربانوس وروى هدد القصه الطويله عن خلافه مع زكى (باث) وصلحه ليبرر نشر تلك العصول •

ولعل هذا الفصل يعطى صورة لجانب من جوانب شخصية مبارك صاف الى الجوانب الاخرى لترسم فى النهاية صورته الكاملة •

خصومات مبارك ومعاركه الأدبية

قالوا ان « زكى مبارك » عفيف النقد قوى العارضة • ودلوا انه متعصب بطبعه وانه غير مصقول • ودل طه حسين عنه : • حاد الشبب عنيفه • وقالوا أنه ناقد مخيف حتى ليكد قدرته يلمح الشراسة فى هجومه على خصومه ويشفق بهم من هول وطأته •

ولا شك أن « زكى مبارك » ناقد عنيد لا يهاجم كاتباً الا بعد أن يدرس مقاتله • ولكنى لا أعتقد فى الجملة أن قوة زكى مبارك هى فى قوة منطقته وسلاسة معارضته وانما هى فى ذلك العنف الذى يصبه كالحمم على أساس عاطفى بحث •

ولقد تثير هذه المعارك وهز وتعمل فعل القابل : تحدث الدوى ونثير الدخان وكلها ليست أقوى فى نضرى من المساجلات العميقة التى يمكن أن تقوم على البحث الهادى والمنطق العميق والمعارضة الذهنية •

ولذلك فإن أكبر مساجلات زكى مبارك كانت من جانب واحد • فقد تماما فيها الطرف الآخر وذهب منه موقف الصمت • ولقد كنت

(١) مما كتبه زكى مبارك هذه العبارة : كان الراى ان اقصر جهودى على اللغات الميتة وهى لغات يدعها من نشاء كيف شاء بلا رقيب ولا حسيب •

مسابقاته مع طه حسين ومع أحمد أمين هي أضخم مسابقاته وقد أعبر صمت معارضييه عنه نصرا له . غير أن الدكتور « زكي مبارك » بدأ يفقد خاصيته هذه بعد قليل . فقد انهزم في معرته النقد الأدبي مع السباعي بيومي عام ١٩٤١ . أما مسابقات عام ١٩٤٤ . وما بعدها (تلك التي أثارها محمد العمراوى ودرينى حشبه « حول الشر الفنى والتصفوف الاسلامى » فان « زكى مبارك » لم يدخلها . ولم يجد فى نفسه الجرأة لخلع ثيابه . ولبس ثياب مصارعة الثيران التي كان يرتديها دائما فى الفترة الوسطى من حياته (١٩٣١ - ١٩٤٠) .

ولقد أحس بعد عودته من العراق بأنه لم يعد فى قوته أو كفايته الأولى . فأخذ يردد قصة بطولاته فى النقد :

« متى تعود أيامى فأناضل كما كنت أناضل فى الجرائد والمجلات؟
متى يكون لى خصوم كالذين كانوا فى الأيام الخليات ؟

متى يكون لى خصوم أصاويلهم وأنصر عليهم من أمثال طه حسين ، وإبراهيم المنزى ، وعلى الجرم ، ومصطفى ابراهيمى ، وأحمد زكى (بأسا) ومحمد لطفى جمعة ، وعبد الله عيسى ، وعبد العزيز البشرى ، ومحمد فريد وجدى ، ومحمد عبد المطلب ، ومحمد خالد ، وأحمد أمين ، ومن اليهم من أقطاب الرجال ؟

أفى الحق أنى صرت كالبيع الذى يخوفون به الأطفال .

لقد أصبحت أعانى الوحشة والغربة فى وطنى بسبب التهمة الشنيعة:
تهمة الشره الى أكل لحوم الناقدين .

•• يعز على ، أن تغلق فى وجهى ميادين كثيرة بسبب ماشاع وذاع من غرامى بالمشاغبات . يعز على أن تسوا أن مشاغباتى انقطعت عن الحياة الأدبية بضع سنين . •

ويروى كيف أنه خوفا من مشاغباته اعتذر الدكتور طه حسين عن رئاسة اللجنة التى أدى أمامها امتحان الدكتوراه فى الجامعة المصرية

(بحجة أنى رجل غير مصقول) وأننى قد أخرج على قواعد الذوق فى
المنافسة العلنية فأخرج عبيد كليه الآداب أمم الجمهور » .

بدأ زكى مبارك معاركه بعد مائة رسالة (الأخلاق عن الغزالي)
عام ١٩٢٤ ولكن الفترة التى تلت ذلك حتى سافر الى باريس لم تكن
الافرة استعداد لم ينشر خلالها الا بضع مقالات متفرقة فى البلاغ
الأسبوعى ..

أما مقالاته فى باريس خلال فترة اقامته فلم تكن فى الأغلب الا
فصولا من كذبه النشر الفنى ، وبعض خواصر ومشاعر وصور عن الحياة
فى باريس . ولكنه ماكد يعود من باريس حتى كان قد أعد حملة ضخمة
تعتبر استعدادا لمعركة طويلة من النقد الأدبى ، امتدت سنوات وسنوات ..

فكتب مقالا فى البلاغ فى ٢٤ من يولييه ١٩٣١ :

« قلمى بين الصدا والصقل »

« ان قول الحق لم يدع لى سديقه ، أكرم بن صيغى »

« الغرض الذى أرمى اليه هو تكوين جيل جديد يعترف بالآداب
العربية كما يعترف الفرنسيون والانجليز والألمان بالآداب الفرنسية
والانجليزية والألمانية . فقد جنت تلك الدراسات الضعيفة غير الثموية
أشنع جنابة على اللغة العربية وانصرف شبابنا الى اللغات الاجنبية
يستوحونها فى كل ما يحس القلب والعقل والروح . وسيرى شبابنا بعد
الدرس أن لنا أدبا يشرفنا بين العالمين . وأن لنا أسلافا جديرين بالاعزاز
والتمجيد »

« سأروع بعض الآمنين من رجال الأزهر والجامعة المصرية ووزارة
المعارف . ففى تلك الديار ناس يأكلون العيش باسم العلم والأدب ثم
لا يقدمون ولا يؤخرون فى دنيا ولا دين »

لقد قامت ثورتان فى مصر لكتابين اثنين : أولهما « كتاب الاسلام
وأصول الحكم » للاستاذ على عبد الرازق . وثانيهما « كتاب الشمر

الجاهلي ، ولد نور صه حسين . وقد بين بعد هذا الهياج واللبج ان الكتاب الاول اوجد ما اوجد من الثورة لان مؤلفه كان يعارض بعض الهيئات . وان الكتاب الثانى اثار ما اثار من الشر لأن مؤلفه اساء التعبير ، وهو يتحدث عن التوراة والقران . لقد صدر كتاب الاسلام وأصول الحكم منذ سبعة اعوام فهل عقب عليه مؤلفه بشئ جديد ؟ كلا .

وكتاب الشعر الجاهلي صدر منذ ستة أعوام فهل شفعه المؤلف بكتاب طريف ؟ كلا . ان الاستاذ « على عبد الرازق » قوة فعالة ولكنه انهزم للصدمة الاولى . فلاذ بالسكوت . والدكتور طه حسين قوة من قوى الذكاء والانتاج ، ولكنه تحول الى رجل حذر ، تقوم الدنيا وتقع ، فلا يتحرك ولا يتور . .

ويلق زكى مبارك على أن النقد قد حمله متاعب كثيرة في رزقه وحياته فيقول : « الناقد الصريح في مصر يتعرض رزقه ومعاشه لضروب من الزعزعة والاضطهاد وقد يتعرض مسلكه في الحياة الى سفاهة القيل والقال . وفي مصر عبارة مألوفة حين تظهر مقالة نقدية : وهي « ما الذى بين فلان وفلان ؟ » ومعنى ذلك أن الناقد لا يتعرض لمؤلف الا كان فى صورة غرض خاص .

أضخم معركة خاضها زكى مبارك

المعركة مع طه حسين

تعد معركة زكى مبارك مع طه حسين أضخم معركة خاضها مبارك فى حياته الأدبية . فهى معركة ممتدة تبدأ جذورها منذ قصد مبارك الى باريس وحمل على آراء طه حسين فى رسالته (النثر الفنى) . فلما عاد أنكر طه حسين كتاب « النثر الفنى » ولما سئل عنه : وهو المجلد الضخم الذى يقع فى أكثر من ٩٠٠ صفحة من القطع الكبير والذى أنفق زكى مبارك فى اعداده سنوات ٠٠ قال طه حسين : « كتاب من الكتب ألفه

كتب من انتداب ، • هنالك انضج باب النقد على مصراعيه • وقد مضى
فكي مبارك يساجل طه حسين ويصوله • دون ان يدخلي طه حسين بالسجل
وقد استمرت المعركة ، سنوات ، وسنوات • وقد استصعبت ان اجمع
فصولا منها ، تكاد ترسم صورة كاملة لها • وهي تبدأ من ١١ من نوفمبر
١٩٣٢ الى أول ديسمبر ١٩٤١ - وهي فترة لاتعد عن عشر سنوات • في
خلال ذلك حدثت مضاعفات ، فقد عاد مبارك الى منصبه في الجامعة
سنة ١٩٣٣ ابان الفترة التي كان طه حسين فيها خارج الجامعة • فلما عاد
طه حسين ١٩٣٤ رفض تجديد عقد مبارك ، فأمر زكي مبارك • وكتب
مقاله : « طه حسين : بين اتهم والعقوب » • وول كلمته المعروفة : « لو
جاع أولادى لشويت طه حسين وأطعمتهم لحمه » •

فلما أخرج زكي مبارك من الجامعة اهتز لذلك أقرب الناس صداقة
لطه حسين • وفي مقدمتهم المازني • • هنالك دخلت المعركة فى أفسى
صورها • فقد بدأ زكي مبارك مجموعة مقالات فى « الصباح » ابتداء من
العدد ٢٣ من أغسطس سنة ١٩٣٥ •

واستمرت تحت عنوان « مثل من جهل طه حسين » (١٣ من سبتمبر
١٩٣٥) « المثال الثانى من جهل طه » • • (٢٠ من سبتمبر ١٩٣٥) « المثال
الثالث » • • (٤ من اكتوبر ١٩٣٥) « المثال الرابع » (١١ من اكتوبر ١٩٣٥)
« المثال الخامس » • • (٢٥ من اكتوبر ١٩٣٥) • • « لو جاع أولادى » • •
(١٧ من يناير ١٩٣٦) •

ولقد حاولت أن أصور المعركة بنزاهه • ولكنى لم أنشر كل مالى
من وثائق وقد سجل طه حسين عن زكي مبارك عبارته المعروفة (الرجل
الذى لا يخطو الى كلمة الا احتال على رأسه عفريت) فكيف استقبل
مبارك هذه العبارة ؟ قال :

« الرجل الذى لا يخطو الى فلمه الا احتال على رأسه عفريت : تلك
كلمتك وأنا عنها راى وبها مختال • فما العفريت الذى يحتل رأسى حين
أخطو الى قلمى ؟ »

أَيكون هو الحق الذي سماه الفرنسيون Génie • إن كان ذلك فانت تشهد لي بالعقريّة ، والقول ماقل طه حسين • وهل تكون العقريّة الا من نصيب من يخاصم رجلا مثلك في سبيل الحق ؟ وما المنفعة التي أرجوها من مخاصمتك وأنت رجل يضر وينفع ؟ •

وفد تعددت مناوشات زكي مبارك عن طه حسين ، حتى ليوشك أن يرى الناقد أنه قد شغل نفسه شغلا جما بهذا الكتاب ، الذي كان مثله الأعلى في مستهل حياته ، والذي حرص أن يسبقه بالحصول على عدد أكبر من شهادات الدكتوراه : ومن ذلك عباراته المتعددة : يقول : « زعمت مجلة الحديث الحليّة أن الدكتور طه أكبر أديب • فقلت ان الدكتور طه أشهر أديب وليس أكبر أديب • »

ويقول : سييت الدكتور طه مؤرقا لأنه سيذكر أنه لم يؤلف كتابا في قوة كتاب الشر الفني •

ويذكر طه حسين بصداقته القديمة دائما وفي أكثر من مناسبة :

« وهل تذكر يدكتور ما وقع في نوفمبر سنة ١٩١٩ ؟ هل تذكر ما وقع يوم غاب سكرتيرك وكنت وحدى الطالب الذي يفهم العبارة الفرنسيّة لكتاب نظام الأتنيين لأرسططسليس ؟ هل تذكر أنك أعلنت سرورك بأن يكون في طلبة الجامعة المصريّة من يفهم أسرار اللغسة الفرنسيّة ؟ » ويستطيل زكي مبارك على طه حسين فيقول انه طلبه بالتليفون ليسأله عن معنى كلمة « زمالك » بمناسبة أن الدكتور طه يقيم بالزمالك فقال : لا أعرف يا دكتور زكي • فقال له مبارك : « ان الزمالك جمع زمك (بضم الزاي) وهى كلمة ألبانية • والأصل فيها أن « محمد على » أسكن جنوده في تلك البقعة في مواسم الاصطيف • والزمك هى الخيمة في اللغة الألبانية •

« ثم يراوح طه حسين ويناديه في مسألة امدرة الشعر : يقول :

« أشمت ان امدرة الشعر بعد شوقي قد انتقلت الى العراق • أخطأت بلسيدى الدكتور ، ان الشعر لمصر الى آخر الزمان • أنت نفسك حاولت

أن تدمر عن ذنبك فخلعت امره اشعر على . لاسند اعداد . وهو اديب
فاضل . بدليل انك اهديت أحد كتبك اليه ، ونكه شعر صغير باقيس
الى العبقريّة المصريّة .

ومن ناحية أخرى يعلن زكي مبارك أن « صه حسين » قد يقع من
وقت الى وقت في خطأ كبير حين يقطع ما بينه وبين أصدءه لايجود بامثالهم
الزمان .

وفي الصفحات التالية تكشف المناجلة مع صه حسين عن حقائق
واضحة : هي عنف زكي مبارك وشراسته في النقد . ولكنها تبدو في
تضاعيف الصورة قلباً لا يعرف العدوان . ولكنه يتردد في رد الأذى
بأعنف منه .

أول قضية كانت موضع اختلاف بين طه حسين وزكي مبارك ، هي
نزعة تمجيد اليونان . وقد سجل زكي مبارك هذا في بحث قال فيه :

« سائر الدكتور طه الباحثين الاوربيين في القول بأن الثقافة الأوربية
هي مصدر الثقافة الانسانية . وأن الناس في اشرق والغرب وفي جميع
الأجيال مدينون لثقافة اليونان .

وانحق أن للدكتور صه حسين عمداً في امسيرة . فقد قرأ كتباً ترى
هذا الرأي . ولو تريث لعرف أن هـ كتب أجدر من ملك الكتب بالخليص
وهي الكتب التي ترى أن المعارف اليونانية منقولة من المعارف المصرية . وأن
فلاسفة اليونان لم يكونوا الا تلاميذ لفلاسفة مصر القدماء . »

ثم عاد زكي مبارك الى تناول الموضوع بعمق وتوسع .

« قال طه حسين » : ان الأدب الذي يمثل المركز الأول بين الآداب
القديمة هو الادب اليوناني ثم يجيء الأدب العربي .

ومن المجاملة المخدرة أن يعلن الدكتور طه أن الأدب العربي أقوى
من الأدب الفارسي واللاتيني .

الأدب اليوناني في المدن الاول ، هذا صحيح . ولكن ما رأى الدكتور
طه أن الأدب العربي له المكان الاول ايضا .

الأدب اليوناني له المكان الاول من اسحبه العاطفيه واتميلييه فانه في هذا
الباب يجتاز امتيازاً صريحاً لا يقبل الجدل ولا النزاع . والأدب العربي
له المكان الاول من الناحية الدينيه . فن البلاغه الدينيه باب هم من ابواب
البلاغات في الأدب القديم والحديث . فقد شغل ثلثائه مليون في العالم
شغلا موصولاً بأروع أثر في البلاغه الدينيه ممثلاً في القرآن . وعندنا
أدب الصوفيه . يستطيع باحث أن يزعم أن اليونان كان عندهم هذا
الصفاء في الجوانب الروحيه ؟ ..

الأدب العربي يسكت عنه الأوروبيون عامدين لانه يمثل الحضاره
الاسلاميه . وهى حضاره كانت نبغى اوربا هدمها منذ ازمان . ولانه من
جهة ثانية مصنوع في أكثر موضوعاته بصبغة الجد المرصين ، وأوربا قتت
بما في الأدب اليوناني من نزق وطيش وخلاعة ومجون . بدليل أن أكبر
شاعر شرقي راج أدبه في أوربا هو « عمر بن الخيام » لانه شاعر
اللذة والقلق والارتباب .

ويضاف الى هذا أن يقظة أوربا الحديثه اتفق وجودها في ازمان
كانت فيها الأمة العربيه منحدره الى مهوى الضعف والخمول . فلم
تستطع أن تقدم أدبها الى العالم تقديماً حسناً يصور ما كان له من روعة وجمال
وقال زكى مبارك : « ان العرب مازالوا أقوياء يخشى شرهم . وذكرياتهم
الأدبيه والعلميه والتشريعيه مقرونة بالاسلام . وكل أحياء لذكريات العرب
خليق بأنه يثير الزهو والكبرياء في نفوس الأمم الاسلاميه وهم يعرفون
ما صنعت تلك الأمم في الأيام الخوالي .

آثار العرب ترجع في صميمها الى التشريع . وهو من المعاني
الجافه التي لا يقبل عليها غير أهل الجد من كبار الباحثين . وليست كذلك
آثار اليونان فان معظمها يزجج في جوهره الى الأدب الصريح الذي يهيج
الاهواء ويثير الشهوات ، حتى ليتمكن أن يقال إن جمع الشهوات واللذات

الحسنة آخذها الاوربيون عن اليونان •• ان الغرب يمجّد ذكرىات اليونان
ولا يمجّد ذكرىات العرب ••

وقد عاد زكى مبارك الى تناول قضية اليونان عندما عرض لكتاب
قادة الفكر للدكتور طه فقل : كما ذكرنا من قبل :

• ساير الدكتور طه الباحثين الاوربيين فى القول بان الثقافة الاوربية
هى مصدر الثقافة الانسانية وأن النّس فى الشرق والغرب ، وفى جميع
الأجيال مدينون لثقافة اليونان •

والحق أن للدكتور طه عذرا فى هذه المسيرة فقد قرأ كتباً ترى
هذا الرأى • ولو أنه تراث لعرف أن هناك كتباً أجدر من تلك بالتلخيص
وهى الكتب التى ترى أن المعارف اليونانية منقولة من المعارف المصرية وأن
فلاسفة اليونان لم يكونوا الا تلاميذ لفلاسفة مصر القدماء •

وقل زكى مبارك فى مقاله : • ان ايمان الدكتور طه بهذا الرأى
يرجع الى تاريخ قديم • ففى نوفمبر ١٩١٩ قدم عبد الخلق ثروت
(باشا) الدكتور طه الى الجمهور فى قاعة المحاضرات بالجامعة المصرية •
فألقي المحاضرة الأولى • وقال فيها :

انه عزم على احياء التراث اليونانى ، لأنه يؤمن ايمانا جازما بأن مرجع
الفكر فى الشرق والغرب الى القدماء من مفكرى اليونان ••

طه حسين •• ان عقلية مصر عقلية يونانية وان الاسلام لم يغير تلك
العقلية •

زكى مبارك •• ان مصر ظلت ثلاثة عشر قرناً • وهى مؤمنة بالعقيدة
الاسلامية •

أما معركة الشر الفنى ، فانه عندما أصدر مبارك الشر الفنى ،
استقبله طه حسين بفتور بالغ • فقد سجل الشر الفنى عبارة عن طه حسين
مؤداها • ان هذا الرجل تربطنى به ألوف الذكرىات ، ترجع بعضها الى
العهد الذى كنت فيه مدرسا فى الجامعة المصرية القديمة • يوم كان

يصطنع العدل الذى يلبس توب العلم فى امتحان الطلاب • واروى ما يتصل
بيننا من الدكرات ما وقع فى ربيع سنة ١٩٢٦ ، يوم ظهر كتاب الشعر
الجهلى ، وتارت الأمة والحلومه والبرلمان • وكان اصدقؤه وزملاؤه بين
خائف يترقب ، وحاسد يتربص • وكنت وحدى صديقه الذى لا يهاب •
وزميله الذى لا يخون • ولكن حماسنى للفكرة التى ادافع عنها ، وغرام
الدكتور طه بتسفيها فى رسائله وأحاديثه ومحاضراته ، كانا مما حملنى
على مقاومته فى عنف وقوة ، حتى ليحسب القارىء أن بيننا عداوة سقيت
لأجلها القلم فطرات من السم الزعاف ، حين عرضت لدحض أرائه فى
فصول هذا الكتاب • ، ثم صور زكى مبارك القضية موضع الخلاف ،
فقال : « هناك رأى مثقل ياوزار ، الخطأ والضلال وهو رأى مسيو مرسيه
ومن شايعه كالدكتور طه حسين • وذلك الرأى يقضى بأن العرب فى
الجاهلية كانوا يعيشون عيشة أولية • والحياة الأولية لا توجب النثرالفنى
لأنه لغة العقل ، وقد تسمح بالشعر لأنه لغة العاطفة والخيال •

وهذا الرأى أعلنه مسيو مرسيه فى المحاضرة التى افتتح به —
محاضراته فى مدرسة اللغات الشرفية فى باريس منذ أعوام • ثم أذاعه
مطبوعا فى كراسة خاصة • وقد اختطف الدكتور طه هذا الرأى ، وأذاعه
فى دروسه بالجامعة المصرية ثم أثبتته فى كتاب (المجلد) • •

هذا جملة ما أورده زكى مبارك فى كتابه النثر الفنى عن رأى طه
حسين • فلما صدر الكتاب وتجاهله طه حسين ، بدأ هجوم مبارك عليه
على هذه الصورة •

• الدكتور طه لا يقدر على الانصاف • وهو لا ينصف حين ينصف
الا لحاجة فى النفس • وقد تقطعت بينى وبينه الأسباب منذ اعترفت كشف
ما تورط فيه من الأخطاء • والرجل لا يرضى الا عمن يؤمنون بأن باطله
أشرف من الحق • وأن خطئه أفضل من الصواب •

• أنا ما أسأت اليك بل أحسنت اليك بعض الاحسان ، حين دلت
القراء على أنك لم تتبكر ما تورطت فيه من الأخطاء • وانما هى أخطاء

جماعية من المستشرقين • فبعتهم بلا روية • فكأن عليهم اثم السنة السيئة وكان عليك اثم التقليد •

• كنت أنتظر أن تفرح بكتاب النثر الفني لأنه كما تعلم جهـد أعوام طوال • ولكن ، خب الظن وعرفت أنك كسائر الناس تقضب وتحقد • وكنت أرجو أن يكون عندك شيء من تسامح العلماء •

« تعال نحاسب يدسى العهد ، ويا منكر الجميل • لقد مرت أعوام لم يكن يذكر فيها بخير أحد غيري • وهل كن في أصحاب الأقلام من انبرى للدفاع عن طه حسين غير تلميذه وصديقه زكي مبارك؟! • لقد ذكرت بالخير في جميع مؤلفاتي • فهل يضع عندك كل هذا المعروف لأنني بددت أوهامك في كتاب « النثر الفني » •

راى الدكتور صه موفى يوم أخرجه وزير المعارف من كلية الآداب فقد دافعت عنه فى البلاغ دفاعاً ، م كان ينتظره • ولعله قد دهش منه • وكنت فى محضره ومفبه من المتفحين عه • لأن المروءة كانت تطالبنى بذلك • أفعجز الدكتور وهو أكبر منى سنا وأرفع صوتا عن مقابلة المروءة بالمروءة؟! •

• لقد كان يجب أن يكون الضمير العلمى أقوى وأمنع من أن تؤثر فيه الاحقاد اليومية • وكان يجب أن يكون العلماء أرفع من أن يخضعوا للأهواء والشهوات • وكان الدكتور طه أولى الناس وأجدرهم بأن يتخلق بالخلق الجميل •

ولم يلبث زكى مبارك أن عاد الى العراق ، فهاجم « طه حسين » بعد أن خرج من الجامعة فقال (١) :

أعلن الدكتور طه حسين بعد اخراج الشعر الجاهلى نداءً قال فيه : أشهد أنى أومن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ••

(١) البلاغ : ٢٣ من نوفمبر ١٩٣٤ مقال « طه حسين بين البغى والعقوق » كتاب البدائع ج ٢ ص ١٧٣ •

أنت تؤمن بالله وكتبه يا دكتور طه ، وأنت تكذب التوراة والقرآن
اعتمادا على رأى خاطئ ، سرقته من أحد المبشرين ؟! ••

• أنت لم تترك حزبا الا خدمته • ولا جريدة الا توددت اليها بعد
عديد من الرسائل الطوال •

• ذهبت الى باريس على نفقة الجامعة ، ومضيت أنا متوكلا على الله ••
ولم تكن رسالتك عن ابن خلدون الا نسخا من آراء مسيو كزانوفا ••
واتصلت أنا بمسيو مرسيه ففرضت عليه آرائى فرضا •

• وقف مسيو ماستيون يوم أديت امتحان الدكتوراه فقال : اننى حين
أقرأ بحث طه حسين أقول (هذه بضاعتنا ردت إلينا) • وحين أقرأ أبحاث
زكى مبارك أشعر بأنى أواجه شخصية جديدة •

• مضيت فنتهبت آراء المستشرقين • وتوغلت فسرفت حجج المبشرين •
وكان نصيبك ذلك التقرير الذى دمغتك به النيابة العامة • وأنت تعلم أنه ليس
لك رأى واحد وصلت اليه بعد جهد وبحت •••

• كنت لوحه اعلانات لاتذيع الرأى الا لتغيظ الجمهور ، ولتصبع
حديث الناس فى الأندية والجمععات •

• انت تعرف انى لم أنل القاب الجامعة « المصرية » بلا جهاد • وانت
أسقطتني فى امتحان الليسانس مرتين • واشتركت فى امتحان الدكتوراه
الذى أديته أول مرة مع انك لم تكن عضوا فى لجنة الامتحان • وكان
لخصومتك الصورية تأثير فى الدكتوراه - التى حظيت بها للمرة الثالثة ،
فلم اصل اليها الا بعد جهاد سبع سنين •

تم أعاد الهجوم على طه حسين فى البلاغ فى (١٥ من أغسطس ١٩٣٥)
• أما الأحقاد التى تلتطى فى صدر طه حسين فستقضى عليه شر قضاء ،
وتنكل به تنكيلا • ولن تدوم له أيام الطغيان • ولن يبقى له فلان وفلان •
والكرسى الذى يجلس عليه فى الجامعة هو أقل ما انتظره من الجزاء فى
المستقبل القريب • ان أعظم منصب فى الجامعة لاينلنى من المجد ما أنالنى

كتاب الشر الفسى • وستبيد أحجار الجامعة المصرية وتبيد ذكريات ، ثم يبقى ذلك الكتاب على مر الزمان • والذين يحاربونى لم يضمعوا فى محاربتى الا لظنهم انى رجل أعزل • لا انحز الى حزب من الاحزاب • وليس لى فى الحكومه عم ولا خل • ولكن خب ظنهم • فان الحق اعر وأقوى • ويرون كيف أنزلزل أرواحهم • وكيف املأ قلوبهم بلرعب • وكيف أريهم عواقب ما يصنعون •

ان النصر سيكون حليف من يصلون النهر بالليل فى تثقيف عقولهم • أما الثرثرة الفارغة التى يعتصم بها طه حسين فلن يكون لها فى عالم الجدد البقاء •

ولقد رسم زكى مبرك نصه اخراجه من الجامعة فى حديث طويل :
مؤداه :

• أنى بدأت أنوش الدكتور طه حسين منذ سنين ، حين تبينت أنه كالطبل الأجوف ، وأنه لايعرف من تاريخ الأدب العربى الا تشسورا عديمة المصداق • وكنت كلما هاجمته تذلل وضعف وخشى عتبة النضال • ثم اتفق انى عينت فى الجامعة المصرية فيدا له ان يشجع ويناوشنى ، ظنا منه أنى أخف من المناوشات ، احتفظا بمنصبى فى الجامعة • ودفعا لمغبات القتال • أمهلته قليلا • وتركته يصول فى مناوشتى ويجول • وكذلك أملت له حتى جاءت الموقعة الحاسمة ، يوم عين أحمد نجيب الهاللى ، وزيرا للمعارف • وكان يعرف الصلة التى بينه وبين نجيب الهاللى • وفى هذا ما يقوى المحالفة بين رجلين لهما خصم لاسند له بين الأحزاب ولا عم له فى الحكومة ولا خال •

فى تلك الايام أراد طه حسين أن يناوشنى • وكان يثق بآئى سأسكت فلا أجيب • ورأى فريق من (زملائى) فى الجامعة أن أسمح ، مراعاة للظروف فأقسمت لأجعله مثالا فى الآخرين • وكذلك كتبت مقال • طه حسين بين البغى والعقوق • ذلك المقال الذى أبكى طه حسين بالدمع السخين • وكان يظن أنه لن يعرف البكاء •

وعاد طه حسين الى الجامعة فى (زقة) لم يسمع بعثها منذ كان

يسكن في كفر الطماعين • وظن الناس أنني سألاينه وأداريه • ولكن
هيهات فقد تجاهلت عودته سبعة أيام إلى أن جمع بيننا مجلس اللغـة
العربية •

فور تلك الأثناء أراد الشيخ أمين الخولي أن يصلح بيننا ••• وكنت
أحسب أن لصلح لن يزيد على المصافحة وتبادل التحيات • ولكنني فوجئت
مفاجأة لم تخطر على بال • فإن الأستاذ أمين الخولي انتظر حتى اجتمع
بعض الزملاء ثم نهض فقال : هذه أول جلسة يحضرها الدكتور طه حسين
بعد عودته • وأنا أقترح أن تلقى كلمة ترحيب • وأفضل أن يلقيها
الدكتور زكي مبارك لأن بينهما أشياء يجب أن تزول •

وكان موقفا في غاية الحرج • ولكنني تخففت إذ كنت أعرف أن
العداوة التي بيني وبين الدكتور طه يصعب أن تزول • ومن الحزم ألا أقول
كلما ينطوى على تودد أو ترفق فوقفت ، وقلت :

• اني أرحب بعودة الدكتور طه • وقد (زاملته) من قبل ثلاث
سنين ، وكنت من قبل من تلاميذه الأوفياء • والذي وقع بيني وبينه
لم يكن فيه شيء خارج الا المقال الذي نشرته في البلاغ ، وهو مقال
أعرف أن فيه شيئا من الشطط ، ولكني لا أعذر عنه ، لأنه من بعض
ما علمني • ومن الخير أن يتناسى ما فات لان مصلحة العمل توجب
الوفاق • •

وقد ابتسم الاساتذة حين ذكرت أن الشطط كان من بعض ما علمني ،
وعدوها خطبة لبة فيها ترضية وفيها احتراش •

أما موقفي من جلسات قسم اللغة العربية فكان دائما موقف المعارضة
الصريحة لنزعات طه حسين • وكان لايسلم مني الا بأخذ الاصوات •
وكان أساتذة اللغة العربية لا يرون فائدة في معارضته إذ أنهم كانوا يعرفون
أن كل شيء مصيره إلى هواء بفضل الوسائل التي يعرفها الجميع •
لا أنكر أنني أسرفت • ولكن الأيام أرنتني أن الحزم كان أوجب •
ولولاه ما استطعت الآن أن أناقش من يزعم أنني قابلت الدكتور طه حسين

بالترحيب • وانه مع ذلك لم ينس ما كويت به جنيته من قوارع الشريب
ولم يغفر ما كشفت من سرقاته • وكان الناس يحسبونه من المبدعين •

وفي أوائل شهر مايو دعاني الدكتور منصور فهمي الى مكتبه • وقال:
أرسلت ادارة الجامعة تسأل عن تجديد العقد • والنظام يقضى بأخذ رأى
الدكتور طه حسين فاذهب يا بني وصف ما بينك وبينه وسأحفظ الخطاب
حتى يتم بينكما الصفاء فأجبت الدكتور منصور فهمي بما نصه :

• أنا على أتم استعداد لتصفية ما بيني وبين الدكتور طه • ولكني
لا أفعل ذلك في هذه الأيام • ولو أنك اقترحت ذلك منذ شهرين ، لقبّلت •
أما الآن فلا تسمح نفسي بمصافحة الدكتور طه • وأنا أعلم أن لذلك دافعا
من الغرض ، ومع ذلك ما الذي يزعجك يا سيدى العميد ؟ ••

أنظن أن الدكتور طه ينتهز هذه الفرصة ويتشفى منى • انه أعقل
من أن يقترب مثل هذا الانتقام المنفوخ • •

فابتسم الدكتور منصور ابتسامة مرة • وقال : • أنت يا بني تسرف
في حسن الظن بالناس • •

ولكن ما الذى حدث بعد ذلك ؟ : لقد اجتراً زكى مبارك على طه
حسين فى ادبه فحاربه طه فى رزقه • وقال حين طلب انيه تجديد عقده :
• أن لم أستشر فى تعيينه فلا أستشار فى تجديد عقده • •

وكتب المازنى مقالا قال فيه : « انى لأحدث نفسي أحياه بأبنى لو كنت
أقول الشعر فى هذه الأيام لرثيت طه حسين • فانه يخيل الى أنه قد مات •
طه حسين الذى عرفته وأحبته وأكبرته • وجاء غيره الذى أنكره • كم
كتب المازنى يعتب الدكتور « طه حسين » على فصل زكى مبارك من الجمعه
وقال « ان الدكتور طه حسين اصبح ممن يملكون اشباع البطون واجاعتها
وانه صار يضرب اللقمة التى ترتفع بها اليد الى الفم ، ويطيها ، فتسقط على
الأرض فتفوز بها الكلاب ويحرمها الانسان »

وقال زكى مبارك : ليس عينا أن يجوع المرء وانما العيب أن يكسب
الانسان الرزق على حساب المروءة والرجولة والشرف والكرامة • •

• الذى بيننا لم يكن خلافاً فى رأى • وإنما هو قتل غيف بين
شخصين • فالدكتور طه يرى أننى كنت تلميذه • ومن واجب التلميذ فيما
يزعم الا يخالف الأستاذ • أما أنا فأرى الدكتور طه رجلاً قليل العلم
والمعرفة بالأدب العربى • وأراه استمراً السطو على آراء المستشرقين •
وأراه فى حياته العلمية نموذجاً للفوضى والقلق والاضطراب • فقد يقولون
وكيف سكنت زكى مبارك عن نشر عيوب طه حسين ، وهو يصاحبه منذ
خمس عشرة عاماً •

وأجيب بأن الدكتور طه ابتداءً التدريس فى الجامعة المصرية قبل أن
تقدم الدراسات الأدبية • فكان منذ سنين مستور العيوب • على أن الخواص
يعرفون أننى بدأت أعارضه منذ سنة ١٩٢٧ حين اطلعت على عجزه
الفاضح ، وعرفت أنه يعيش من سرقة آراء الأدباء والعلماء •

وأنتم تعرفون أننى رجل صريح لم تستطع الايام أن تروضنى على
المجاملة والمداراة • فلم يكن خفياً أن يعرف الدكتور طه أننى لا أحترمه
ولا أحترم مسالكة الأدبية • ولا أحترم تهالكة الفاحش على موائد الأحزاب
وكذلك هدته غريزته الى وجوب محاربتى فى عملى فى الجامعة المصرية •
وساعده على ذلك ناس كنت شجاً فى حلوقهم • وكان هو فى أنفسهم مثل
الخدام الأمين •

فإن كان الدكتور طه قد انتصر حين وجد من يساعدونه على اخراجى
من الجامعة ، وليتذكر • من عونوه على شفاء صدره أن انتصارهم
ليس الا هزيمة شنعاء وسوف تعلمون •

« لقد انكشف أمر طه حسين حين أصدرت كتاب « النشر الفنى »
وقد بينت أغلاطه وسرقاته • وتحديثه أن يدافع عن نفسه • فتخذلت قواه
ولم يملك الجواب • وعرف الأدباء فى المشرق والمغرب أنه لا يملك شيئاً
أصيلاً • وأن مؤلفاته ليست الا هلاهيل انتزعها من كلام الناس وأن ما يدعيه
من الآراء ليس الا صوراً ملفقة انتزعها مما يقرأ ويسمع •

• ان قلمى ليس الا محنة صباها الله على طه حسين • ولعله انتقام

من الله صوبه الى صدر ذلك الشخص الذى اجترأ على التوراة والقرآن •
واستطاع ان يقول فى وقاحة (للتوراة أن تحدث • وللقرآن أن يحدثنا)
كأن العلم لا يكون الا حيث تقع مساقط هواه • أما التوراة والقرآن فهما
ظنون فى ظنون • طه حسين جاهل • سبحانه الله وكيف يكون جهلا •
وهو رئيس قسم اللغة العربية بالجامعة المصرية ؛ من الذى وضع طه حسين
فى ذلك المنصب ؛ ان الذى وضعه فيه هو أحمد لطفي السيد مدير الجامعة
المصرية • ولطفي السيد ليس حجة فى الأدب العربى • ولم ير فى حياته
جامعة أوربية حتى يعرف كيف تكون الدراسات العالية •

• ان هذا الرجل لم يكن فى جميع أدوار حياته العلمية الا مرتزقا
يلمس فتات العلماء كلما نصبوا موائدهم • أو أوقدوا نرهم • ولم يستطع
حتى اليوم أن يواجه تلاميذه ببحث أصيل ، يشعرهم بأنه من أهل الفكر
والبيان •

• أسارع فأقرر بأن طه حسين لم يكن يوما من المفكرين • وإنما
هو أسيب عليل الفكر تأيل الاطلاع • نشأ فى أوقات لم يكن يعرف الناس
فيها غير المجالات الأساسية • وكان النقد فيها قليلا ، فتظاهر بالعلم ، فظنه
القراء من العلماء •

لم يقرأ فى حياته كتابا كاملا ، وإنما قرأ فقرات من هنا ومن هناك ،
وأخذ يشطح ذات اليمين وذات الشمال ، الى أن اتصل بالمرحوم ثروت
باشا فوضعه فى الجامعة المصرية •

• ظل طول عمره ظلا من الظلال فى عالم السياسة • ولم يترك
حزبا الا خدمه ، ودبج فى تقريله ألوانا من الرسائل الطوال • والاتجاه
السياسى صورة من الاتجاه العقلى • والرجل الذى يتردد بين المذاهب
السياسية لا يبعد أن يعيش فريسة الحيرة بين المذاهب الأدبية • وقد انفق
للرجل الصالح جدا ، طه حسين ، أن يخدم قبل الحرب ثلاثة أحزاب :
وأن يخدم بعد الحرب أربعة أحزاب • وحظته من الثبات فى المذاهب
الأدبية يشبه حظه فى الثبات على المذاهب السياسية : تردد هنا ، وحيرة
هناك •

♦ كيف ينظر الحفدة الى تاريخ الجامعة المصرية حين يعرفون أن أكبر أستاذ فيها ، لم تقم استاذيته الا بفضل انتهاب آثار المستشرقين ؟

♦ ان (١) أطفالي لو جاءوا لشويت طه حسين وأطعمتهم من لحمه .

على أن من بين أسباب الخصومة بين طه حسين وزكى مبارك :
ما أوضحه زكى مبارك :

♦ ترجم لأبى العلاء فأفلح ، ثم ترجم للمتبى فأخفق .

♦ أخرج الجزء الأول من الأيم فكان أعجوبة ثم فتر فى الجزء
الثانى .

♦ والجزء الأول من هامش السيرة سفر نفيس ، أما الجزء الثانى ، فهو أيضا « سفر نفيس » .

♦ كان أستاذا فى الجامعة المصرية القديمة أستاذا عظيما أما فى الجامعة المصرية الجديدة فهو استاذ هيوب يستر كسسه الجميل بالتماضى عن ضعف الطلاب .

♦ وأمره فى الصداقة أعجب من العجب ، فهو يؤاخذك ويصافيك ،
لى أن تظن انه قطعة من قلبك . ثم يتحول فى مثل ومضة البرق الى عدو
مين .

على الرغم من ضعفه فى الاضطلاع بتكاليف المواهب رجل كذاب
لأنه معسول الحديث ولأنه قد يصدق فى الحب وفى البغض ، إلا أنه
تهديه حاسة النفع الى أن يعادى من يصادق ، ويصادق من يعادى ، كالذى
صنع فى طوافه بأركان الأحزاب .

♦ ما سبب الخصومة بينى وبينك ؟

منذ أكثر من سبعة أعوام القيت محاضرة فى الجامعه
الامريكية عن (البحرى) وسجلتها جريدة كوكب الشرق وشاء (العفريت

(١) ١٨ من اكتوبر ١٩٣٥ - الصباح .

الذى يحتل رأسى حين أخلو الى فلمى) أن اشترى فى جريدة البلاغ مقالا عنوانه (الدكتور طه حسين يغلف خمس مرات فقط فى محاضرة واحدة)

ثم لقيتني بعد ذلك فى الجامعة الأمريكية • وجادلتنى فى تلك الأغلاط • فأعلنت انى أخطأت • وكان ذلك لأن الجمهور احاط بنا من كل جانب ليرى كيف أدفع هجومك وما كن يجوز لى أن أصنع غير الذى صنعت • لأن أدبى لا يسمح لى بمصاويلك أمام الناس • لأن وجهك يشفع لك • فهو وجه لا يلقاه الرجل الحر بغير الاعزاز والتجميل •

فما الذى صنعت انت فى تصحيح الاغلاط التى أخذته عليك ؟ مضيت فشرت محاضرتك عن انبجترى فى كتابك (حديد النثر وانشعر) وأبقيت تلك الاغلاط ، استغفر الله ، بل تفضلت فشككت الكلمات المغلوطة لتقول انك لا تعبأ بأى نقد يوجه اليك • فما الذى كن يمنع من تدارك تلك الاغلاط ؟

وما الذى كن يسع من شرح رأيك فى ايهامش ان كنت تؤمن بانى بم أكن على حق ثم مدا ؟ ثم حدث فى صيف سنة ١٩٢٩ أن انكرت على أن اتخذ شواهد لتطور النثر الفنى من رسائل عبد الحميد بن يحيى ، وفنت ان عبد الحميد بن يحيى شخصية خرافية كشخصية امرى • القيس • وكان ذلك بمسمع من شاين واعين هما محمد مندور وعلى حافظ •

وكانت حجبت أن عبد الحميد بن يحيى لم يرد اسمه فى مؤلفات الجاحظ ، فرجعت اليك بعد أيام ، وأخبرت أن الجاحظ تكلم عن عبد الحميد بن يحيى مرات كثيرة • وأن مؤلفات الجاحظ تعرف رجلين أحدهما عبد الحميد الأكبر والثانى عبد الحميد الأصغر فلم تجب بحرف واحد ، ثم ألفت وأنا فى باريس محاضرة قلت فيها : ان عبد الحميد بن يحيى احد شيئا من أدب اليونان • وفاتك أن تنص على اسم الرجل الذى أفتك بأنه لم يكن شخصية خرافية •

وقد حملنى العفريت الذى يملك رأسى حين أخلو الى فلمى ، على أن أسجل هذه القضية ، فى أحد هوامش كتاب النثر الفنى ، فكانت

فرصة اغتنمها صديقك الأستاذ أحمد أمين ، ليقول فى مقال كتبه فى مجلة الرسالة : ان زكى مبارك يعوزه الذوق فى بعض الاحيان •

♦ أنا أعرف ما تكره منى • أنت تكره منى الكبرياء • وكيف اتواضع ، وقد أعاننى الله على بناء نفسى ؟ وكيف وقد أقمت الدليل على أن الشباب المصرى خلىق بعظمة الاعتماد على النفس وهل رأيت رجلا مثلى ينهض بأوطار الشباب وهو مشخن بجراح الزمان بعد الاربعين • هل رأيت رجلا قبلى يؤلف الكتب الجديدة فى البواخر والقطارات والسيارات ؟ ومن يصدق أنى أنفق فى سبيل الورق والمداد أضعاف ما ينفق بعض الناس نى سبيل الطعام والشراب ؟!

قصة احمد اسديك

عاد زكى مبارك الى مناوشة طه حسين بأسلوب جديد ، حاول فيه أن يسجل بداية اتجاه طه حسين الى كتابة التاريخ الاسلامى ، فقال :

فى شهر يوليو ١٩٢٨ تلقيت وأنا فى باريس خطبا من الأستاذ الدكتور طه حسين جاء فيه عبارة « أحمد الله اليك » فالتفت ذهنى الى هذه العبارة لأنها لم تكن من العبارات المألوفة فى رسائله • وقلت لنفسى : من أين وصل هذا التعبير الى الدكتور طه حسين ، وهو فى هذه الأيام يعيش فى جيرايرير • وصح عندى بعد التأمل أن الدكتور طه قد يكون مشغولا بمراجعات كتاب يتصل بالسيرة النبوية لأن عبارة « أحمد الله اليك » تكثر فى الرسائل المأثورة فى عصر النبوة وعصر الخلفاء •

وبعد أعوام أخرج الدكتور طه كتابه • على هامش السيرة ، وتفضل فأهدى الى نسخة مهمورة بعبارة كريمة من عبارات الاهداء • وكنت حينئذ أحرر الصفحة الأدبية فى جريدة البلاغ • فرأيت أن أتحدث عنه الى قرائى بعناية تحملمهم على اقتناء ذلك الكتاب تحقيقا للتضامن بين المؤلفين •

فماذا قلت ؟ قلت : ان الدكتور طه حسين اعظم الاجدة حين يروى
فى التأليف وكتابه الجديد أثر من آثاره الجيدة فى زوية فهو مشغول
بموضوعه منذ ١٩٢٨ وان لم يقل ذلك ، فقد كتب الى حبيب فى شهر يويه
من تلك السنة ، يقول فيه : احمد الله اليك • وقد فهمت من هذه العبارة انه
كان مشغولا بدراسات تتصل بالسيرة النبوية • وكذلك عرفت أن الظن قد
بلغ درجة اليقين وقد يقوم مقام المعاينة عند صدق الاحساس •

فكيف استقبل الدكتور طه هذا التقريظ انظريف ؟ ..

مضى يقول : هذا اختراع جديد من اختراعات زكى مبارك
فى الأسماء ، والاحاديث • فليس من المعقول أن أكتب اليه خطاباً أقول
فيه : « احمد الله اليك » وهى ليست من عبارات هذا الجيل •
ولقيني بعد ذلك فجدد استغربه من العبارة التى نسبتها اليه •
فقلت : انها حق ، فقال : انها من المستحيلات •

ومضيت أبحث عن ذلك الخطب فلم أهد اليه ، لأن الدنيا كانت
اسرمت فى اللجاجة واللدن فنقلتنى من أحوال الى أحوال • وبعثت
ما كنت احرص عليه من رسائل الاهل والاصدقاء • وعدت الى مكتبى
بالقلب والاعلال ، فلم يبق أمل فى الوصول الى نص الخطاب المشود •
ثم أخذت أتحدث فى مقالتي ومؤلفاتي عن أشياء وقعت بينى وبين الدكتور
طه حسين • فكان اذا سئل عن بعض تلك الأشياء أجاب بأنها اختراع من
نوع « احمد الله اليك » •

ومنذ أيام مضيت لمقابلة (سعدة) الأستاذ الجليل الدكتور عبيد
الرزاق أحمد السنهورى (بك) • وفى يدي نسخة مهداة اليه ، من كتب
الأسماء والاحاديث • فوجدت الدكتور طه هناك • وسألنى السنهورى
(بك) عن أغراض الكتاب • فقلت فيه (أقوالا) فاه بها الدكتور طه
ولم ينشرها • فنشرتها عنه ، على نحو ما كان يصنع أفلاطون مع سقراط
واللطف الملحوظ فى هذه العبارة لم يمنع الدكتور طه من أن يقول : لا بد
أن تكون اختراعات من طراز « احمد الله اليك » •

وسألني السهوري عن القصة فأجملتها في كلمات فصار ، فرارا من الدخول في جدل جديد ، مع الدكتور طه ، فقال وهو يتسهم : يجب ان يكون الخطاب صحيحا ، مادمت تحدثت عنه في البلاغ . فقلت : وان وجدت وصل الخطاب . فقال الدكتور طه : ان وجدته فسيكون بخطك . فقلت : وان كان بخط توفيق شحاتة سكرتيرك ؟ قال : هذا مستحيل . فقلت : « وهل عندك مانع من أن تحمد الله الى ؟ »

فقال : أنا أحمد الله في كل وقت ، ولكني لا أذكر اني حمدته اليك . ثم انصرفت وقد اطمأن من حضروا هذا الحوار الى أنني أتزيد على الناس حين أشاء .

أين ذلك الخطاب ، وأين أنا من سنة ١٩٢٨ . وقد شرقت وغربت وانتقلت من دار الى دار وبشرت أوراقى مئات المرات .

الى يا أوراقى . الى الى . فقد طال عهدك بالحجاب . ورجعت الى تلك الأوراق ..

هذه أوراق وأوراق وأوراق . هذه مئات من الرسائل ، التي تشهد بأنني كنت على صلات مع أرواح جاذبتها زمنا أطراف المحبة والعتاب . ثم تشاء الأقدار أن أجد الخطاب المنشود ، وبخط توفيق شحاتة ، الذي صار من أيام « دكتوراه في الحقوق من الجامعة المصرية » .

تشاء الأقدار أن أجد الخطاب الذي يقول :

« أحمد الله اليك ، على ما أنت فيه من رضا بالاقامة في باريس ، وأتمنى لك المزيد من هذا الرضا . كما أتمنى أن تنتفع بأيامك في فرنسا الى أبعد حد ممكن وتقبل من السيدة ومنى تحية خالصة . وشكرا جميلا . » وتاريخ الخطاب ٢٦ من يولية ١٩٢٨ .

ثم تشاء الأقدار أن أجد خطابا للدكتور طه كتبه الى من الاسكندرية وفيه يقول : « صديقي العزيز الدكتور زكي مبارك .

أنا مدين لك بشكر كثير . فقد قرأت كتابك وتسلمت السفارين اللذين تفضلت بارسالهما الى . ولست أدري كيف أشكر لك عنايتك

بفلسفته ابن خلدون • وأنا مفتنع فيما بينى وبين بقى بابها لا تستحق
هذه العناية • ومع ذلك فسأشترى المقطع منذ اليوم لأفرا ما تكتب ، لأنك
انت الذى سلكه • لا لى انا موضوعه • ودر ما ارجوه ان تصدر
فيما تكتبه عن احريه اصدقه القاسية لا عن الاخء والمودة اللدين يدفع
فى كثير من الاحيان الى شىء من الرفق لا يحلو من اثم • وانا اعيد
اصدقائى من ان ينورطوا من اجل فى اثم الاسراف فى البر ، كما اكره ان
ينورطوا فى اثم العقوف •

وأنا ارجو ان تكون بخير مطمئن النفس ، وان تكتب الى فى شىء
من الاطالة والحرية • فان كتبك وأحاديثك تقع من نفسى دائما موقعا
حسنا • وليس لدى الآن ما يشغلنى عن قراءة كتبك • فانا أقضى ما بقى
من أيام الراحة فى قراءة متفرقة ، لانظام لها ، ولا نفع فيها •
طه حسين

فان قبل ، وكيف أمكن بعد ذلك الوداد الوثيق ، أن تفسد العلائق
بينى وبين الدكتور طه ، فانى أجيب بأن لله حكمة فيما وقع بينى وبين
ذلك الصديق ، لم يكن بد من خصومة أتخذ منها فرصة لتوجيه
الجمهور الى الحقائق الأدبية • وكذلك خصمت عددا من رجال الأدب
كان أظهرهم الدكتور طه حسين • وأنا اليوم فى حياد • أو أنتى غير
محارب • وهما حالتان متقاربتان • فمتى أخلق خصومات جديدة أذكرى
بهم نار الأدب من جديد ؟

يا دكتور طه

ان كنت أنكرت أن تحمد الله الى ، فخطابك تحت يدي ، أقدمه إليك
حين تشاء • فان لم تحمد الله الى ، فانا (أحمده البك) • •

وعاد زكى مبارك يكتب مرة أخرى عن طه حسين • ويربط بين
عمامته وبين نزعة اليونانية فقال : صبر الدكتور طه على عمامته بعد فراق
الأزهر بأعوام قصار أو طوال ، فأدى امتحان الدكتوراه بالجامعة المصرية
فى ١٩١٤ وهو معمم وأقلته الباخرة من الاسكندرية الى مارسيليا وهو
معمم • ولكن ركاب تلك الباخرة قد التفوا مدهوشين الى شىء يقع فى
البحر • وقد ألقاه صاحبه فى عنف فما كان ذلك الشىء الا عمامة طه حسين •

وقد تحدث الدكتور طه مع احد اصحابه بان له لم يندم على شيء لما
ندم على رمي عمالته في عرض المحيط ، ولندن الواقع غير ذلك . الواقع
ان الدكتور طه قد ولد وعلى رأسه «برنيطة» وقد حدثني مرة أنه يرجع
الى اسلافه القدماء من اليونان فان لم يصح ذلك ، فهو في نزعة اليونانية
مدین لرواية ألفها الشاعر أحمد شوقي ، واسمها
« ورفة الآس » وفيها تمجيد لليونان (حدثني الدكتور طه بذلك
في أحد الأيام من عام ١٩٢٢ ولهذا وذاك صلة بانتقل الرجل من حال الى احوال
فقد انحدر من اسرة اكثرها مشايخ . ولكنه مع ذلك يحيا حياة مدينية
منقطعة عن حياة المشايخ تمام الانقطاع والنص على هذا الانقلاب واجب
لأنه يفسر ما خفي من اسرار الوحى في اتجاهاته الادبية والاجتماعية
هذا رجل بعيد الصلة بين حاضره وماضيه ، لأنه سريع القفز والوثب .
ولأنه على وفاق مع ضميره الفنى والأدبى . فهو يسايره الى حيث يريدوهو
يجزع من العزلة ويفزع من الانفراد . كن مع الدستوريين وهم يقتلون
الوفديين . وكان مع الوفديين وهم يقتلون الأحزاب أجمعين . فاذا انجلت
المعارك السياسية وانقطع الى الحياة العلمية كان من الواجب أن يخلق أزمة
جامعية . فاذا نقل من الجامعة الى وزارة المعارف كان من المحتم أن يخلق
مشكلة في وزارة المعارف .

فالذى ينظر الى الأمور نظرة سطحية يحكم بأن الدكتور طه رجل
متغير متحول . أما الذى ينظر نظر المدقق فيرى التغير والتحول من صور
الثبات والاستقرار بالنسبة اليه ، لأنهما يؤديان وظيفة أساسية في حياته
اليومية .

ومن الجائز أن يكون لهذه النزعة دخل في هيامه بالفروض
والحدوث ، وهو يساور الأبحاث الادبية والتاريخية . فمؤلفاته في أغلب
أحوالها قليلة التعمق ، لأن التعمق يوجب أن يقف على البحث الواحد
عاما أو عامين . والوقوف يضايقه بعض الشيء ، لأنه يصرفه عن التحول
والانتقال بين المعانى والآراء .

زار الدكتور طه باريس ، وأنا هناك ، فلما مضيت للتسليم عليه ،

أدهشنى أن أجده فى غرفه تطل على ميدان الأوسرفنوار • وهو ميدان
صحاب ضجاج • فقدوت أنه يسره أن يسمع باريس بعد أن فاته أن يرى
باريس •

ويحدثنا أنه حين رجع لى بلده بعد فضاء بصعه اسهر لى الازهر
أوم معركة حول فكرة التوسل بالأولياء • فما سر ذلك ؟ لم يردفى الواقع
غير خلق دنيا يراها عقله ، وإن لم ترها عيناه • وقد شهد الدكتور طه على
نفسه فى مواطن كثيرة من كتاب الأيام باضطراب العقل ، وأقول ان هذا
الاضطراب هو مصدر قوته الذاتية (١)

وسجل زكى مبارك خاتمه الخلاف بينه وبين طه حسين ، فقال :

كان قد سماع انى أحصم الدكتور طه حسين ، فكتب فى الهجوم
عليه مقالات كان لها وقع حسن أو سىء عند قراء اللغة العربية ، واطلع
الاستاذ محمود بسيونى على بعض المقالات فانزعج أشد الانزعاج • وسمى
للصلح بينى وبين الدكتور طه حسين ، فى حفل مشهور ، حضره العمدة
وكبار الاساتذة بكلليات الجامعة المصرية ، فهل تعرفون نتيجة ذلك الصلح
المشؤوم أو الميمون ؟ ، تلفت الناس متوجعين لضياح فرصة ثمينة ، هى فرصة
الجدل حول المذاهب الأدبية • فهل فيكم من يتفضل بالسماحة بينى وبين
الدكتور طه لأرجع الى مصاولته من جديد ؟ ••

كان بينى وبين الدكتور طه ود وثيق • ولكن رعاية ذلك الود لم تمنع
الأدب بشىء لأن كل ما يصدر عنه كان يقع فى نفسى موقع القبول • فلما
ثار على ، وغضبت عليه ، أثبت فى مصاولته بالأعاجيب •

وجملة القول فان علاقة زكى مبارك مع طه حسين كانت محوطة
بسياج من التقدير • فما ذكر زكى مبارك طه حسين الا أثبتى عليه • ودا
وقع طه فى أزمة الا كان مبارك أول أنصاره • وعندما مات والد طه حسين ، كتب
زكى مبارك • رأيت الحزن يعصر قلبي ، حين قرأت أن الدكتور طه فقد

(١) أول ديسمبر سنة ١٩٤١ - الرسالة •

أباه ، ورثه الله عمر ابيه • ومن عليه بنصير جميل • أبو الدكتور طه هو
الشيخ حسين على • وكان رجلا غاية في اللوذية والأريحية • كان الشافعي
يقول : الحر من راعي وداد لحظة • وقد واددت هذا الرجل لحظتين •
فمن واجبي أن أذرف عليه دمعين » • الرسالة ٢٨ من يولييه ١٩٤١ •

زكى مبارك في معركة مع الإحميين من جانب واحد

تعد معركة زكى مبارك مع « أحمد أمين » معركة الكبرى الثانية •
وهي معركة قامت من جانب واحد • نشر من أجلها مبارك في الرسالة ٢٢
مقالا • وقال النقاد انها كانت بايعاز من الزيات بعد انفصال أحمد أمين
وأعضاء لجنة التأليف عن الرسالة • ونحن نرجع هذا • ونذكر أن زكى
مبارك رمى بالسلاح نفسه فانه في الوقت الذي رأى الزيات أن يتخلص منه
هاجمه كتاب اخرون في الرسالة بالأسلوب نفسه •

وفي هذه المقالات حاول زكى مبارك ان يتجه الى انداسة الموضوعيه
وحشا مقالاته بآراء نافعة ، سنحاول في هذا الفصل ، ان نورد خلاصة
لها ، وقد ذكر مبارك أن السبب الاساسى لهذه المعارك عندما كان مدرسا
بكلية الآداب عام ١٩٣٥ ، وأخرج الأستاذ أحمد أمين الجزء الثالث من
« ضحى الاسلام » • وقد سرق من الأستاذ ابراهيم مصطفى مسألة
تصل بتاريخ النحو وسرق منى مسألة تصل بتاريخ التشريع الاسلامى •
فصاح ابراهيم ان هذا أخى له تسع وتسعون نعمة • ولى نعمة واحدة •
فكيف يسرقها منى ، انه لطماع • وجلست أنا و ابراهيم تشاكى • وهتفت :
سأنتقم لى ولك يا ابراهيم •

بدأت هذه المقالات فى ١٢ من يونية ١٩٣٩ واستمرت حتى العدد
١٣ من نوفمبر ١٩٣٩ تحت عنوان « جنابة أحمد أمين على الأدب العربى »
وسجل مبارك أن « أحمد أمين » كان مشدود البصر الى رجل واحد
هو « طه حسين » • وكان يكتب وهو يراء أمامه ، لأنه كان يعرف عدوانه
له ، فيخشى صولته • كما انتهز الفرصة فهاجم غريمه الدكتور طه •

فقال (١) : « ان الدكتور طه يترفق بأصدقائه أشد انترفق ويحرص على ستر ما يقعون فيه من أوهام وأضاليل • وقد يقدمهم الى انجهمور في جلبة وضوضاء » • وقال في موضوع آخر « ان الدكتور طه هو استئول عن أحمد أمين فهو الذي قال (ان أحمد أمين لم يكن يعرف نفسه فهدها إليها) • ومعنى ذلك أن « أحمد أمين » لم يكن يعرف انه أديب قبل أن يدلّه الدكتور طه على الكنز المدفون في صدره • ان « أحمد أمين » لم يكن أديبا • وانما قال له طه حسين (كن أديبا) فلم يكن • • •

ويرى زكي مبارك أن « أحمد أمين » لا يجيد الا حين يصطحب الروية ، يطيل الطواف بالموضوع الواحد عاما أو عامين • وأنه « باحث كبير بلا جدال • ولكنه ليس بكاتب ولا أديب » لم يستطع أن ينقل القارىء من ضلال الى هدى • أو من هدى الى ضلال • وانما كانت مؤلفاته وبحوثه ضربا من « التقرير » الذى يخاطب الأذهان ويعجز عن مخاطبة العقول والقلوب • •

ثم يعتذر عن أسلوبه فى النقد • ويقسم أنه يحجم على هذا الرجل وهو كاره لما يصنع « فأحمد أمين رجل محترم وقد وصل بكفاحه الى منزلة عالية فى الحياة الأدبية • وأنا قد ضيعت جميع اصدقائى بفضل جر • النقد الأدبى • وكنت أحب أن أداوى ماجرح قلدى لأنجو من الدساس التى تعترضنى فى جميع الميادين • •

ويهاجم زكى مبارك طه حسين لأنه تناقض مع نفسه حين قرر أن يدرس أسلوب أحمد أمين فى كلية الآداب مسع أنه أعلن فى قصر الزعفران (ربيع سنة ١٩٢٧) فى مهرجان شوقى ، انه سيجعل خطبته عن الأخطل ، لا عن شوقى ، بحجة أن الجامعة لاتؤرخ للأحياء • •

ويعمل هجومه على أحمد أمين بأنه لم يوجه أية اساءة الى معاصريه ولكنه هاجم التاريخ : « ربما جاز أن يقال انه لم يؤذ أحدا من معاصريه ولكن « أحمد أمين » الذى كشفه عن الأحياء وجه شره الى التاريخ •

(١) ٢٣ من أكتوبر ١٩٢٩ الرسالة (جنابة أحمد أمين مقال ١٩٠)

فهو يدرس ماضى اللغة العربية بلا تحرز ولا رفق • ولو تركنا • شهرين
اتنين يؤرخ الأدب على هواء لجعل الامة العربية أضحوكة بين العالم ، وقد
كتب زكى مبارك فى الرسالة (سبتمبر ١٩٣٩) يقول :

• نحن امام فتنة جديدة هى اقول بان الادب العربى لا يصلح لتربية
الأذواق فى الجيل الجديد • وهذه الفتنة ليست من مخترعات أحمد أمين
فقد نبئت فرونها منذ أكثر من خمسين سنة حين أراد المستعمرون
والمبشرون ان يوهموا أبناء الأمم العربيه بأن الصلة بين ماضيهم وحاضرهم
لم يبق لها مكان • وأن المصلحة تقضى بأن يوضع الأدب العربى فى المتاحف
أو فى مدرسة غير المتخصصين ، على نحو ما يصنع الاوروبيون فى الآداب
اليونانية واللاتينية • ثم تقبل كل أمة على لهجتها المحلية فتجعلها
لغة التخاطب والتأليف ، وبذلك تكون اللغة الفصيحة أما واحدة للغات
الشعوب العربية • وقد صرح بذلك مسيو ماسينون فى خطبة ألقاها فى
بيروت سنة ١٩٣١ ونقدها يوم ذاك بمقال أرسلته الى جريدة « البلاغ
من باريس » • والحق أن الفتنة التى أذاعها المستعمرون والمبشرون كانت
فتنة براءة خداعة تزيف الأبصار والعقول • وقد انخدع بها من انخدع فى
الأعوام الماضية • وقامت بذلك مساجلات فوف صفحات الجرائد بين
الدكتور منصور فهمى والدكتور طه حسين •

وهكذا يبدو زكى مبارك فى معارضته لأحمد أمين فى موقف البطولة
حين يدافع عن كرامة الادب العربى وعظمة اللغة العربية • ويقول زكى
مبارك فى هجومه على أحمد أمين وأنه ليس له أسلوب : « قد يكون من
الباحثين • ولكنه لن يكون من الكتاب ولا الأدباء ان الرجل لا يكون له
أسلوب الا يوم يصح أن يحس الثورة على مايكره والأنس بما يحب
فعندئذ تعرف نفسه معنى الانطباعات الذاتية ويعبر عن روحه وعقله وقلبه
بأسلوب خاص » •

ويمضى فى هجومه فيقول « لقد اشتغل أحمد امين بالقضاء الشرعى
بضع سنين ، فهل قرأتم له مقالا أو قصة تدل على أنه توجع مرة واحدة
لساس الانسانية ؟ • • لقد عاش أحمد أمين مدة بالواحاح فهل سمعتم قبل

أن تسمعوا مني انه عس بالواحات لو كان أحمد أمين أديبا نحدثكم عن تلك
الآلام التي يتحملها انصريون • ولكن أحمد أمين م يكن أديبا • وانما
كان موظفا مخلصا لواجب الوظيفة لا يرى ماعداه من اشئون ثم قال له طه
حسين كن أديبا فكان •

ويكشف زكي مبارك عن السر في الخطأ الذي وصل الى أحمد أمين
فيقول :

• وصل اليه الخطأ من التلمذة للأستاذ الكبير الدكتور طه حسين •
فقد حكم الدكتور طه بأن العصر العباسي عصر تنب ومجون ولأن فيه
عصابة مشهورة بالزيف والفسق وهي جماعة أبي نواس ومطيع ابن اياس •
مع أن العصر الذي عرف أمثل هذين الرجلين هو نفسه العصر الذي نبغ
فيه كبار الفقهاء والنسك والزهاد • وهو الذي بلغ فيه الفكر العربي غاية
الغايات في فهم أصول الفلسفة وأصول الأخلاق • فهل خطر في بال أحمد
أمين أن العصر العباسي لا يصح الحكم عليه بايثار المعدة واعمال الروح من
أجل كلمة أو كلمات في وصف الاحتبال على الطعام والشراب ؟ •

وهو يعزو أخطاء أحمد أمين الى طه حسين فيقول : ان « أحمد
أمين » يقول ان الادب العربي على اختلاف عصوره ليس فيه الا كاتب
واحد ، يهتم بتحليل المعاني ، هو ابن خلدون • وأن اعجاب أحمد أمين
بابن خلدون يرجع الى أن الدكتور طه حسين شغل به •

وقال مبارك : ان بعد الدكتور طه حسين عن مصر في أيام الصيف
عرض الأستاذ أحمد أمين للمعاطب ، فلو أن الدكتور طه بقي في مصر ،
لكان من الجائز أن يعلن اعجابه بكاتب آخر غير ابن خلدون •

فهل نرجو أن يتلطف الدكتور طه حسين فيقول انه لا يعقل أن ينبغ
في الأدب العربي غير كاتب واحد ، في ذلك الأمد الطويل الذي سيطر فيه
على أقطار آسيوية وافريقية وأوربية ؟ وان الدكتور طه لو قال هذه الكلمة
- وهي حق - لسرت عدواها الى روح الأستاذ أحمد أمين فاندفع يثنى
على الأدب العربي بما هو أهله • ولكن من الممكن أن يصرح بأن الأدب
العربي ينبغ فيه من الكتاب عشرات أو مئات •

ولكن الدكتور طه يترفق بأصدقائه أشد الترفق ويحرص على ستر ما يقعون فيه من أوهام وأضاليل • وقد يقدمهم الى الجمهور في جلبة وضوضاء • فكيف ينتظر أن يقول في الأدب العربي كلمة حق تشجع رجلا مثلي على مهاجمة رجل يستبيح في الفض عن أدب العرب مالا يباح ؟ ، وقد صور زكي مبارك خصومته مع أحمد أمين فقال :

« منذ أشهر نشر الأستاذ أحمد أمين مقاله الأول فيما سماه « جناية الادب الجاهلي على الأدب العربي » • فلم يعجبني : لأنى رأيت من الحديث المعاد • ثم لقيني مصادفة في « المترو » بعد ظهور مقاله الثانية ، فسألني عما أراه من الأفكار التي أودعها مقالتي • فقلت له : لم يعجبني غير نقد الشاهد الذي أورده من كلام ابن قتيبة • أما سائر أفكارك فتحتاج الى تحقيق • فقال : أنا دعوت القراء الى مناقشة تلك الأفكار وأنا أرحب بكل ما يرد الى من تصحيح •

فهل كان يدعوني الى أن أساجله الحديث ؟

كانت الصداقة بيني وبين الأستاذ أحمد أمين قد بلغت أقصى حدود المثانة والصدق • وما كان ينتظر مني غير ما يحب • وكنت والله خليقا بالتجاوز عن سيئاته ، لو لم يسرف في الاساءة الى ماضى اللغة العربية في وقت يحرص فيه العرب على تفهيم أبنائهم أن أجدادهم كانوا من أصحاب المنازل الرفيعة في العلوم والآداب والفنون وأنهم كانوا في ماضيهم من أقطاب الزمان •

وكذلك وقعت الواقعة ، وكان ما عرفه القراء من تمزيق الأوهام التي اعتز بها ذلك الصديق • •

• اهتم الاستاذ أحمد أمين بالنص على أن الشعر العربي كان في أغلب أحواله أدب معدة ، لا أدب روح وحجسه في ذلك أن التكسب بالشعر كان عادة غالبية على أكثر الشعراء • وقد طنطن بهذه المسألة وأخذ يعيدها في كل مكان • وهذا الرأي مسروق من كتاب « البدائع » •

• عاب أحمد أمين على العرب أن يلتزموا افتتاح القصائد بالنسيب

وأن ينتقلوا بهذه العادة من جيل الى جيل ، فى حين أن الشعر ربما لا يكون مشبوب العاطفة فى كل حين . وهذا الكلام مسروق من مقال أرسلته من باريس ١٩٣١ ومنشور فى البدائع •

• اهتم الاستاذ أحمد أمين بتوكيد القول بأن نزع القرآن روحية لاحسية فقال ثناء الاستاذ محمود على قراعة ، الذى عد كلامه من المبتكرات فهل يعلم أن هذا الكلام مسروق من قول صاحب التصوف الاسلامى جزء ٢ ص ٨٧ ؟

ثم يقول : ان الفخر ببعض ممفوت ، وقد تنابى على الأصدقاء قبل الاعداء ، ولكن ماذا أصنع ، وأنا أشهد أنى تسهب ، بلا تحرز ولا تفرق ، وبها يرد على خصومى حين يشترج القتال وكأنها مما ابتكرت أفكارهم الثواقب وألستهم النواطق ؟

ثم يقول : ... اما بعد ، فقد انتهيت من محاسبه أحمد أمين بعد أن أرفت جفونه خمسة أشهر ، كانت كآلف سنة مما تعدون . انتهيت من محاسبة أحمد أمين الباحث . أما أحمد أمين الصديق فله فى قلبى أكرم منزلة وأرفع مكان ، ولن يرانى الا حيث يحب ، فى حدود المنطق والعقل . فما ارضى له ان يكون من الساخرين بالأدب العربى ، وماضى الأمة العربية . وسأبدؤه بالتحية حيث ثقفته فلا يزور غنى وجهها ، اذ أراه أهلا للكرامة والحب . وسلام عليه من الصديق الذى لا يغدر ولا يخون (١٣ من نوفمبر ١٩٣٩ - الرسالة) •

ثم عاد فكتب مرة أخرى • • لم يبق شك فى أن الأستاذ • أحمد أمين ، غضبان بسبب المقولات التى تجاوزت العشرين وأقول اليوم انى استوحشت مما صنعت • والاعتراف يهدم الاقتراف • وليس من الكثير أن أرجو عفوه • فقد عفا أخ له من قبل • والأستاذ أحمد أمين يعرف أنى رجل ممتحن بعداوات الرجال • وقد عانيت من ذلك مصاعب ، لو صادفت رجلا غيرى لدحرته فى أقصر وقت • فمن حقى عليه وهو صديقى وجارى وزميلي ، وكان فى الجامعة المصرية أن يتجاوز

عن سيثاتي • انه-ولله المثل الأعلى - غفور رحيم (العدد ٣٣٦ - ١١ من ديسمبر ١٩٣٩ الرسالة) •

معركة مع السباعي بيومي

هذه معركة من أقسى المعارك التي خاضها زكي مبارك ، ولاول مرة صادفته الهزيمة • فقد واجهه السباعي بيومي ، بعنف وقوة عارضة ، وأخذ يكيل له النقود والمعارضات حتى اضطره الى اغلاق باب المناقشة • وكان زكي مبارك قد استهلها استهلالا عنيقا في الرسالة (يناير سنة ١٩٤١) فقال : الى الاستاذ السباعي بيومي :

نشرت الرسالة كلمة بامضاء محمد فهمي عيد ، عن كلام وقع منك ، وأنت نحاضر بمدرسة دار العلوم ، فقد تحدثت عن أخلاق الشيخ سيد المرصفي ، بما لايليق • فن كان ذلك الكلام لم يقع منك ، فانفه في العدد المقبل • وان كان وقع منك ، فسارع الى الاعتذار ، ابقاء على ما بيني وبينك من وداد • فما أستطيع السكوت عن رجل يتعرض لأخلاق الشيخ سيد المرصفي بسوء ، ولو كان من أعز الأصدقاء • والى أن يثبت أن الراوى افترى عليك أعلق غضبي على ما بدر منك • فقد كنت أظن أنك تعترف بأن الشيخ سيد المرصفي له تلاميذ يحفظون عهده الوثيق • وسنرى كيف تجيب أن كنت في العدوان على ذلك الرجل العظيم من الأبرياء • • •

وفي العدد نفسه من الرسالة نشر كلام لطالب من دار العلوم ، يقول فيه : ان الاستاذ السباعي لم يقل عن المرصفي الا أنه كان يملكه الغرور • وعلق زكي مبارك على ذلك بقوله « سيري صديقنا السباعي أن تهذيب الكامل لم يكن الا خيانة أدبية • وسيعرف أن التناول على مقام الشيخ المرصفي لا يذهب بلا عقاب » •

ودارت المساجلة على النحو التالي :

السباعي : ما أحبها الى نفسي خصومه أدبيه نفوم على صفحات الرسالة بيني وبين صديقي الدكتور • فان في الخصومات الادبية للمتخاصمين مجالا واسعا للبحث والتدقيق •

زكى مبارك : هذه طلائع عروه شريعه تنقل عمل الأستاذ السباعي من وضع الى وضع • ثم قال انه ان يصفح عنه أو يشتغل محررا متطوعا بمجلة الرسالة ثلاث سنين وسأفهره كما قهرت أخاه من قبل على أن يشتغل محررا متطوعا بجريدة البلاغ ثلاث سنين • أملى يخاف عواقب الجهر بكلمة الحق • وقد قضيت دهرى ممتحا بعداوات الرجال ؟ • •

السباعي : قال زكى مبارك ان الأستاذ السباعي به حقوقي ، وما كنت افهم الا ان تلك الحقوق انه هي حقوق الصداقة ، فأنى ما زلت بهاحفيا وعليها حريصا ولكنك جعلها باصديقي • اننى كنت دائما من أنصارك • وليس لئلى أن ينخدع بخدعة الصبي هذه سوفها اليه ، ولحققة المرة التي أسمعت اياها بعد أن طغيت زمانا ولم يرد ، أنك ماكنت فى يوم زعيما فى الأدب حتى يصح أن يكون لك أنصار • وانما رعامتك نسيج عنكبوت ، حكته من حوله ، وتركت الناس تلهو به وتلعب •

• جعلت عوار كلمتك الهجوم الاتم على الشيخ سيد المرصفي • وهذا امر غبت عنه ولم تشهده فكيف أقدمت عليه قبل أن ينجلي لك • واذا سوغك تطولك ان تسميه هجوما فكيف وصفته متسرا بالاتم فكتب الاتم بما وصفته •

• انى بهذه الخصومة جد مسرور • لأنى سأعرضك على الجمهور على حقيقتك اننى غشيتها ما غشيتها • وسامح الناس معك فيها ما تسامحوا وسيكون أول كشف لك فيما عملت واقعا على (زهر الآداب) (١) لأنه دون سائر أعمالك أشبه بما عملت فى (تهذيب الكامل) (٢) - الذى عدته جنابة أدبية •

• أنا لم أكن أعرف أن اللغة العربية عنيفة بألفاظ الهجاء بل أن أقرأ كلمتك الثانية • وأنا من الذين يدينون بوجوب طلب العلم من المهد الى اللحد • فمن واجبي أن أرحب بمن يعلمنى طرائق الباب •

(١) كتاب زهر الآداب الذى حققه الدكتور مبارك •
(٢) كتاب تهذيب الكامل الذى حققه السباعي بيومى عن الكامل •

♦ ان نظرية « فن المقامات » - التي ادعاها الدكتور مبارك ، والتي نقول بان بديع الزمان ليس هو مبدعها - وانما كان متأثرا بابن دريد الذي انشأ هذا الفن . هذه النظرية ليست جديدة ، وانما هي مأخوذة من زهر الآداب . وان كل رجل الأدب العربي يعرفونها ، قبل أن يعلن زكى مبارك انه كشفها (وكان زكى مبارك قد ذكر أنه أول من كشف النظرية وأنه سجلها في مقال له بالمقتطف (أبريل سنة ١٩٣٠) وكان من أثر ذلك ان تارت بينه وبين مصطفى صادق الرافعي معركة قلمية ، ثم قال مبارك : ان السباعي بيومي سرقها من كتاب السر الفني .

♦ تدعى أن صديقا عزيزا قال لك : ان الاستاذ السباعي كان في أحيان كثيرة يجعل مقالاتك من موضوعات الدرس بدار العلوم ، وذلك من شواهد الاعجاب . ويظهر يا دكتور ان هذا الصديق من الخبياء الظرفاء الذين عرفوا فيك ما قرره ابن المقفع من أن عجب المرء بنفسه أرحب باب يدخل عليه منه الضاحك عليه والمضلل له . فهو قد أضلك . وما كان لشيء من مقالاتك أن يكون من موضوعات الدروس في دار العلوم ولو حدث .

♦ تقول انك لن تصفح عني أو أشتغل محررا متطوعا في الرسالة ثلاث سنين ، وما هذا لي بالتهديد . فما أنا ممن يغيرهم التحرر ، ولا ممن تعودوا أخذ أجر على ما يكتبون لأنني أكتب للكتابة ، لا طمعا في مال .

وبعد أن وصلت المعركة الى هذا الحد . . كتب زكى مبارك مقالا صغيرا في البريد الأدبي للرسالة عنوانه (خصومة لاعداء) قال فيه « ان بعض كبار المقتشين أراد أن يقف الجدل الذي أثاره في وجه الأستاذ السباعي بيومي وأنا أجيب هذه الدعوة لأنها أول دعوة كريمة لكف الشر ، بيني وبين من أخاصمهم بقلمى لا بقلبي . فلم أسمع مثل هذا الصوت يوم خاصمت رجلا أعزاء لم يكن يسرنى ان يفصم القلم ما بيني وبينهم من عهود . وانصافا لنفسي أقول أنني كتبت ما كتبت وأنا أبتسم . فأنا قد أخاصم ولكن لا أعدى فما استطاعت الدنيا بأحداثها الفواتك أن تضيفني الى أرباب الضغائن والحقود . وأنا اتهم بالقسوة والعنف بغير حق ، فما كان

من همى فى كل ما أثمرت من المجادلات الا ايقاظ الروح الأدبى والقوى
أما ايداء الأدباء والباحثين فهو معنى لا يمر بخاطرى • لانى أرجو دائما أن
يكون الهدم فى عنفه من صور البناء •

ولكن معلقا كتب فى الرسالة يقول ان • ركى مبارك • احتج بالأفضل
الذين تدخلوا ، للاستحباب من المعركة التى أثمرها • ولكن اذا كان لدى
الدكتور ما يقوله بالأسلوب اللائق فليفتخر غير ملوم من أحد • وأن وساطة
هؤلاء كانت منصبه على « أسلوب الجدل » لأعلى موضوعه • أما الفحص
عن الحقيقة وتداول الأقلاء فى الموضوعات الأدبية والعلمية فليس لهم
عليها اعتراض • وقالت الرسالة ان مقال السباعى بيومى وصلها وهياته
للنشر • ولكنها امتنعت بعد أن ألقى أحد المتناظرين بالقلم ••
وعندى أن هذه أول معركة انهزم فيها مبارك • وهى أول معركة
لأقى فيها مناضلا غنيا •

مع العقاد

وكان لركى مبارك مع العقاد معارك • ولكنه ليست فى عنف معاركه
مع أحمد أمين وطه حسين •• بل تبدو فيها آثار الترفق •
ولكن زكى مبارك على طريقته يكشف عن رأيه فى شخصية العقاد
فيقول (١) ، ان له شخصيتين مختلفتين كل الاختلاف • فلعقاد الكتب
السياسى يرمى ويرمى ويظلم ويظلم فى كل وقت • فهو من أبناء السماء
عند قوم ، وهو من أبناء الأرض عند آخرين •

أما العقاد الكاتب الأدبى فهو من الطبقة الأولى بشهادة الجميع •
والعقاد الناقد لا ينحرف عن القصد الا فى حل واحدة • حال
الحكم على من يعاديه من المعاصرين • أما حكمه على المفكرين الذين بعد
عهدهم فى التاريخ فهو فى غاية العدل والسداد وقد يصل به الفرق الى
المبالغة فى اظهار المحاسن وإخفاء العيوب •

(١) ١٣ من يناير سنة ١٩٤١ - الرسالة •

وقد شاع وذاع ان العقاد رجل حمود . وهو كذلك ، فالحق من كبريات الفضائل في بعض الاحايين . والرجولة الحققة تفرض الشجاعة الحققة . ولا سم الشجعة لرجل الا اذا جاز ان تصل به احيانا الى حد التهور والجنون . وما قيمة القلم اذا لم نخز بسنانه عيون المتعالمين والمتعاقلين من حين الى حين » وما حظ الأمة في ان ينخلق جميع أبنائها باللفظ والظرف .

وانحراف العقاد في كنياته السياسية والتفدية يشهد بأنه سليم الشخصية وللسلامة هنا مدلول خاص هو اكتمال الحيوية والاحساس ، فالعقاد يصادق بعنف ، ويعادى بعنف . فأصدقائه ملائكة ولو كانوا شياطين . وأعداؤه أبالسة ولو كانوا ملائكة مقربين . وهو مستعد لخوض النار مع أصدقائه ان أوجب الوفاء أن يشاطرهم عذاب الحريق . أما أعداؤه فهو لهم بلاء وعناء . وهو يلقاها في السر والعلانية بأقبح ما يكرهون .

وهكذا يصل زكى مبارك الى أن يقول في العقاد كل ما يريد أن يقول مع حالة ضخمة من التقدير .

ولكن زكى مبارك في سنواته الأخيرة ، وفي ابان أزمته لا يلبث أن يكشف بعض الحقائق الخافية (٢٨ من يناير سنة ١٩٤٧) - البلاغ . فيقول :

« زعم الأستاذ العقاد أن سعدا خلع عليه لقب الكاتب الجبار . والعقاد كاتب بلا جدال . وشاعر من أكابر الشعراء . وله في نفسى منزلة عالية ، حفظه الله من جميع الأسواء . ولكن الكاتب الجبار الذى غناه « سعد باشا » هو عبد القادر حمزة باشا ، كما تشهد بذلك مذكرات محمد كامل سليم ، سكرتير سعد زغلول » . وقد أوضح مبارك ذلك بعنوان (نسجل التاريخ قبل أن يضع التاريخ) في ذلك الحين ، من كتابة هذا المقال .

هذا . وقد كان الاستاذ محمد كامل سليم ، السكرتير العام ، لمجلس الوزراء ولهيئة المفاوضات ، خير منصف ، للتاريخ ، وللجميع ، وللقومىة المصرية ، التى لا تشوبها شائبة الحزبية . كما كان وما زال ، أدبيا ، ذواقة بحانة عف القلم واللسان ، ذا بحوث وكتب قيمة ، وآراء حسيمة ،

ووطنية صادقة ، فأحبه الجميع ، كما كان محبوبا شقيقة المرحوم : حسين
كامل سليم .

زكى مبارك مع سلامة موسى

جرت بين زكى مبارك وسلامة موسى مساجلات • كان فيها زكى مبارك لبقا غاية اللباقة • ولم يكن عنيفا • فهو يبدو فيها حريصا على صداقه مع (سلامة) • غير ان الخلاف كان بينهما واسع الشقة • فسلامة لا يرى أن هناك قيمة لدراسة الأدب العربى القديم • وزكى مبارك يرى كل مجدة فى هذه الدراسات ••• لذلك فهو يناقشه على هذا النحو •

كنت بنت لسلامة موسى وجه الخطأ فيما ذهب اليه من الدعوة الى الافلال من العناية بالأدب العربى • وكانت حجتي أنه يعنى الأدب الفرعونى مع أنه أدب موغل فى القدم ••• فكيف يلام رجل منى اذا قصر عمره على درس الأدب العربى ، مع أنه أدب حى ما زال يسيطر على أذواق الناس فى المشرق والمغرب • وهو فوق ذلك يفسر غوامض النفس العربية التى تلتقى الاسلام ونشرته فى العالمين •

وأعود فأقرر أن لدراسة الأدب العربى غايات أخرى غير تلك الغايات الدينية • وأبدأ فأنقض حجة الأستاذ سلامة موسى اذ يرى أن غاية الادب هى توجيه الحياة الاجتماعية وأن الأدب الحديث أنفع دائما من الأدب القديم •

ثم أرد عليه فأقول : الادب كما يكون ضربه من الاصلاح يكون نوعا من الوصف • وهو وثيقة تسجل فيها مظاهر الحياة الاجتماعية • وقد يصير دستوراً تخضع له الحياة الاجتماعية • فان كنت فى ريب من ذلك فراجع كتب الادب فى القديم والحديث ، وستراها سجلات دونت فيها أزمات القلوب والنفوس والعقول • والكتاب الاجتماعيون يعيشون فى عالم الواقع كما يعيش رجال القوانين • ولذلك نراهم يهتمون بشئون لا يلتفت اليها أحد من الشعراء • والأستاذ سلامة موسى كاتب اجتماعى ، وليس

بأديب • واللغة عنده ليست إلا أداة تفاهم • وكل تأنيق في العبارة يبدو
لعينه وكأنه لغو واسراف •

والأدب القديم لا يمكن أن يحتل رأسا مثل رأس الاستاذ سلامة
موسى •

•• والذي يهمنى أن أقرر أن الأديب لا يشوقه غير المعانى • وهو
من أجل ذلك لا يتقيد بالحدود التاريخية ولا الجغرافية • وهو لا يعسنى
بالمشكلات الا من الوجهة الانسانية • أما الأوضاع الاجتماعية فموقفه منها
موقف الوصاف الذى يشرح المحاسن والعيوب •

وهذا لا يمنع أن يكون الاديب من أهل الكفاح وهو حين يكافح
يصبح قوة خطرة فى الحياة الاجتماعية لأنه يحلق دائما فى الأجواء العالية
ولا يقنع بالقليل •

ولا يجد زكى مبارك أمامه بعد ذلك الا أن يهاجم سلامة موسى بعنف
« أن اهتمام الاستاذ سلامة موسى بالكلام عن الحرمان وتفاوت الطبقات
فئات ، خطفه من موائد الاجانب الذين كتبوا عن الاشتراكية • فليس فيه
أصالة فكرية • أما أعمالنا نحن فى درس أسرار اللغة العربية فهى الأساس
لزعامة مصر فى الشرق • ان تجننى سلامة موسى على مؤرخى الأدب العربى
بغير حق ، دليل على أنه : جاهل ، وجهول • وجهالة • ومجهال ، الى كل
صيغة من صيغ المبالغة انه يعادى لغة العرب بسبب بسيط : وهو أنها
لغة القرآن المجيد •

بين زكي مبارك وشوقي

يصور زكي مبارك في هذه الكلمة قصة خلافه مع شوقي بشأن مقدمة ديوانه « الشوقيات » .

« (١) كانت الصلة قوية بيني وبين شوقي سنة ١٩٢٥ . وكان قد سارع في طبع الشوقيات . فشاء لطفه وكرمه أن يدعوني لكتابة المقدمة بعبارة ما زلت أذكر نصها بالحرف « سيكتب الدكتور هيكمل مقدمة تاريخية وستكتب أنت مقدمة أدبية .

وبعد أيام تلتطف فاهدي الى ما طبع من الجزء الأول ، مصححا بعضه لأكتب في تقديمه ما أريد .

ورجعت الى نفسي ، فتذكرت أن المقدمات يلتزم فيها الترفق . وذلك ما يجعل بكاتب مشغول بالنقد الأدبي ، مع شاعر ما زال في الميدان . وأسرعت فكتبت اليه خطابا قلت فيه : اني لا أستطيع كتابة المقدمة التي ينتظرها أمير الشعراء . فاني أخشى أن أقول فيها كلاما بعيدا عن هذه المقدمة ان رأيت في أشعاره المقبلة ما يوجب الابتعاد . وهو ، بارك الله في عمره ، لا يكف عن مساورة الشعر والخيال ، في صباح ، أو مساء .

وفي عصرية اليوم الذي كتبت فيه ذلك الخطاب ، قابلت الدكتور « طه حسين » ، وأخبرته بما وقع . فغضب أشد الغضب ، وقال : « لبتك استشرتني قبل أن تصنع ما صنعت ألا تعرف أنك أضعت على نفسك فرصة من فرص التشريف ؟ لو طلب شوقي مني ما طلب منك وأنا خصمه - لاستجبت بلا تردد . » فشوقي في رأيي أعظم شاعر عرفته اللغة العربية بعد المتنبي »

وبعد شهور طوال ظهر الجزء الأول من الشوقيات وبه مقدمة الدكتور محمد حسين هيكمل (باشا) . ونادى المنادى بوجوب الاحتفال بتكريم أمر

(١) الرسالة ٢٩ من ديسمبر سنة ١٩٤١ .

الشعراء ، احتفالا يشترك فيه من يستطيع من أدباء الأمة العربية وبرعاية
سعد زغلول •

ثم يقام الحفل الحافل بدار الأوبرا فى التاسع والعشرين من نيسان
سنة ١٩٢٧ • ويقول الشعراء والخطباء فى شوقى مايقولون باطناب واسهاب
ويتلفت الدكتور هيكل ، كاتب مقدمة الشوقيات ، فبرى من الواجب
اصدار عدد خاص من السياسة الاسبوعية لتكريم شوقى • ويدعو للاشتراك
فى تحرير هذا العدد الخاص رجل كان فيهم كاتب هذا الحديث • ويرى
شوقى من حقه أن ينظر فى محتويات ذلك العدد فيشير بحذف مقالات ،
كان منها مقالى • ألم أستكبر عليه فأرفض كتابة مقدمة للشوقيات •

كانت السياسة الأسبوعية فى تلك الايام توجه التيار الادبى فى مصر
وفى سائر البلاد العربية • وكان اصدار عدد خاص عن شاعر من مثل هذه
هذه المجلة يعتبر تزكية أدبية تفوق الوصف • ولكن شوقى لم يرتج كل
الارتياح الى ذلك العدد الخاص ، فقد ظهرت فيه عبارات تغض كثيرا أو
قليلًا من مقام أمير الشعراء • غضب شوقى على ذلك العدد من السياسة
الاسبوعية • وكان شوقى اذا غضب ، غضب معه ألف مرتزق من ادعياء
الأدب • فمضى أولئك المرتزقة يقولون فى الدكتور هيكل ما تسمح بنشره
الورديات المسماة زورا بوسم الجرائد والمجلات ، فكذب الدكتور هيكل
فى السياسة الاسبوعية مقاله المأثور « أخلاق شعر الأخلاق » • وهو
مقال فصل فيه ما كان بينه وبين شوقى ، وتوعده تواعدا أليما • فقد نص
على أن شوقى لن يظفر مرة ثانية بمثل ذلك الاحتفال •

ورأيت أن أرجع الى الدكتور طه أستفتيه فابتنسم وقال : كان مصيرك
سيكون أقطع من مصير هيكل ، لو كتبت مقدمة الشوقيات •

• ثم ماذا ؟ ثم ذهب شوقى الحقود • وشوقى الذى قطع ما بينه وبين
كرام الرجال لأسباب لا تستحق أن ينصب لها ميزان ونقى شوقى الشاعر
شوقى الذى رثاه المازنى يوم مات ، بعد أن قال فيه ما قال :

فسد ما بنى وبين شوقى بعد اعتذارى عن كتابة مقدمة الشوقيات

فانقطعت عن لقائه بمنزله في شارع جلال ، وانصاع هو أيضا . فلم يعد يسأل عنى وجاء ضغور امير شعراء الهند فأقام له حفلة في داره . ودعا اليها أساتذة الجامعة المصرية . ولكنه تجهل اسمى ، فلم يدعنى الى استقبال ذلك الشاعر الصانع .

وسمع بذلك انحدث جماعة من الصحفيين ، فحرضوني على ايداء شوقى بمقل او مقنين ، وزعموا أن مال شوقى لا يسأل بعير الهجاء . وما أنا ومال شوقى أو غير شوقى هل منحنا الله نعمة القلم الصوال ، لنبتز الأموال ؟ ان شوقى الحنود حرمنى فرصة التمتع بصوت ضغور .

شوقى شاعر مصر ، وهو على ججوده أستاذ الأساتذة في ميدان القصيد فمن الواجب أن أحفظ عهده الى أن يموت ، وقد مت قبل أن يسمع كلمة نابية من قلمي أو لسانى .

مع لطفى جمعة

كان بين زكى مبارك ولفطفى جمعة معارث . هاجم كل منهما الآخر أعنف الهجوم . وكان من أهم هذه المساجلات معرضه عظمى جمعة لأرائه في الشعر الفنى فى القرن الرابع الهجرى . وقد رد عليه فى عنف ، وقدم بين يدى رده بهذه الكلمات :

« أما لطفى جمعة فانا عند اليه ، وماضى فى مدرعه . يعلم أبى أصلب عودا من اولئك الرجال الذين استلانهم فصل فى نقدهم وجل . وألف على حسابهم الأسفار الطوال (يقصد طه حسين فى كتبه عن الشعر الجاهلى) وسأريه أن الأدب أصعب مرتقى وأعز مثالا من أن يمتلك ناصيته من يقرءونه فى أوقات الفراغ ... قسّد تكون التى يحول أصحابها أن يصبغوها بالصبغة العلمية ويبعدوها عن مدارات المحامين الذين يصورون الباطل بصورة الحق حين يشاءون . » وقد حدث أن دعى مبارك وجمعة الى مناظرة فى كلية الآداب بالجامعة المصرية (مارس سنة ١٩٤٠) موضوعها (انما يزدهر الأدب فى عهود الفوضى الاجتماعية)

وقد خرج زكى مبارك من المناظرة على حد قوله « ما ذكرت هذه المناظرة الا جزعت وتولاني الدم على الاشتراك في جدال يضيق به صدر الغلب والمغلوب لأنه لم يمض هفوات مزعجات »

ذلك ان « زكى مبارك » حمل لواء الراى الذى يقول بازدهار الادب فى عصور الفوضى الاجتماعية ، فواجهه الجمهور بالمعارضة ••• وعنده أن المناظرة لم تحمل المعنى الفعلى لها ••• « وهو أن من يحمل جانباً من الجنيين لا يعنى انه من انصر هذا الراى • وانما الأمر ان يأخذ كل مناظر نصيبه من المناظرة ليعرض المتناظران ما ذهبوا اليه على الجمهور ولا يعنى هذا الايمان بالراى • • ولذلك يعجب كيف قول بالزراية حينما نقدم لهذه المناظرة ••• وصور زكى مبارك موقفه من المناظرة فيقول ان اتحاد كلية الآداب اقترح عليه الموضوع ومضى يبحث عن مناظره •• ثم علم أن الأساتذة لم يرقهم أن يناظروا المشاغب الأكبر على حد تعبير الدكتور هيكل (وهل من العقل أن يتقدم أحد الاساتذة لمناظرته ، وقد شاع وذاع أنى أكبر المشاغبين ؟ ••)

• وهى تهمة ظالمة • ولكنها حقت على ، وسأقضى بقية العمر فى الدفاع عن نفسى ، ولكن بلا نفع ولا عزاء • لأن الناس عندنا يؤذيه أن يصححوا رأيهم فى رجل ظلموه بلا بينة ولا برهان •

وأخيرا ظفر اتحاد الكلية برجل يناظرنى • ولكن أى رجل ؟ كاتب مشهور كانت لى معه وقائع فى بعض الجرائد والمجلات ؟ فقلت فى نفسى هى مكرمة من مكرمات الأستاذ لطفى جمعة • فقد هداه القلب الطيب الى أننى رجل ينهائى الأدب والذوق عن الاستخفاف بأقدار (الزملاء) ، ويميل الأستاذ لطفى جمعة على أذنى ، وهو يقول :

أهنتك على أن عرضت سمعك للأراجيف فى سبيل الحق • ثم ابتسم وانتظر أن يصنع ما صنعت ليظفر بتهنتى • وينهض الخصم الشريف ، فيسلك فى تحقيرى جميع المسالك ، ويدعى أننى فوضوى أئيم • وينهى الجمهور عن الانخداع بأرائى • ويعلن عجه من أن يكون لى كتاب باسم (التصوف الاسلامى) فى مجلدين كبيرين ، مع أنى من أنصار

الفوضى الاجتماعية • ويقضى فى تحامله وتجنیه ساعة وبعض ساعة ، وأنا
سأهم مطرق ، أكاد أذوب من العُجل والحياء •

وأعود الى نفسى فأندم على تعريض سمعتى لهذا الضيم البغيض •
وأعرف أنى أخطأت فى قبول المناظرة مع هذا الخصم الشريف • وأعاهد
الله على اعتزال الناس الى يوم الممات • وما الذى يغرينى بصحبة بنى آدم ،
وليس فيهم غير شجا الحلو وقذى العيون •

لقد أقممت دارى على حدود الصحراء ، لانس بالليل ، ولأنسى أننى
موصول الأواصر بهذا الخلق ، ولأناجى موات البديهة حين أشاء •

لطفنى جمعة الرجل الفاضل الذى أثبت عليه فى خطبتى ، يقضى فى
شتمى ساعة وبعض ساعة • تلك احدى الأعاجيب ان كان الفكر فى زماننا
من الأعاجيب •

أين أنا من دهرى وزمانى • أملى يشتم جهرة فى كلية الآداب ،
وقد حملت على كاهلى أحجار الاساس • هوذلك ، وعلى نفسى أنا الجانى
فقد عرضت سمعتى للجدل الذى يسمونه مناظرات • وينتهى الاستاذ
لطفنى جمعة من خطبته ، وقد مزق آرائى كل ممزق • وقد شفى صدره
منى • وقد كانت بينى وبينه تارات وضغائن وحقوق (١) •

(١) من معارك زكى مبارك التى واجهته ولم يشترك فيها هى معركة
سنة ١٩٤٤ قام بها محمد أحمد الغمراوى ودرينى خشبة وامتلدت من
فبراير الى سبتمبر سنة ١٩٤٤ لم يرد على ما كتب عنه الا بكلمات قصيرة
فى هوامش الرسالة •

الملاكم الأذلى فى ثقافتنا الحديثة

مبارك مع الزيات

كانت فترة عمل الدكتور مبارك فى الرسالة هى أخصب فترات حياته الأدبية • فقد كتب بها مدة طويلة • وقد تولى مبارك الاشراف على مجلة الرسالة أغلب فترة الحرب العالمية الثانية على حد تعبيره اذ يقول : « حين خرجت أول صفارة من صمغرات الانذار طار الاساذ الزيات الى المنصورة ومعه الشيخ محمود زنتى • وبقيت وحدى أشرف على تحرير الرسالة بدون مكافأة لأن هذا العمل كان فى نظرى خدمة وطنية » •

وقد أشار زكى مبارك الى أن فلمه تجلى فى الرسالة الى « أطف حدود التجلى » فقد كان يكتب فى كل عدد ثلاث مقالات ، منها مقال باسمه • ومقال باسم كاتب كبير ، ومقال باسم الأديب المجهول •

ولكن زكى مبارك ترك الرسالة بعد أن وقعت بينه وبين الزيات خلافات متعددة من بينها خلافه بشأن دعوته للصفاء بين الأدباء وبين توفيق الحكيم الذى هاجم الزيات بحجة أنه حاد عن رسالته فى الرسالة : وفى ذلك يقول الزيات موجه خطابه الى توفيق الحكيم •

« يقول (١) انى حدث قليلا عن رسالتى فى الرسالة • وقليلا معناها زكى مبارك • وزكى مبارك يا توفيق لون من ألوان الأدب المعاصر لا بد منه ، ولا حيلة فيه • هو الملاكم الأذلى فى ثقافتنا الحديثة أما عنفه وشماسه فهما الصنع المميز للونه • ولو شئت أن تجرد هذا الملاكم المبارك من عنف الهجوم وخشونة المراس لما بقى منه غير توفيق الحكيم وأسلوب الحكيم وحمار الحكيم •

(١) الرسالة ٢٩ من يونيه سنة ١٩٤٢ •

على أنه هو نفسه أول الشاهدين على ان صفارنى قد بحث من طول
ما أهابت به وهو فى قفازه الستريسى يهدر فى انجل بين الجبل ،
مغضيا بعض الاغضاء عن قواعد الملائكة •

وزكى مبارك بعد هذا سليم الصدر ، جريح القلب ، رياضى
الروح ، لا يتحرج أن يطلب الى صديقه فى مقل هذا العدد أن ينصره
ظالما أو مظلوما ، فى حدود تفسيره الخاص •

وقد رد زكى مبارك على الزيات يعلن مقطعة للرسالة :

صديقى الزيات : حتى أنت قد خاب أملى فيك • أنا الذى دعيت
الى الصفاء بين الأدباء كم رأيت ، وبذلت فى ذلك ما بذلت ، ورددت
الحقوق الى أصحابها • وأدبت الواجبات على تمامها ، وأزلت من النفس
أسباب الكدر ، وظهرت القلم من أدراان البشر •

•• ليكن اليوم اخر عهدى بك وبإلرسه ولأدباء •• لن أكتب
شيئا لك ، ولن أذكر بعد اليوم أدباءنا بخير ولا بشر • سأصمت عن
أشخاصهم سميت القبر ، لأنصرف الى الإنتاج وحده ، من حيث هو إنتاج
ماضيا فى اصدار كتبى لقرائى الأوفياء • فلا حلم فى صفاء ، ولا أمل
فى مودة بين أدباء •

وخلاف آخر وقع بينهما - الزيات وزكى مبارك - فقد اختلفا مرة
مرة بشأن مقل لمبارك عن الرسول •• فلما استدار العم صلب الزيات من
مبارك مقل لعدد الهجرة وقل له لا تكبر كما كبرت فى مثل السنة
الماضية ••

ويقول مبارك : • سبحان الله • وأنا كبرت فى السنه امصية
يا زيات ، هل تصدق أن من خصومى من يدرك من عظمة الرسول
ما أدرك ؟ •• ان بينى وبين الرسول صلة وثيقة هى البلاء بالدين والنس
فكيف يتوهم قوم أنهم يغارون عليه أكثر مما أغار عليه ، وهم لا يتقدمون
لنصرته الا مدفوعين بالثمن الذى أعرف وتعرف •

ان من خلق الله من يأكلون الشهد بفضل الرياء ، فكيف يؤذيهم
ان أشرب أكواب الصاب والعلقم بسبب القول الصريح ؟ ••

ويسجل زكي مبارك ان الزيات اخرجته من الرسالة بعد أن أتاح
الفرصة للكاتبين محمد أحمد الغمراوي ودريني خشبة في نشر تقدمهما
لكتابيه « الشر الفني » والتصوف الاسلامي ••

ولكن الزيات مع ذلك كان ينظر الى زكي مبارك نظرة تقدير ••
حيث يقول « ان كنت قرأت ما ألف وكتب في النقد والمناظرة ، فستظنه
خارجا من معركة بولاقية ، كان فيها شدائشعور ، ولكم الصدور ، ونطح
الروس ، وتمزيق الملابس •

وان كنت قرأت له التصوف الاسلامي فستخيله ما زال في
ستريس ، مريدا للشيخ الطموي الشاذلي • يعكف على الاوراد ،
ويشارك في الاشاد ، ويحمل الابريق ، وينقر الدف فهو أشعث ، أغبر
ضاو ، من أثر الذكر والصوم والعبادة ••

وبالرغم من هذه السخرية به ، فزكي مبارك ، عنده - : « ان أردت
كلمة الحق » مجهد بأسل من المجاهدين القلائل الذين شقوا طريقهم في
الحياة بالقوة ، وأخذوا نصيبهم من المعرفة بالله ، وأحلوا أنفسهم المحل
للالتق بالصرع •

وهو أحد الأدباء الذين لم يتم مجدهم الأدبي على الظروف والحظ •
وان كان الحظ قد وقع في حياته فهو الحظ المنكود : لأنه يعلم
بكدح فلمه ، وتقدم بفضل جهده ، ثم كانت الظروف التي تساعد
ضيره تلح عليه بالنكران والحرمان من غير هوادة •

ومن أثر ذلك كن هذا الاعلان المستمر عن نفسه وعن عمله وهي
صفة لا تتفق كثيرا مع وقار العلم وجلال الخلق • ولكنها أتت اليه من وراء
الوعي على ظن أن الناس ينكرون عليه فضله وينفسون عليه مكانه •

ولو استطاع زكي مبارك أن يتملق الظروف ويصانع السلطان ،
ويحذق شيئا من الحياة لانتفى كثيرا مما جرت عليه بداوة الطبع وجفاوة الصراحة

ولكن هذه الأغراض النفسية ستبقى فيه وفي الناس ، ويبقى ذلك
المجهود العلمي الضخم الذي قدمه الى الادب العربي ، في شتى مناحيه ،
شاهدا على صدق خدمته للأدب ، ورفيع مكانته في النهضة . .

زكي مبارك وأحمد لطفي السيد

هل تقف مساجلات احمد لطفي السيد مع هذا الكاتب ؟ ما أظن ،
فإن « زكي مبارك » لم يترك كتابا دون ان يصوره ويندشه ويعترض
طريقه بالرأى ، ويعلم موقفه من ادبه وأسلوبه . ول زكي مبارك عنه :
« فأحمد لطفي السيد لا يؤخذ عليه الا عيب واحد هو أنه يستهدف لأى
خطر فى سبيل حرية الفكر والعقل والوجدان . وبذلك حلت آثاره من
اللهب الذى احترق به اميدعون من أقطاب الفكر والبيان . .

ووصف زكي مبارك أسلوب لطفي السيد بأنه : كن بطيء الحركة
الى حد الجمود . وهو حل من البشاشة البيانية . وأنه كذب متعمد ،
متكلف وهو يجر كلامه بتأقلا وإبطاء ، وأنه كتب هيوب . والحذر
المأثور عنه هو الذى قضى بأن نمر ثورته الفكرية بلا ضجة ولا ضجيج .

وقال زكي مبارك « ان خطبة أحمد لطفي السيد هي لفظ مركب
مفيد بلوضع العربى ورد على لطفي السيد حين أشد بالجموع الانجليزية
وقال عنه : « انه لم يدخل فى حياته جامعة انجليزية » وأن السر فى دفعه
عن الانجليز أنهم لا ينظرون بعين العطف الى من تتقنوا ثقافة فرنسية ،
فهو يريد أن يشهد العالم على أنه لا يؤمن بغير الثقافة الانجليزية . وانما
يفعل ذلك ، رغبة فى إقناع السادة الانجليز بأنه يصنع فى هواهم ما كان
يصنع عمر بن أبى ربيعة ، اذ يقول :

أحب لحبك من لم يكن صفيا لنفسى ولا صاحبا ،

زكى مبارك والرافعى

• وهاجم مصطفى صادق الرافعى (١) عندما كتب مقالته « صعاليك الصحافة » فقال :

« نأخذ فى حساب الأستاذ الرافعى ، الذى توهم أن الصحافة أصبحت فى أيدي الصعاليك • مع أنه مدين للصحافة أثقل الدين • ولولا الصحافة لظل قلمه يمشى مشية المقيد فى الوحل ، كما كان منذ سنين •

• أصدر الرافعى كتاب أسماء « وحى القلم » • وطاف به على الجرائد والمجلات ، وكان ينظر أن تقوم الدنيا وتقع ولعله كان يرجو أن تزلزل الجبال • فلما رأى الدنيا على حالها من الرزاة والسكون ، راح يهدد ويصخب ، ويتعقب ويتلوم ، ويبغى ويستطيل • ولم يحسب للعواقب أى حساب ••• أكن ينتظر هذا الكاتب أن يترك الصحفيون ما يشغلهم من شئون المجتمع ، السياسية والاقتصادية ، ليفرغوا لكتابه • فلا يكون لهم حديث سواء •• ؟

• ما رأيت إذا وقف لك أحد الصحفيين فى معركة فاصلة ورماك بحب التكلف والافتعال فى علم الأنشاء والتأليف ؟ • وما رأيك إذا جازاك أحد الصحفيين ظلماً بظلم • وقد انك تعيش فى غير زمانك • وأن أسلوبك ليس الا صورة من العوج والالتواء ؟ •

مبارك وأحمد زكى (باشا)

• وهاجم أحمد زكى (باشا) شيخ العروبة • فقال :

« كنا نظن أن الادب البارع الذى يظهر فى مقالات شيخ العروبة أدب جديد رفه به أيام الشيخوخة • ولكن يظهر أن هذا الأدب صفة من صفاته لعهد الطفولة ••• فقد حدثنا الله أنه استباح أن يقول لأستاذه

فى المدرسه سويه (اسجهيزية) « ما عد كس مرايه ؟ » • • • • • وكن فى
مقدورى أن اعمله بعلى ما اعمله به الأستاذ الكبير ، مرحوم محمد
مسعود ، مدير امبوعات ، سابقا • ولكنى رفقت به لشيخوخته ، وقدرت
له ماضيه فى خدمه اللغة العربية • والله يشهد انى عصيت جميع
الناصحين ، فما رآنى أديب ألا حذرنى عواقب ملاينته • وقد دعانى
الى مهاجمته نس كرام يعرفون طباعه فأثرت الترفق ، رعاية للواجب ،
واحتراما لمضى (خم انوم) حرسه الله (١) • • •

وكن موضوع لخلاف « برده البوحيرى »

مبارك والبشرى

• والمرحوم « الشيخ عبد العزيز البشرى » رجل صخب ضجج
يدق الأجراس الضخم حين يدخل الغابة للصيد • هل سمعتم بالرحى
التي تطحن بها القروية ، هو البشرى فى بعض ثمره التقعقاع • اذ ينذر
أن تجد فى ثمر هذا الرجل صفحة خلت من التكلف • •

وهو كتب بذكرك فى كل سطر بأنه أديب ينصيد الاوابد من
مجاهيل (القاموس) واللسان والاساس • •

مبارك والمازنى والعقاد والبشرى

• « والمازنى من كبار الشعراء • ولكنه مشغول بالكتابة فى جميع
الأوقات ، لجميع الأحزاب • ولم يجد الفرصة لخدمة • وقد جنى المازنى
على نفسه بالكتابة اليومية • فلم يعرف بجمه نصير فى الانحياز الى احدى
الجهات ، فى زمن لا يعيش فيه المفكرون إلا بسند من العصبية
السياسية والاجتماعية • • ولكنه يذكر المازنى فى ممكن آخر (٢)

(١) ٢٣ من ديسمبر ١٩٣٢ - البلاغ •

(٢) الرسالة ٢٦ من يولية ١٩٤٣ •

فيقول : « انا لا ابالي نقد الدكتور طه حسين لاننى نقدته فى بحنه ، مقاله مقالة • فمن السهل ان يقول الناس انه ينتقد وفى نفسه اشيء وانا لا ابالي نقد الأستاذ العقاد اى لان بيننا احقادا نشر فى حين ، وتطوى فى بعض الأحيان وكان العيون ترى قبل عشرين سنة انك طويل جدا وان العقاد قصير جدا فشاء برك بصديقك ان تزعم ، انك القصير ، وانه الطويل • وما زلت تبدى وتعيد ، حتى آمن الناس بقولك ، وظنوا انك قزم ، وأن العقاد عملاق • »

ولكن هل كان هذا النقد الا سرا يصيحه زكى مبارك الى ما فى حياته من احساس بالتجاهل والنكران ؟! ...

لقد أغضب كل الناس ، ولم يترك فى قلب واحد من هؤلاء ، لمحة من لمحات الرضا أو الود ...

بل ان اندفاعه فى النقد كاد يخلق معركة حقيقية • فقد دفعه اندفاعه الى أن يهاجم الشيخ « سليم البشرى » شيخ الأزهر ، ووالد عبد العزيز البشرى ، ويقول ان شرح نهج البردة ، المنسوب اليه ، كتبه ابنه الشيخ عبد العزيز البشرى • وان الشيخ الكبير ، رحمه الله ، راجعه وحرر فيه بعض الأبواب ، فظن عبد العزيز وأخوته ، أن هذا الكلام فيه معنى اتهام والدهم بالتزوير •

ولقد رسم زكى مبارك صورة لهذه المسألة فى كتابه « الأسرار والأحاديث » صفحة ٣١٨ تحت عنوان « الاستهداف للقتل فى سبيل النقد الأدبى » حتى ان عبد العزيز البشرى اتصل به تليفونيا ، وقال ان اخوته غاضبون لأبيهم ، وأنهم مستعدون لان يدبروا (أشياء شنيعة جدا) وأنهم قد يفكرون فى قتل زكى مبارك على باب داره •

وقد رد مبارك عليه بقوله « اننى لا أخافك ولا أخاف أخوتك ، ولو شئت ، لسقت فى حربكم ألف نبوت من ستريس • • »

وموقف آخر ، عرض زكى مبارك للمصاعب ، يوم كتب مقالا فى « مجلة الفيوم » تحت عنوان (يا بحر يوسف ياما فيك كل بلطية)

وظن اهل الميوم انه انما يعنى المرأة ... فحملت عليه صحيفه اخرى حملات واسعة ، وهجمته هجوما عنيفا . وهذا يبدو فلم رلى مبارك كما يقول دائما « امضى من السيف ، وأعنف من القضاء » ولى مبارك عبارات فى النقد . جد غريبة ، وجد عنيفه . فهو يقول : « سترى بى ارجع اليك رجعه السيل فان عندى كلمه فاسيه ذى يجرو على لادبها رجل غيرى ... عندى صواعق ساصبها فوق رأسه ان حدثته نصه بمصاوتى ... ان لا أخف الجهر بكلمة الحق ... الحق الذى يعرفه الجميع انى رجل مشغب ... انكر أننى قد أبلغ أقصى حدود العنف حين أحارب أعدائى ، ولا عيب فى ذلك ، فالجروح قصص ... اننى غمرت فى أكثر من ألف معركة أدبيه ثم انتصرت فيها جميعه . فليس فى مصر عالم ولا أديب يستطيع أن يقول فى السر والعلن انه تنصر على زكى مبارك » وقد اشترك مبارك فى معارك متعددة غير التى رسمنا صوراً موجودة لها مع أحمد زكى (باشا) (نشرت فى باب شيث بن عربانوس) . ويوسف الدجوى ، وحسن القاياتى ، ومحمد عبد المطلب ، الشاعر المخضرم ، عليه رحمة الله ، ومحمد مسعود ، مدير المطبوعات سابقا ، وعبد الله عفيفى ، الشاعر .

المعلم الذى أثار المتاعب

بدأ زكى مبارك حياته معلما . وظل يعلم فى هذا الحقل ، حتى وصل الى منصب مدرس فى كلية الآداب . وعمل أستاذا فى دار المعلمين العالية فى بغداد . ثم عمل مفتشا للتعليم فى وزارة المعارف . وكان مختصا بالتفتيش على المدارس الاجنبية . وكان من قبل رئيسا لقسم اللغة العربية بالجامعة الامريكية . وقد جمع بين العمل فى الأدب - والصحافة والتعليم .

ولكنه كان فى كل لحظة لا ينسى أنه واحد من امفكرين الذين يحملون القلم والذين يستطيعون عن طريقه أن يسددوا الضربات ... وكان يهدد دائما بأنه يستطيع أن يفضح خصومه على صفحات البلاغ ...

ولذلك كانت له خصومات ، مع وزراء المعارف ، أمثال السنهوري
واسماعيل القباني ، ومحمود فهمي اشراشي وقد نقله السنهوري
الى دار الكتب ، فكتب فى البلاغ يقول :

« لن اطيع امرك ، الا يوم يقوم الدليل على أنك وزير ، فقد
أسلمت أمور الوزارة الى (قباني بلا ميزان) - يقصد (اسماعيل
القباني) انذى صار وزيرا للمعارف فى مستهل عهد حكومة الثورة .
« وأراد الوزير - وهذه عبارة بديعة - أن يقيم الدليل على أنه وزير
بالفعل ، فأصدر قرارا بالاستغناء عن خدماتي » .

وفى هذه الفترة الحرجة من حياته قضاه بنك مصر ، ندين عليه ،
وشركة مصر الجديدة ، وكان قد اشترى منها منزلا وامتنت
وزارة المعارف عن دفع ايجار مدرسته باستئريس المقامة فى منزله . .

وكان الغرض هسو تجريح الرجل الذى عرف كرامة الموظف .
ودعاه محمد حسن العشماوى (بشا) حينما عاد وزيرا للمعارف الى
العودة : فقال له « لن ندخلها مداموا فيها . . »

ولاقى مزيدا من المتاعب ، حينما نقد خطبة العرش فى افتتاحية
الرسالة وحقق معه وطلب اليه أن يعتذر على صفحات الرسالة . فقال :
« لا أعذر عن مقال ، كتبه ، وأعتقد أنه حق » . فألقى عقده مع وزارة
المعارف . وقل له الزيات : يعز على دكتور أن يخرج من عملك بوزارة
المعارف ، بسبب مقال فى الرسالة ، وأرجو أن تقبل العقد ، صديق
النقراشى ، وقل العقد ان النقراشى لن يستطيع اخراج زكى مبارك من
التفتيش خوفا من السنة الجرائد الوفدية ، ولكنه سبتعقبه بالتفتيش لعله
يجد تقصيرا يقضى بفسخ العقد .

وفى تلك السنة زرعت فضة الله من الشبل الى الجيوب .
وفتشت جميع المدارس الاجنبية . وكتبت تقارير لم يسبق لها مثل .
وجاء النقراشى وزيرا للمعارف ، وأمر السنهوري بمسابعة زكى
مبارك ، فأخرجاه من الوزارة .

وهاجم زكى مبارك المرحوم • على الجرم • • فقال : « انه كان كبير المفتشين عندما صدر قرار تعيينه مفتشا بمدرس الاجنبية (سنة ١٩٣٧) • وكان يضيق صدره من الشعراء ••• وقد نشر شاعر قصيدة بامضاء (الجرم الصغير) • فأمر بنقله الى مكان سحيق • وقد مدح المرحوم على الجرم جميع الوزراء • وفي المرحوم التي قصيدة طنانة في مدح الانجليز • وقل « انه يغتبنى في كل مكان ، ثم يلقي بالترحيب حين يراني ،

وهاجم النقراشي • فقل : « كان النقراشي رئيسا لوزارة في آخر ديسمبر سنة ١٩٤٦ • والادار تخطيء أحيانا ، فيصير مثل هذا الشخص رئيسا للوزراء ، وقد ثار طلبة الجامعة ، فأصدر أمرا بأن يضربهم الجند بالرصاص ، وكانت معركة حامية ، بين الطلبة والجند ، فوق كوبري عباس ، بالجيزة • •

ويقول زكى مبارك انه عمل في دار الكتب في ٢٥ من ديسمبر سنة ١٩٢٤ فشرح الجزء الأول من الأغني • ثم دعاه الدكتور طه حسين لتدريس اللغة العربية في كلية الآداب فلما وقع خلاف بينه وبين السنهوري أخرجته وزارة المعارف ، لأنه « موظف بعقد » • ورأى السنهوري أنه ما زال ينتفع بأموال وزارة المعارف لأنه أستاذ الأدب العربي بالمعهد العالي لفرن التمثيل ، فكتب السنهوري بخطه كتاب يقول فيه : ان التدريس بالمعهد العالي مقصور على المدرسين بوزارة المعارف فانت معزول • يقول زكى : « خرجت والدمع ينفجر من قلبي ، قبل أن يتفجر من عيني » • وأعاد المرحوم على أيوب عندما جاء وزيرا للمعارف الى دار الكتب ، ثم أعاده طه حسين الى التفتيش في وزارة المعارف •

ورجع الى التفتيش عام ١٩٥٠ في الدرجة الثالثة ، كما كان يوم عينه المرحوم على زكى العرابي (باشا) عام ١٩٣٧ وكان اذ ذاك في حدود الستين •

ولعل هذا هو الذي كان يدفع المرادة الى قلم مبارك • فقد كان يرجو أن يتحسن وضعه المادي بعد حصوله على الدكتوراه الثالثة (الصفوف)

التي نالها من الجامعة المصرية فقالوا له : لا يمكن أن تحصل على الترقية الا بعد طبع الرسالة • وقد كلفته الرسالة الضخمة أموالا كثيرة حين أعد منها خمس نسخ خطبة • • فكيف يطبعها وهو فقير الجيب » يقول في التعليق على ذلك : « حالى فى مصر حال عجيب • فقد عشت دهرى مظلوما وكان الظن أن يخف الظلم أو يزول بعد أن انتزعت الدكتوراه من أنياب الأسود • • »

• هل يصدق أحد أن وزارة المعارف المصرية لا تعطينى غير مرتب مؤقت الى أن يطبع ذلك الكتاب ؟ •

• هل يصدق أحد أنني لا أستطيع التعبير عن قيمة ذلك المرتب المؤقت ، لثلاث شملت أعدائي ، ولثلاث يعرف الناس أن رجال الادب فى مصر ، قد يعيشون عيش الفقة والاملاق ؟ • • •

• هل أستطيع أن أخبر بأن وزارة المعارف فى مصر قدرت لى مرتبا لا يكفى أن يكون مصروف جيب • ولمن ؟ لرجل متهم بالغنى ، ولا يصحح ولا يسمى الا وهو مطوق بأغلال من التكاليف • • •

ويصور زكى مبارك عمله فى دار المعلمين العالية فى بغداد • فيقول : « خلعت عليهم - أى الطلاب - كل ما أملك من المعارف الادبية والفلسفية ، وعودتهم عادات حسنة ، هى الاعتماد على النفس • واقتحام أخطر الموضوعات ، ومواجهة أصعب المضكلات • وكنت أدعوهم الى احراجى بأدق الأسئلة الأدبية والنحوية والصرفية والبلاغية والفقهية •

ويغمر زكى مبارك ويستطيل بأيامه » فى صحبة كلية الآداب التي أمضيت فيها مواسم شبابى ، يوم كنت فتى عارم العزيمة ، يؤذيه أن يقال ان فى الدنيا كتابا لم يطلع عليه • ويوم كنت مغمور القلب بأرواح الأمانى ، ويوم كنت أتوهم ان الجد فى طلب العلم لا يظفر صاحبه بغير الاعزاز والتبجيل ، ويوم كنت أخل أن الكفاح فى سبيل الأدب قد تنصب له الموازين • كنت طالبا ومدرسا بها من سنة ١٩١٣ الى سنة ١٩٣٧ ، ودرت معها من ميدان الاسماعيلية الى ميدان الفلكى • ومن حى المنيرة

الى هصر الزعفران ، ثم الى حديقة الأورمان ، ولم يراحم هواها في فؤادي
غير الأعوام التي قضيتها بكلية الآداب في جامعة باريس .. ،

ولعل هذا كله هو الذي جعل « زكى مبارك » ينوح صارخا من
الظلم ويردد آهاته في كل آن . فقد كن يحس في كل لحظة أنه لم
يأخذ مكانه اللائق به بعد ثلاث اجازات (للدكتوراه) وأربعين كتابا
قيدت « صحبته المكتوبة وأثاته المكتوبة »

أَيَّامُ الْآخِرَةِ

لماذا تحطم زكى مبارك ؟

كان لابد لهذا الجهد الضخم العصبى العاطفى المتدفع - كما يطلق
عليه زكى مبارك - ان ينفجر أو يتحطم .. فان هذا الرجل الذى كن
يتحدث عن « العفة » ويقول انه لم ير الطيب يوما ، ولم يرفد في
فرائشه ، ولم يعرف المرض ، والذى كن ينتج في خصوصيه عجيبة .
ويحاول في عناء عنيف ، ويسافر الى أوروبا بلا زاد ، وله أسرة وأولاد ،
ويحصل على ثلاث اجازات دكتوراه ، ويكتب خمسة آلاف صفحة في عام
واحد ، في بغداد ، ويؤلف أربعين كتابا في عشر سنوات ، ثم يجد نفسه
مازال موظفا بعقد في وزارة المعارف لا يأخذ مكانه الحق ، في الجامعة
أو في مناصب الثقافة ... ويجسد الهجوم يواجهه من كل ناحية ،
والخصومات تدفع الأحقاد الى النل منه ، ومناقشاته الأدبية ومساجلاته
تتحول الى عداوات وتملاً الصدور بالكرهية له ، فإذا به يبعد عن كلية
الآداب ، بعد أن يصل اليها . وينصل من وزارة المعارف ، بعد أن يلحق
بها . وإذا به ينعى زمنه وحظه ، ويتحول الى اعصار يدور حول نفسه
ويتحدث عن آثاره ونتاجه ، ويردهى بهما ويفاخر . ثم اذا به يصل
الى المرحلة العنيفة حين يحاول أن ينتج شيئا مثيرا ، فيتكلم عن الحب ،
ويحاول أن يكشف النفس الانسانية في جرأة ، ويهاجم المرأة ، ويثير
الضجيج . فإذا لم يجد من ذلك كله ما يحقق له آماله فانه يجنح الى الخمر

والخمر أم الكبائر ، واذا به يسرف فيها ، واذا به يتعد عن المجتمع ، واذا به يمضى أعواما مظلمة حزينة كثية ، لا يقرأ فيها كتابا ، ولا ينشئ بحثا . واذا بلمساجلات ، يريدنها . فلا يستطيع الدخول فيها . والكتاب ينقدون كتبه الغالين « النثر الفنى » ولتصوف الاسلامى « فذا هو غير قادر على أن يرد على المهاجمين واذا به يهتم بالالحاد والكفر . واذا هو عجز عن مواجهة ما يكتبون .

واذا به يعود الى « البلاغ » ليكتب فصولا ضعيفة الاسلوب ، ليس فيه بيان زكى مبارك الرائع ، ولا فكاهته الحلوة ، ولا سخريته ، ولا فوته ، وعرامته ، وصرامته وانما هى ذكريات تشل على ذهنه من وراء الوعي ، فيكتبها فى أسلوب ساذج ، وعبارات مفككة ، ويعاود عبارته التى تقول « نكتب التاريخ قبل أن يضع التاريخ » وما تزال الخمر تقصيه من ميدان البحث والفكر ، حتى يوشك ان ينتهى ، ككاتب ، ثم كإنسان . .

وهذه نهاية طبيعية ، فان هذا الجهاز الضخم العصبى العاطفى المندفع ، لابد له أن ينفجر أو يتحطم . وقد اختار أن يدوى ويذبل وراء ذلك الشئ الذى يخدر ويذهب العقل لينسى هذه الآلام والمتاعب .

ولقد ذكر بعض القاد أن امرأة لها أثرها فى تطوره وانحداره وفى ازمته ، فلقد كن يحب امرأة فى صورة لم تسو بشرا . وكان يحلم بالحب الكبير الذى صورته بعض القصص العالمية الخلدة . ولقد افتقد ذلك فى الواقع . فكان قادرا أن يصوره على لسانه كقصة ، يعيشها ويرضى نفسه بأنه عاشها ولو بالخيال . . ولذا بدا عليه التناقض . فهو حين يدعو الى الحب والجمال ، ويسرف فى تصوير المرأة بصورة الملائكة يحمل عليها حملاته الغنيفة ، فيذكرها بأقصى ما يمكن أن تذكر به . ولا شك أن « زكى مبارك » الفلاح الذى عرف الصوفية والدين فى أول حياته ، والأزهر فى شبابه ، والذى سافر الى أوروبا وعاش مع الفرنسيين فى عاصمتهم ، ورأى من صور الحرية والحياة والانطلاق ، ما رأى ، وهو الرجل الذى زوجه فى أول شبابه ، حين خافوا عليه أوهام العاطفة فأقام حياته ، وأنجب أبناءه ، قبل أن يذهب الى باريس ، وهو الرجل

الذى كان يفخر بزواجه الفلاحة التى حفظت عرضه مصونا ، وقلبه
سليما ...

كان لابد أن تأتى اللحظات التى يحس فيها بحاجته الى عاطفة
كبيرة نعوض احساسه بالنقص فى أوضاعه المادية والاجتماعية ، فالدكتور
« مضروب فى ثلاثة » يعمل فى وزارة المعارف ، مفتشا للمدارس الأجنبية
أو مراجعا فى دار الكتب و (زملاؤه) يشغلون أرقى المناصب ، فى
وزارة المعارف ، والجامعة ، لأنه لم يكن متصلا بحزب من الأحزاب •
أو ليس له فى الحكومة عم ولا خل ...

والحياة السياسية - اذ ذاك - كانت كذلك لانعطى الا للأتباع الذين
يسبحون بحمد هذا الزعيم أو ذاك •

أما زكى مبارك الذى عرف الحزب الوطنى فى شبابه ، ورأس
تحرير جريدة « الأفكار » وعمل مع الصوفانى ، والذى سجن عاما كاملا
ابان ثورة سنة ١٩١٩ فقد عر عليه أن يكون ذيلا لحزب من الأحزاب ،
ولذلك تخلف ..

وكان كلما ارتفعت به السن ، وازداد درجات من الدكتوراه ،
أحس بالندم على ما ضيع من وقت فى البحث ودرس ، فن دكتوراه
باريس لم تمده بما كان يطمح ، فظن أن « دكتوراه » أخرى من الجامعة
المصرية ربما تعطيه حقه ، ولكن دون جدوى •

هنالك أحس بالظلم ، وندم على أنه ترك صحيفة القاس والمحرات ،
وقال : انه لو اتجر بالتراب لكان أغنى الأغنياء • وفى ابان أزمته هذه -
وهو المرهف الحس - يرى أنداده ، ومن هم أقل منه ، يصلون الى أعظم
المناصب ، بفضل الحزبية والتفاق ... بدت حياته ، وفيها فراغ ، وفى
نفسه أزمة ، ولم تفده صرخاته ، ولم يكشف ما فى صدره من نوازع
ولهب .. وهو العاطفى بطبعه ، الذى لم يجنح الى العقل ..

هنالك كان لا بد أن يفرج أزمته ، يحل من الحلول ، ولذلك
كانت الخمر مغية عنه احساسه ساعة أو ليلة • ثم أسرف فيها ...

ومضى يحس في لحظات ، صحوه ، بالنقص في حياته الاجتماعية ، من حيث المنصب ، ومن حيث العاطفة •

تلك هي الصورة التحليلية التي أستطيع ان أجدها فيما فرأت لزكى مبارك في خلال هذه الفترة الأخيرة من حياته • ولهذا الاجمال تفصيل •

في خلال هذه الفترة كانت مقالات زكى مبارك فى البلاغ ، بعد أن ودع الرسالة عام ١٩٤٦ الى أن توفى عام ١٩٥١ ، تمثل نفسيته المضطربة • وتصور هذه المرحلة ايضا المقدمة التي قدم بها لديوانه « الحان الخلود » وروى فيها قصة حياته ومصولاته وخصوماته •

يقول مثلاً :

« العالم الأول فى سنتريس جده الشيخ دعاس مبارك • وكان من أكابر العلماء ، واقتفى أثره رجل فاضل ، هو الشيخ محمد غريب • ولكن اللجنة أسقطته فى امتحان العالمية مرتين •

ويقول : « أما دكتور سنتريس فالجواب حاضر : وهو أننى بالقول والفعل كبير سنتريس ، واملاكى فى بلادى لا يجتازها أحد الا بعد عبور نهرين ، وبعد أن تحفى قدمه من الشروق الى الغروب »

ويقول : « لقد عرف أبو شادى (صاحب أبولو) كيف يهاجر الى أمريكا فله معاش ضخم • وقد باع المناحل فى الاسكندرية بأربعة آلاف جنيه وأنا عاجز عن الهجرة لأسباب كثيرة أهمها فراق وطنى »

ويقول : الأرق يلزمنى فى الاسكندرية بدون ترفق • فمن لحظة الى لحظة أصحو وأوقد النور لأكتب للبلاغ أو أدون ملاحظاتي على المدرسين • أو لأقرأ كتباً فرنسية حتى أشبع • ثم أصحو مع العصفير ، لأؤدى الواجب الذى أكل منه لقمة العيش • ماذا أصنع ؟ ••

أنا رجل فقير يريد أن يعيش ، وقد سميت الى الوظيفة ، لأعيش ولولا هذه الوظيفة لما كان من الممكن أن أرى خزان أسوان »

ويقول : « باى حق يكون الاسد الزيات عضوا فى المجمع المغوى ولا آكون أنا عضوا فى المجمع المغوى • اثنان وأربعون كتابا ، منهما اثنان باللغة الفرنسيه ، ولسانس ودبلوم ، وثلاث « دكتوراهات » ومع ذلك يقال اننى ادعى ما ليس من حقى ، شئ يعيظ • »

ويقول : كبت مره فى ابلاغ أنامجمع المغوى فقد هيته حين خلا مه اسم زكى مبرك واسم خليل مضران • وايوم أقول اننى زاهد فى عضويه المجمع المغوى ، لأن هدد اسره ستجعلنى (زميلا) لحضرة الأستاذ محمد فريد ابى حديد •

لقد قضى محمد فريد أبو حديد خمسين دقيقة ، فى كلام لا ينفع ولا يفيد ، فأضحكنى وأضحك أسناده ، أحمد لطفى السيد « وأستاذنا طه حسين • أما أحمد أمين فقد عرف كيف ينتفع بالوقت ، فقد أمضاه فى النعاس • أما الدكتور منصور فهمى فقد اكتفى بالتشاؤب الموصول »

ويقول : « يقول المؤذن فى مسجد سيدى جابر « الصلاة خير من النوم » فأبتسم لأنى قضيت الليل سهران أعد النجوم • وقد عدت النجوم فرأيتها ماثلة لشعر الجياد من الخيل • وللناس عقول بعدد شعرهم وسهم وأنا أيضا لى عقول بعدد شعر رأسى •

والعقول فى لغة الصعايدة والشراقوة (عجول) •

ما الذى يوجب أن تشغلنى الذكريات ، فأذكر أيامى فى مصر وفرنسا والعراق • هذا توجيه الاشواق الى الأحباب • والمنغنى المصرى يقول :

أنا قمت بالليل وجدت الغراب عطشان
علقت له ساقيه من فوق ساقيه وحبالها مرجان

ويقول :

أنا قمت بالليل وجدت الغراب عطشان
علقت له ساقية من فوق ساقية وحبالها مرجان
ويقول : « ان راتبى فى وزارة المعارف ضئيل • وأنا أكمله بالمكافأة التى أخذها من البلاغ أجرا على مقالات لا يكتب مثلها كتب ولو غمس

يديه فى الجبر الأسود • ثم انى أنفق نصف مكافأة البلاغ على كتب
فرنسية وعربية • فد الذى يبقى لأنفقه على نفسى وعلى أبنائى ؟ »

ويقول : « حقيقة لم ألتفت إليها من قبل • هى عودة ذاكرتى • فقد
قضيت ثلاثة أيام بلياليها • بدون نوم فأعدت على نفسى أكثر أجزاء
القرآن الشريف ، وثلاثة أرباع ألفية ابن مالك وثلاثة أخماس أشعار
لافونتين ولا مرتين ، وهو جو ، ودى موسىه » •

ويقول : « أنا فى حرب مع زمنى • ولكنى سأنصر لأن الله معى •
لا موجب للخوف من الغد • فقد يكون فيه جراء لا يخطر فى بالك •
إذا غامت السماء اليوم ، فستصفو غدا » •

ويقول : « ان بنى آدم خائون • تؤلف خمسة وأربعين كتابا ،
منها اثنان باللغة الفرنسية ، وتنشر ألف مقالة فى البلاغ ، وتصير دكاترة
ومع هذا تبقى مفتشا بوزارة المعارف »

كما يقول : « يظهر أننى أجنبي • فان عيوني خضراء ، والعيون
المصرية سوداء • يجب أن ينشر البلاغ هذا الكلام السخيف ، لأنه سخيف
فالقتل أتعبنا فى هذه البلاد » •

ويقول : « سأكتب الى البلاغ حديثا أجمل من الورد فى الفجر ،
وأشهى من علم الفقير بأن فى جبه خمسة قروش أو خمسة ملاليم • نكتب
للبلاغ بمداد من دمع العيون »

ويقول : أنا حزنت كثيرا حتى صدر شعرى أشد بياضا من الصباح
ويقول : فى هذا اليوم سأدفع حسابى الى بنك مصر • وفى الغد أسافر
الى الاسكندرية مع سعدية لنفنى مع فى محطة الرمل ••

ويقول : أنا ماض الى تفتيش مدارس الاسكندرية • وسأتهز
الفرصة فأغرق فى البحر آلامى • والمنتظر أن يوحى الى البحر بقصيدة
جديدة • أنا أمضى الى القطار مبكرا لأجد مكانا مريحا بين ركاب ، أختار
وجوههم ، وأعرف قيام القطار ، بالمزادة على « البلاغ » •

وفي الاسكندرية أواجه البحر عند غروب الشمس ، وهي تستحم
عند الغروب ، ونظف سريجه إلى الشروق ، وهي الجمرة التي تصل حشرو
وهي تغرق •

من الأغاني القديمة : يا بن اسكندرية مشسيكم ع البحر غيه
وسأشمت (برملائي) في البلاغ ، وأنا مهم مقتاض • (فعل شمت لا يوجد
في اللغة الفرنسية) سأتركهم لنيران الظهيرة في مطبعة بين تحرير
وترجمة وتخير والتخير هو استقاء الخبر ، وهي كلمة لا يعرفها
أعضاء المجمع اللغوي •

ويقول : ماذا أصنع ؟ يقال : اننى أنحدث عن نفسى كثيرا ، وجوابي
هو قول ابن الرومي :

وعزیز علی مدحی نفسی غیر انی جشمنه لدلانه
وهو عيب يكاد يسقط فيه كل حر ، يريد يظهر حنه
لابن الرومي شارع باسمه بالتقرب من محطة الرمل ، فهل هو ابن
الرومي الشاعر ؟ يجوز ان يكون أحد اليونان سمع باسمه فسمى الشارع
باسمه ***

إذا نزلت في محطه سيدى جابر ، وجدت شارع باسم عمر النخيم ،
والسبب يرجع الى أن أحد أعضاء البلدية تأثر بشعر • وفي الاسكندرية
شارع باسم حفتى (بك) نصف •

وفي مقدمه ديوان « ألحن الخلود » (١) عبارات من هذا النوع أيضا
هى أشبه بتداعى المعانى والذكريات •

• لم تكن الحياة هينة فى العامين الماضيين • فقد خرجت من على
فى وزارة المعارف ، بعد معركة عنيفة بينى وبين اسنهورى ، فقد شوب
وجهه على صفحات البلاغ ، وجعلته أضحوكة يتندر بها الناس فى الأندية
والمجالس والقهوات •

(١) صدر سنة ١٩٤٧ •

♦ لى أبناء واحمد لله • ولكن أبائى من روحى اعز على من أبائى من بدنى : انها اشعارى ومؤلفاتى • اذن يجب أن أنفق على أبائى من روحى بعدما أنفقت على أنائى من بدنى •

♦ جوزت الخامسة والخمسين ، ولم أشعر بمرض يلزمنى السرير ليلة واحدة وتادت عينائى من كثرة المطالعة فى المؤلفات العربية والفرنسية ، ومع ذلك نجحت فى امتحان القومسيون سنة ١٩٣٧ ، حين عينت مفتشاً بوزارة المعارف • وكانت سنئى نزيد على السابعة والأربعين •

♦ كان الدكتور طه هو رئيس اللجنة التى أودى أمامها امتحان الدكتوراه فى الفلسفة فاعتذر وأنب عنه وكيل الكلية الأستاذ « محمد شفيق غربال » •

وأراد الدكتور طه أن يصرف الجمهور عن حضور امتحانئى ، فأعلن فى جريدة الأهرام أنه سيلقى محاضرة فى الجمعية الجغرافية عن « فكاهات الجاحظ » • ولكن محاضرتة ضاعت عليه ، فلم يحضرها أحد بالرغم من الاعلان •

وفى الساعة السابعة اتصل تليفونيا بإدارة الكلية ليعرف النتيجة ويا هول ما عرف ! لقد عرف انئى ظفرت بإجازة الدكتوراه فى الفلسفة برتبة الشرف ، فما كنت أنتظر أن أظفر بدرجة علمية يمضيها أحمد لطفى السيد ، وطه حسين ، وهو من كبار خصمائئى • أخذت هذه الدرجة بالقوة ، قوة البحث ، قوة كتاب التصوف الاسلامى • وهو كتاب أشقيت نفسى فيه تسع سنين • انه كتاب لم يسبقنى اليه سابق ولن يلحقنى فيه لاحق ، ولن تنجب الجامعة المصرية فتئى يؤلف كتابا مثل هذا الكتاب •

♦ وكما قلنا من قبل ، قال : « كنت ألقى دروسا مسائية فى تدريس اللغة الفرنسية بمدرسة اليانس فرانسيز ، وكنت أخرج مكثودا بعد ساعتين من الدرس • دخلت البيت ، فوجدته فى سكون على غير المؤلف ، فعرفت أن (أحمد) مات • وأن زوجتى لاتريد أن ترانى لئلا اقرأ فى سطور وجهها أن (أحمد) مات •

أويت الى فرنسا ، وهو يقع في الدور الثاني من البيت ، وفُضيت
الليل كله في أحلام مرعجت . ان للشكل طعما مرا غاية المرادة . وكفنه
بيدى . وحملته الى متواء الأخير . »

« زكى مبارك في أيامه الأخيرة »

ولقد كان زكى مبارك - في أيامه الأخيرة - يرتاد امجمع والأندية
الأدبية وقد خلا أسلوبه من رفعة وصفائه . فإذا به يغنى ويصرح ويضحك
ولكن هذا التوقد في كلمات زكى مبارك لم يكن الا مقدمة لانطفاء هذه
الجدوة المتوهجة .

وفي هذه الفترة أخذ زكى مبارك - يهمل ملابسه وكتبه واتساجه
ويظهر ان مكتبته أصابها الفوضى ، كما ذكرت بعض الصحف ورسمته
عددا من الصور الفوتوغرافية - في برجه العاجى ، وقال المحرر :

« برج الدكتور العاجى مؤلف من خمس غرف وصاله كبيرة . ويضم
أكثر من عشرين ألف كتاب ، وضع بعضها في نحو ثلاثين دولابا ، ووزع
البعض الآخر في أركان الغرف وبجرب النوافذ والمقاعد ، وعلى الأرض .
وقد حرم الدكتور على الناس بلا استثناء دخول برجه أو الدنو منه .
ولهذا فان التراب وبقايا السجير مارات في مكانها تزيد وتنكث من
عشرات السنين . وكثيرا ما يهبط النوحى على الدكتور بفكرة رائعة أو بيت
من الشعر ، ثم لا يجد في هذا المخزن اعظيم ورقة بيضاء ، فيسارع بتسجيل
الفكرة أو الشعر على خشب النوافذ ، أو جدران الحائط . وكثيرا ما غرت
(التليمنون) بين المجلدان والأوراق فلا يعثر عليه الدكتور الا بعد جهد
جهد . »

وفي السنوات الأخيرة كان الدكتور مبارك يقيم طوال يومه وحتى
منتصف الليل في قهوة أمام ميدان اتوفيقه . وقد أعفى نفسه من مهـ .
العمل في وزارة المعارف . ولم يعد يكتب الا كلماته في البلاغ . فكس
« التاريخ قبل أن يذهب التاريخ » ، بحب عنوان : « الحديث ذو شجون . »

اليوم الأخير

توفي زكى مبارك يوم « ٢٣ من يناير ١٩٥٢ » بعد عملية جراحية كتب لها النجاح وقت اجرائها ، وجاءت نهيته أجله بعدها بساعات وفاضت روحه بمستشفى الدمرداش ، فيما يسير مع اصدقائه فى شارع عماد الدين ، فى مساء اليوم السابق لوفاته ، إذ أصيب باغماء مفاجئ أدى الى سقوطه على الأرض ، وأصيب على أثر ذلك بجرح فى رأسه فحمله مرافقوه الى منزله بمصر الجديدة ، فى سيارة خاصة . وظل غائبا عن الوعي حتى الساعة الخامسة والنصف من صباح اليوم التالى . وكان كبار الأطباء قد أجمعوا على ضرورة اجراء عملية ترينه فى انحل . فنقل الى مستشفى الدمرداش وتمت العملية بنجاح . الا انه أصيب من جراء سقوطه بارتجاج فى المخ ، أدى الى مفارقة الحياة ..

وهكذا تحطم المخ الذى طالما كتب ، وصاويل ، وقاتل ، وساجل ، وأثار الدنيا . وكان آخر حديث له فى جريدة البلاغ وآخر كلمة له .
هى : « أن (أحمد محبى فؤاد) يذكر فى خطاب له أن زوجته تستغرق فى الضحك ، حين تقرأ مقالاته ، ثم تبكى بعد ذلك . ويطلب توضيح لهذه الحالة الغريبة . والجواب عند زوجتك يا سيد فؤاد ، » .

وفى هذا المقال ، قال زكى مبارك :

« أنا مسافر الى الاسكندرية . فهتوني يا قرائي ، سأرسل الى البلاغ مقالة أصور بها آلامى فى حياتي . فعل سافر معناه بالفرنسية : « قطع الرجل جزءا من حياته . » لأننى مفتش المدارس الأجنبية بمصر . وسأذرع فضاء الله من الشمال الى الجنوب .

وكان يقال من علمنى حرفا صرت له عبدا . والدكتور طه علمنى ثلاثة حروف : ألم تسمعوا أننى دكاترة ؟ ..

الدكتوراه الرابعة من جامعة الاسكندرية . وقد أعددت البحث . وسأنجح . فان تجاهل الأساتذة منزلتى ، فسأهجوهم فى البلاغ ، وهى فرصة لمقالة آخذ بها دنائير ، » .

وفد رئاه محمد عبد القدر حمزة (باشا) فقال : « كان كزرا من كنوز الأدب العربي ، لا أظن أن مصر ستري له ميلا بعد عشرات السنين . كان هدية اقترية المصرية الى الجامعة لزهريه ثم الى السربون ثم الى الجامعة المصرية . »

خلة الوفاء ظهرت في زيارته للعراف ، وبلغ ارقى صورها . اذ كان للفقيه الكريم قطعته من انبوغ المصري وانواء ، ثم يلبث أن جعل له ولبلاده في العراق من نبهه التذكر وبعد الحيت ملا أطن ان العراقيين سينسونه أبدا فلما عد الى مصر ظل اسم العراق لا يغادر فله ، حتى مات » .

وقال محمد زكي عبد القادر : « كان زكي مبارك كنباً مطبوعاً وأديباً (فنانياً) وشاعراً موهوباً ، ورجلاً انطلق في احية كما تشاء الحياة . ولو أراد أن يكون صاحب جده لكان ولكنه آثر أن يعيش بانعريض لا بالطول . أحب من الحياة شرها وخيرها فأحسن التعبير عنها . أحبها أعماق ما يكون الحب ، دخل مرة ، والجمعية العامة لقبية الصحفيين منعقدة . وفي الفضة أكثر من ثلثمائة صحفى ، مشغولين بالانتخابات . وأخذ الأديب الكبير يغنى . ولفت البعض نظره الى أن هذا ضجيج وعجيج . ورجاه أن يكف فابتسم ابتسامته الرقيقة البريئة . وقال : « كيف اغنى يا أخى .. »

كان زكي مبارك يكتب لنفسه . وهذه هي سمة القوة في الفن . يحاول أن يزوق أو يلبس عمامة الواعظ أو يدعى أنه رجل لا يأثم ..

وصور محمد بيومي الجنيد العقدة النفسية التي جعلت من اتساج الدكتور زكي مبارك في بضع السنين الأخيرة اتجا سطحي ، والتي جعلته ينطوى على نفسه فهزت من كيانه . ولكنه كان يغالب دهره ، ويحاول الصمود أمام الزمان . وكثيرا ما كانت مقالاته في العهد الاخير مرآة تنعكس عليها أحاسيسه ، فيشكو ثم يشكو ، ثم يعود اليه صحوه فيرى نفسه على حقيقته ، أديبا ملأ الدنيا أدبا وعلما . وأضاف الى المكتبة العربية ثروة ضخمة هي عصارة ذهنه سنوات طوالا . »

وبعد !

هل استطيع ان أقول اننى استصمت أن ارسم صورة لحياة زكى مبارك ودراسه لادبه ؟ ..

الجواب : اننى لم أبلغ الغايه التى ترضينى • وانما أردت أن أرسم صورة خفيفة الغلال غير عميقة لهذا الكاتب الذى يمثل جانباً قوياً من جوانب أدبنا المعاصر ، والذى مضى منذ عشر سنوات ، دون أن يجد من يكتب عنه كلمة ، أو يعرض سيرته وأدبه للناس ، بعد أن كان يملأ الدنيا ويشغل الأدباء والمفكرين ..

لقد كان فى منهجى أن أعصى هذه الصورة ، وأكتب دراسات عن أولئك الذين نسيهم الناس وغفل عنهم أقرانهم وزملائهم وقد بدأت بالزهاوى • وأرجو أن أكتب دراسات أخرى عن أعلام لم ينالوا ما هم أهل له من تقدير •

ولقد حاولت أن أصور (زكى مبارك) دون تحيز أو مجاملة • ثم أجعل لعاطفتى كبير دخل فى دراسته • وقد كبحت جماح مشاعرى عنه حتى يظهر بخيره وشره ، دون عدوان عليه أو مبالغة فى تقديره •

فهل ترانى وفقت فى رسم هذه الصورة ؟ ..

ولقد جعلت لكلام زكى مبارك المقام الأول فى هذا البحث وحاولت أن أجعله يرسم الصورة بنفسه دون (رتوش) •

كان زكى مبارك منبسطة الأسارير ، ذا عينين خضراوين له جسم متوسط الطول ، متين التراكيب • يقول • ورثت خضرة العينين عن أمى ، سقى قبرها الغيث • •

وقد وصف نفسه بأنه الكاتب الوحيد الذى يخجل من أن يقول فى السر ما يعجز عن قوله فى العلانية • وهو يعيش فى وطنه عيش الغرباء • وليس لديه من الوقت ما يمكنه من زيارة الشواطئ وقد شغل وقته

بـسائيف والصحيح ، من المصباح الى مصنف الليل • ووصفه خصومه بأنه
غير مصقول •

ويقول : انه سيموت قبل الاوان بسبب الاسراف فى الطعام والشراب
ووصف النقد أدبه بأنه أشبه بالعواصف (١) الثائرة ، غير انها تهدم
لبننى ، وتقلع لتثبت شجرا متمررا طيبا •

يفخر بأنه فلاح لا يؤذيه النوم فوق الأرض الجرداء ، وعندما بدأ
حياته صوفيا كن كثير التساؤل عن كل شيء • وكذلك عش موصول النقاش
والمجاج •

وصف نفسه بأنه يعشق جميع الصور ، ويهيم بجميع المعنى ، وظواهر
الوجود • صور شعرية تموج بألوان السحر والفنون •

وهو يرى أن نوحى الشيب فى رأسه لم يخمد نار شبابه • يخيمه
البحر اعنف الخوف ، ولكنه لا يخاف الفرق ، انما يخشى الدوار الذى
عبي أهواله عشرات امرات من عبور البحر المتوسط من الاسكندرية الى
مرسيليا •

يرى أنه وقف لأعداء العروبة والاسلام بالمرصاد • مزق أوهام
الخوارج عن العروبة والاسلام شر مسرف ، ودحر من سولت لهم أنفسهم
أن يتناولوا على ماضى الأمة العربية وعدى من أجل الحق رجلا ، يضرون
وينفعون • ولا ينظم الشعر الا اذا جاشت نفسه وفاض قلبه •

أبرز مظاهر أدبه ، العنف ، والنوصل الى آخر الشوط فى الاعجاب
أو الكراهية • يؤمن بأن الآثار الأدبية والفنية والطبيعية لا تعطى سرها الا
للرجل المنفرد • وهى أشبه بانغوانى تنمر من الصاحب والشريك •

يؤثر الأدب الصريح انكشف على الأدب المقنع الهيوب • يرى أنه
لولا نشأته على الوقار لكان من كبار المصارعين • يرى أنه لم يكن الا خفيف
زار فى السحر ساقية الكرخ • وفى بغداد أحب العراق • ومن أجل
معه شراب ماء الفرات صرفا ممزوجا بالطين فراه أشهى من الرضاب المعسول

(١) من مصطفى سلامة (مجلة الثقافة)

من طرائفه أنه في خلال زيارته لبعض أنحاء العراق رأى نباتاً اسمه
(انهجنع) الذي يذكر اسمه في مقدمة كتب البلاغة يقول : « وقد بلغته
تحيات الأستاذة بالأزهر الشريف » .

وبرى أن كتاب التصوف الاسلامي ، هو خير ما كان وما سيكون في
التعبير عن العبقرية العربية .

ومن عباراته الجميلة قوله : « لقد سمعت أنك بعث دارك بثمرن بخس
نسدد ديونك فهل علمت أن لك عقبي اندار ؟ »

وهو يؤمن بأن العزلة أصبحت طبيعة ثانية له لا يمكن منها الخلاص
وأنه ما دخل بلداً الا أداع فيه من محمد ومنذ .

وعنده أن المجد أعظم من الحب . وأن المجد هو الذي يسوق أسراب
الملاح صاغرات .

وقد عرف زكي مبارك بالولع بالعبارات الفرنسية يضعها بين السطور
دون أن يترجمها . وكان يكتب اسمه : (محمد زكي عبد السلام) .
ويطبع مؤلفاته على حسابه في الاغلب ويوزعها في البلاد العربية . . وقد
غنى بصوته في الاداعة قصيدة « غرام يوم الثلاثاء » . .

ومن عباراته : أن المستميت لا يموت . فأبرز فنون أدبه : الجدل
والسجال . ويوصف أدبه بالحماسة ، والاندفاع العاطفي ، والحديث
عن النفس . وقد كان يرى أمامه صورة رجل واحد ، يريد أن يكون
نده وقرينه ، وهو طه حسين .

وبعد . فهذا زكي مبارك بحسناته وسيئاته . أردت أن أعطي صورة
منصفة صحيحة عنه بخيره وشره ، أردت أن أرسم له صورة كاملة ، لم
ألجأ الى التحليل كثيراً ، ولكنني تركته هو يتكلم ويرسم الصورة ، صورة
الانسان ، يضعفه وقوته ، في أوج قوته وشجاعته ، وفي ساعات ظلمه
واحساسه بالكرب ، وشعوره بأنه مغبون لم ينصف .

ان عيب زكي مبارك ولعله من حسناته أو علامات الخلاف بينه وبين

كتاب جيله أنه كان كذاباً مضوحاً صريحاً ، سجل كل شيء ، ولم يخف عنا شيئاً من حياته انعاماً وإحساناً .

أما غيره ، فقد أظهر جوانب القوة ، وأخفى جوانب الضعف .

إن عيب زكي مبارك أنه ترك لنا مذكراته فلم تكن في حاجة كبيرة إلى البحث عن خفايا حياته . لذلك لم يكن هذا الكتاب إلا تنسيقاً لأرائه وتقديمها في صورة معين على رسم صورة لحياته وشخصيته .

ولم يكن من الممكن أن تتجاهل شيئاً من الصورة ، لأنه سجلها بقلمه : سجل أهواءه ومبادئه .

ولكنك حين تقرأ هذه الصفحات قراءة النصف ، تراه عظيماً ، وترى صراحته ونقائه واضحين في كل حركة ، حتى في مجونه وشمسه . فيه يجعلك ينظر إليه في ثقة ، حين تراه يحدثك عن كل شيء في جرأة ودون خوف : « إن الذي يخدعك هو الرجل الذي يخفي عنك أشياء ، ويظهر أخرى . إنه الرجل الذي يداري أنيابه ، ويبدو لك في صورة الوقار والسماحة وهو مطوى الاضالع على الغل والحقد .

لقد كره مبارك هؤلاء الناس ، وأراد أن يغير التقليد ، فيبدو لأول مرة في تاريخ أدبه المعاصر الأديب الواضح الصريح فلنعتبه به ولننظر له على أنه إنسان يخطئ ويصيب ، كل ما هناك أن الناس الذين نعرفهم قد توقروا وأخفوا عنا حياتهم الخاصة ، أما هو فكان كبير الثقة بأننا لا ندرجه عندما نكشفها لنا .

إن « زكي مبارك » في حقيقة أمره يصور جانباً قوياً من تاريخ أدبنا العربي المعاصر وهو مرآة لجيل كامل . فإذا تساءلنا : هل مات أدبه ؟ قلنا : لم يمض . وعندى أن أدب زكي مبارك سيحيا لأن كتبه حارب الاستعمار . فقد ذهب إلى فرنسا وعاد ، وما زالت أمانته لأمنه أكبر من أمانته للغرب . ولم تحص عليه كلمة واحدة انحرف فيها إلى دعوى التغريب ، بل لعله كان قد ازداد عمقا في فهم القومية العربية والإيمان بوطنه الكبير .

ولم يكن زكي مبارك صنيعاً حزب من الأحزاب . ولم يكن له سناد

من الأسندة التي رفعت كثيرا من الأدباء في مصر • فهو يرى أن أحدا لم يعز أدبه كما أعز سعد زغلول أدب المنفلوطي والعقاد • وكما أعز ثروت أدب طه حسين • وكما أعز محمد عبده أدب حافظ • ولم تقم قيمته الأدبية على أساس من الشهرة السياسية ، ولم يصل الى مركزه الأدبي بفضل الحزبية المعروفة اذ ذاك •

وزكى مبارك ، الى هذا ، له فطرة واضحة على تصوير السمائل والأحاسيس ، وقد خلق فنا جديدا ، لم يصل الى مباراته فيه أحد ، وفي أسلوبه رصانة وبلاغة ، يمتزج بالبساطة والطرافة • وما من موضوع علمي يطره ، الا أحسست انه يمزج الجد فيه بروح الفكاهة فاذا انت نسر منه ، ولا تخشاه • وقد اخترع آفاقا جديدة في الكتابة الرمزية • كما ابتدع نماذج ، جرى على لسانها ما عجز عن قوله صراحة •

وقد غضب عليه الكثيرون - ومنهم المازني - لأنه على حد قول المازني « يحشر في كتبه كل ما يسمعه من الناس ، في مواطن الجسد والهزل • ولا يعنيه انه يسوءهم ان يروى عنهم ما يمضون به أوقات الفراغ في مجلس السمر او اللهو » •

ويلحق زكى مبارك على ذلك فيقول •• « ونفرض أن في تعقب هفوات الناس متعة لبعض الأهواء • فهل غاب عن أذهان الكتّاب أن المجالس فيها من الشعر والجازبية ما لا يوجد فيها من العيوب ؟ »

ان هناك أرواحا تشوق الى تعرف الكرم والنبل في السمائل والخصال وتشاق الى معرفة الجوانب القوية من أخلاق الرجال • فلا يظن أحد اننا نعق الصدق حين تنغاضي عن سرد العيوب • فنحن نعرف أن العصمة لله وحده ، وان في كل امرئ مغمزا ، ونعرف بجانب ذلك ان الخير في الانسانية اقوى من الشر ، وأن الانسان بطبيعته مخلوق نبيل ، لا يغيره عن الفطرة الا أصدقاء السوء من الناس ومن الأراء •

وهو في كل مكان يحل فيه ، نجده يختزن لأدبه ، ويعب من رحيق

الحياة ، ليحيل ما يرى فنا من فنون الأدب فاذا ذهب الى بحيرة التمساح ،
ابان احتلال منطقة القناة ، وتطلع الى قلمه ، فانه يقول :

« وقفت على شاطئ بحيرة التمساح وفقة الغريب .. »

— ما اشقى أن يعيش المرء فى بلاد عيش الغرباء • فهلا تصدقون انى
لم أستطع التفاهم مع من رأيتهم على ذلك اشاطئ • الا باللغة الفرنسية ؟

زرت ذلك الشاطئ • مرة قبل نصف الليل ، فرأيت مكانا تأتلق فيه
المصابيح • وكان فى نيتى ان اركب زورق لأشهد جمال الليل فى بحيرة
التمساح • ثم رجعت عن تلك النية • عز على ، أن تشهد مساء تلك
البحيرة مصريا يلهو ، خشيت أن نسألى ميه تلك البحيرة عما أملك من
سفائن • خشيت ان أجهل مصري فى تلك امية فاعتصمت بالشاطئ • »

وهو يصدق حين يقول : « وأوصى بزيارته البحر من حين الى حين •
فهو من أقوى مصادر الايحاء • وهو الذى فجر ربيع الشاعرية فى
صدرى • فقد عبرته أربع عشرة مرة فى ذهابى وايابى من القاهرة الى
باريس » •

فاذا ذهب الى الصعيد بغية التفتيش على المدارس ثم يس فلمه ، ولم
يس الأدب ، فهو يسجل ملاحظاته وآراءه • »

« قطار الصعيد • • »

« فى هذه اللحظة أشعر بالندم على أنسى ركبت القطار السريع ، ولم
أركب القطار (القشاش) • وهو القطار الذى يقف فى جميع المحطات ،
ويباع فيه القصب والبرتقال بسخاء • • يمر انقصار السريع على فرى
الصعيد مرور الطيف • فلا يكاد المسافر يتذكر أن فى كل قرية من تلك
القرى أرواحا وقلوبا ، ولأهلها تاريخا أو تواريخ • • هذه منارة تدل على
مسجد • فأين من يذكر أن مساجد الصعيد كان لها أياد بيض فى حفظ
العلوم الاسلامية ؟

وذاك فلاح يناجى الأرض مناجاة الحبيب لمحبب ، فأين من يذكر أن

الفلاح المصرى قد يكون أخوف الناس من الله ثم لانتعنه تقواه من انتهاب
شبر أو (فتر) من أرض الجيران » •

وقال : « أحبك يا وطنى • أحبك • أحبك باعظم مما أحبك مصطفى كامل ،
ومحمد فريد ، وسعد زغلول • • أحبك يا وطنى وأستعذب عذابى فبك •
لأنك فى عينى وقلبى غاية فى روعة الجمال • لم يعان أحد من الظلم فى
وطنه ما عانيت ، فما زادنى ذلك الظلم الأليم الا عرفانا بجمال وطنى •
وهل رأيتم جميلا غير مظلوم ؟ »

وهكذا : الصديق هو أول ميزة لأدب زكى مبارك •

ركما قلنا من قبل ، فان من الصديق ، قوله : « يسرنى أن أسجل
اعترافى بالجميل لزوجتى الفلاحة التى سارت سيرة أمها ، وجدتها •
فحفظت قلبى سبيما من الهموم التى تزلزل عزائم الرجال • وهو يصور
مشاعره بالنسبة لكل ما يراه ويربط بين مرائيه وبين الأدب » •

« ليس لدى ما يمنع من الاعتراف بانى لم أر الطاووس وهو —
ينشر جناحيه زهوا واختيلا الا منذ يومين • • ولقد احيا فى نفسى هذا
المشهد حسرة قديمة طالما عذبتنى بصنوف الآلام ، لتقصيرى فى دراسة
الطير والحيوان ، ثم سكنت قليلا حين تذكرت اننى لم تفتنى فى دراسة
الحيوان جملة واحدة ، فقد اهتممت بدراسة الحيوان الناطق الذى اسمه
الانسان •

على أن الأدب الذى شغلت بدرسه ، وقضيت فيه أنفوس أعوام شبابى
ليس شيئا آخر غير دراسة أوهام الحيوان الناطق واحلامه ، وتصوراتيه وكيف
يحب ، وكيف يحقد ، وكيف يخطئ ، وكيف يصيب •

وقد ابتلانى الله بطوائف كثيرة من الدسائس والكائدين والمسلم ،
فكانت فرصة عظيمة لفهم غرائز هذا الحيوان ، وطباعه ، وميوله ،
وأطماعه • •

وهو صادق الايمان بوطنه ، وبالأدب العربى • يردد اسمهما فى كل
وقت اذ يقول :

« الى الأدب العربي يرجع الفضل في تأريث ابعثونه العربيه ، »

وكان يرى « ان اعظم مجد لمصر هو ان تستصيع التفاهم مع الأمم العربية الاسلامية في الشرق لتتخذ منهم دروع حصينة ، تقى اللغة العربية عدوان اللغات الاجنبية . وهو يرى أن أدباء اليوم تغلب عليهم « الحذر والتهيب . وقد ابتلتهم المدنية بضروب من الصقل والتهذيب » وهي شارة العبودية ، عند من ينظرون في البلاد أنهم يجعلون الأدب مذهب من مذاهب العيش . والذي يتأدب ليعيش يظل طول دهره ذليلا جبانا . لا يصلح لجidal ولا نضل ، ولا يلين قلمه الا في مدارج الرياء . »

وهكذا يبدو أدب زكي مبارك في صورة الصراحة وانصدق ، ويصل فيها الى اقصى الحدود ..

بل انه يرى ان الأدب عند بعض الأدباء ليس الا وثبة وصولية ، يحققون بها غرضا . ثم ينتهي الامر .. يقول : وكبر الأدباء في مصر لم يعد لهم الا الظفر بالراحه وبلهنية العيش ، وهم ينظرون الى الادباء المجاهدين نظرات لا تخلو من الشئمة والازدراء . وكاد الجمهور يطمش الى أن الأدب ليس الا وثبة وصولية يصطنعها من رزقهم الله حاسه المعاش .

وبعد . فان جملة القول أن « زكي مبارك » قد عاش أدبه بصيغته الريفية بكل ما فيها من صراحة وخشونة وصراع . ولذلك وضعه البعض بأنه غير مصقول . وقال عنه آخرون انه الملاك المادبي ثقافتا الحديثة . ولكن زكي مبارك الريفى المزعة لم يكن عند غير الخشونة والعنف والصلابة . وهي صفات ربما كانت تحمل محمل النقد . ولكنه كان ريفيا أيضا في صدقه وبساطته وصراحته ، وريفيا أيضا في نداء قلبه وبعدد عن الأحقاد ، وإيمانه الصادق بالرأى الصريح ، والنأى عن الدلة والتفاق .

فلما حاول زكي مبارك أن يصل الى أرقى الدرجات ، ووجد من الموانع ماحل بينه وبين ذلك ، ذهب بقوته الذاتية ، ولم يعأ بأى معوق ، بل انه فعل ذلك وهو زوج ، وله أولاد . قد يقال أنهم ربما يمنعون الرجل - أى رجل - عن الاندفاع في مغامرة لا يعرف لها غية .

واستطاع ان يصل الى ارقى درجات العلمية • ولكن صراحة زكى مبارك واعتزازه بكرامته ، وصدقه ، وبعده عن النفاق ، وصلابته فيما يؤمن به ، وطبيعته الريفية بما فيها من عيوب ومحاسن قد ابعده عن تيارات الأحزاب ، ومن ثم لم يستطع أن يصل الى مكانه الحق ، حيث كان التابعون للأحزاب من العلماء والأدباء والموظفين هم الذين يصلون وحدهم • على حين انه كان قد سدت أمام ذوى النزعات الاستقلالية أو المبادئ القومية - بعيدا عن مواطن الشهوات الحزبية - أبواب الرزق أو مدارج الرقى •

فلما اندفع زكى مبارك مرة اخرى ليحصل على اجازات أخرى من الدكتوراه لم يزد ذلك شيئا ، ولم يحقق له أملا من آمال الوصول الى المكان اللائق به •

هنالك انفجرت نفسه فى صيل مستمر ، ومعارك متصلة بينه وبين ادباء جيله ، اراد بها أن يؤكد شخصيته ، ولم يكن فى بعض هذه المعارك متجنبا ، وانما كان قد حيل بينه وبين الرزق صراحة ، فكان لذلك أثره فى نفسه •

فلما تعددت هذه الصور على أيدي وزراء المعارف ، الذين كان قد صاولهم ، فحملوا فى أنفسهم له السخيمة ، اهتزت شخصيته اهتزازا عنيفا فمضى ينحرف عن طريقه ، ويغرب فى هذا الانحراف ، ويدارى عقله الواعى بحجب جديدة ، هنالك مضت حياته مظلمة كثية حتى انتهت فجأة على نحو بالغ القسوة •

ولكن ذلك لا يمنع من القول ان أدب زكى مبارك كان فى خلال حياته كلها - حتى فى ابان أزمته النفسية - صادقا صريحا قويا ، فيه الايجابية والوضوح •

ويمكن أن يوصف أدب زكى مبارك بأنه أدب القوة والاييجابية • وهو فى مجموعته ، حيث يرسم وجهها جديدا ، فيه القوة والجرأة والصرامة والنزعة العاطفية •

ولذلك ، فهو لن يموت •• وسيحيا •• وستبقى ذكرى زكى مبارك طيب الله ثراه •

فهرس

الموضوع	الصفحة
حياة زكى مبارك وأدبه	٣
مطالع الحياة	٧
منتريس بالمنوفية	٧
فى منتريس	٩
أبى	١٠
مطالع الحياة فى الأزهر	١٣
من رسائل المعتقل	١٦
ذكرىات طالب اشترك فى الثورة	١٧
حياته فى الجامعة	٢٥
فى باريس	٣١
فى السربون	٣٥
فى بغداد	٣٩
ملاحح شخصيته	٤٢
غربة القلب	٦٣
الشاعر	٦٦
مبارك المكاتب	٧٢
أسلوبه ومنهجه فى البحث	٧٨
وجدانىات مبارك	٨٤
آراء زكى مبارك	٩٣
فى الأدب العربى الحديث	١٠٥
زكى مبارك والتصوف	١١٠
فن جديد فى الكتابة	١١٦
خصومات مبارك وهماركه الأدبية	١٣١
أضحى همركه خاضها زكى مبارك (المعركة مع طه حسين)	١٣٤

الصفحة

الموضوع

١٤١	قصة أحمد الله إليك
١٤٦	ذكر مبارك في معركة مع أحمد أمين
١٥٢	معركة مع السباعي بيومي
١٥٥	مع العقاد
١٥٧	زكي مبارك مع سلام موسى
١٥٩	زكي مبارك وشوقي
١٦١	مع لطفى جمعة
١٦٤	الملاكم الأدبي في ثقافتنا الحديثة
١٦٨	زكي مبارك والرافعي
١٧١	المعلم الذي آثار المتاعب
١٧٥	أيامه الأخيرة
١٨٣	زكي مبارك في أيامه الأخيرة
١٨٤	اليوم الأخير
١٨٦	وبعد